كراسات الكتيبة

عدد خاص ، فيفري 2022

فِكر

حصريا لـ « كراسات الكتيبة »

الشاعر و الإعلامي

أيمن أبو الشعر

يروي **مذكراته** مع درويش،
قباني، بسيسو، رسول
حمزاتوف، وانطباعاته
عن غورباتشوف وبوتن

كي لا تغادر معي

الشـاعر أيمن أبو الشعر

الكتيبة

إشــراف : يسرى بلالي

غرافيــك : منال بن رجب

الغـلاف الخارجي : معاذ عيادي

الكتيبة

مانيفستو «الكتيبة»

موقع «**الكتيبة**» هو مجلة رقمية مستقلة، تديرها جمعية «**تكلم من لأجل حرية التعبير والابداع**» وتصدر بثلاث لغات وهي العربية والفرنسية والانجليزية.

«**الكتيبة**» يخاطب الجمهور الواسع في شمال افريقيا وينقل قضاياه الى العالم ويرتكز في مرجعياته التحريرية على الالتزام بالاعلان العالمي لحقوق الانسان، والاعلان العالمي لأخلاقيات المهنة الصحفية الصادر عن الاتحاد الدولي للصحفيين وميثاق الشرف الصحفي للنقابة الوطنية للصحفيين التونسيين.

المبادئ والأهداف

- أرساء صحافة الجودة والعمق.
- أنسنة العمل الصحفي من خلال تعزيز الجانب الانساني والحقوقي .
- توظيف التكنولوجيا الحديثة في انتاج المحتوى وترويجه.
- مقاومة الفساد وترسيخ الشفافية عبر تعزيز مكانة الصحافة الاستقصائية وصحافة البيانات.
- دعم حرية التعبير والاعلام والابداع والحق في النفاذ الى المعلومة.
- الدفاع عن الديمقراطية والدولة المدنية والحريات العامة والفردية والمساواة بين الجنسين والعدالة في كل مستوياتها.

Alqatiba`s Manifesto

«**Alqatiba**» is an independant digital web-magazine, managed by the Association «**Taqallam for Freedom of Speech and Creativity**». It is issued in three languages: Ar, Fr and EN.

This media project addresses the large public in North Africa and conveys its issues to the world, and it is based, in its editorial references, on commitment to the Universal Declaration od Ethics for the Journalism Profession, issued bye IFJ, and the Charter of Journalistic Ethics of the SNJT.

Our principles and objectives

- Establishing quality and in depth journalism.
- Humanizing journalistic work.
- Defending democracy, Civil State, Public ans individual freedoms, gender equality and justice in all levels.
- Fighting corruption and enhancing transparency by strenghthening investigative journalism.
- Supporting freedom of expression, information, creativity and the right to access to information.

المحتوى

عدد خاص - فيفري 2022

التقديم : تحرير يسرى بلالي — 6

ملامح مدهشة من صراع الأجيال الثلاثة في الشعر العربي الحديث — 14

انطباعات حول اليسار السوداني ومبدعيه — 30

انطباعات أولى حول تجربة اليمن الديمقراطي — 44

محطات تأملية حول تجربتي الشعرية والحياتية السياسية — 70

الصوفية علمتني الإيقاع — 96

الحاجة أم الاختراع — 118

في جامعة الصداقة — 144

حقائق تاريخية لا يجوز نسيانها — 170

تسارع خطوات التدمير — 198

مسار التدمير — 218

بوتين منقذا؟ — 236

كي لا تغادر معي

«كي لا تغادر معي» هي مذكّرات وتجارب اختارها لكم الشاعر بعناية ليشاركها معكم حتى لا تغادر معه وتقبع في طي النسيان، هي ذاكرة رحلت بنا من أزقّة سوريا العتيقة إلى الاتحاد السوفياتي، وتوقّفت عند تجربة اليمن والسودان، وواكبت شخصيّات أثّرت في الأدب العربي والعالمي.

«كي لا تغادر معي» تجربة شعرية نقلتنا قصائدها المتناثرة بين الفصول من الصورة الشعرية بكل ما تحمله من استعارة ومجاز إلى معاني الثورة بطريقة حماسية تميّز بها الشاعر وكانت حاضرة في كلّ قصائده، مدافعة عن الجياع، وناصفة للمقاومة العربية.

هو «أيمن أبو الشعر» الذي كان قد عرّفني به يوما ما صديق لي بالجامعة عندما تساءلت عن صاحب قصيدة «حب في طريق المجرة» التي كان قد افتتح بها اجتماعا طلابيا في ذكرى 5 فيفري المجيدة، تساءلت أيضا إن كان اسمه مستعارا ام حقيقيا، فهو الشاعر الملقّب بالشعر، فقال لي أنّه حقيقي وأنّه نشأ في حي شعبي من أحياء سوريا القديمة.

النشأة: بين الخرافات والثقافة الصوفية

ولد الشاعر أيمن أبو الشعر في 12 سبتمبر/ أيلول من سنة 1946، على سفح جبل قاسيون في مدينة دمشق، تلك المدينة التي أنجبت خيرة أدباء وفنّاني العصر الحديث على غرار نزار قباني، محمد الماغوط، أدونيس، غادة السمان، كوليت خوري، وصادق جلال العظم.

نشأ شاعرنا في بيت طيني لموظّف في القضاء يحمل على عاتقه عشرة أفراد محاولا الهروب قدر الإمكان من الفقر والخصاصة، وارتبطت طفولته ارتباطا وثيقا بالأجواء الشعبية الدمشقية المتكوّنة من الحكايات الخرافية والفنّ الصوفي مما جعله يضفي بعض تلك البصمات الجمالية على نتاجاته الإبداعية مثل حضور مفهوم المسخ الذي نجده في قصيدة حلم بالزنزانة السابعة أو قصّة غالب الذي أصبح كلبا مستندا إلى كلّ تلك الخرافات الشعبية التي تعتمد على حكايات الجنّ والعالم الآخر.

”

الليلُ عجوزٌ هنديٌ يرمقني من خلف القضبان

وعناكبُ تنسج أشراكاً كالشرفة بزوايا الجدران

باب الزنزانة تاريخ حفرته أصابع مخضوبة

والأرض جليد مسعور والسقف نزيز ورطوبة

الوقت بليد كالساعات تمر ثوان

وأنا أتكور كالمطعون وأقلب صفحات الأزمان

حيناً ابتسم لجرذ مرَّ

وحيناً تبتسم الفئران

أغفو وأقاوم أجفاني

فصراخ رفيقي منطفئ ما عاد ينزّ بآذاني

أنتفض وأدرك أن السوط بكف الجلاد

يبحث عن طعم ثان
أعرك عينيّ ولا جدوى
تتشابك أهدابي تطوى
وأشد الجفن ولا أقوى
سبع ليال والجفنان بوجهي شباكان
مفتوحان على الأحزان

في سن الخامسة عشر سافر الشاعر إلى منطقة رويسات صوفر بلبنان وعمل هناك في البناء لمساعدة أسرته، لكن هذه الرحلة كانت بالنسبة له بمثابة «مدرسة طبقية» كما يقول، حيث مرّ بالشتاء القاسي والجوع والبطالة، ممّا جعله يعود إلى دمشق ليتابع دراسته الثانوية.

انخرط أيمن أبو الشعر منذ صغره في العمل النضالي عبر اتحاد الشباب الديمقراطي الرديف للحزب الشيوعي السوري، وبدأت أولى مساهماته بإلقاء قصائده في بعض النشاطات والمناسبات، ثم بات يطوف على القرى والبلدات والأحياء الشعبية حاملا عوده، متسلّحا بأشعاره التي كان يلقي بعضها ويغني البعض الآخر، وبدأ يكتب الأناشيد الثورية والأوبيرهات المطولة ويلحنها ويقدمها مع جوقة مرافقة وعدة عازفين ومطربين بينهم العازف مروان غريبة والمطرب فهد يغن.

كان يقدّم أوبريت «أوديب ثائرا» التي تعتمد على إسقاط فكرة مسرحية «أوديب» لسوفوكليس على قضية الشعب الفلسطيني، كما تابع الحوارات الشعرية للنشاطات النضالية والتي كانت بسيطة ذات طابع مباشري تحريضي، صدر بعض منها في أول مجموعتين «خواطر من الشرق والمجد للصمود» الذي صدر باسم مستعار وهو «مايا الدمشقي» تيمنا بشاعر الثورة البلشفية «مایاکوفسکي».

محمود درويش وأيمن أبو الشعر

من شاعر إلى محرّض على الثورات

أسّس أيمن أبو الشعر فرقة «سبارتاكوس» في حلب، وكانت هذه الفرقة تؤدي معه الأناشيد والقصائد الملحنة، كما أنّه كان يقوم بعرض مسرحيات التي يخرجها بنفسه، ويقدمها في بيوت شعبية ذوات ساحة ومنصة تشبه خشبة المسرح.

لم يكن يكتفي بالبيوت فحسب، بل كان يصرّ على خلق مسرح موازي، وذلك بابتكار الديكور من أبسط اللوازم مثل استخدام علب السمن الفارغة للإضاءة ليكتمل مسرح الشعب وليؤثّث منه برنامجا تثقيفيا موسعا من تلك اللقاءات الشعبية يقوم فيه بتقديم مواضيع فكرية، أو تفكيك مفاهيم سياسية، أو التعريف بشخصية نضالية عالمية.

وعند إغلاقه للخامسة والعشرين من عمره، شارك في مهرجان الشعر العربي في دمشق ولفت نظر كبار الشعراء العرب وتعرّف على العديد منهم على غرار الجواهري وبدوي الجبل ونزار قباني ومعين بسيسو، واعتبر أنّ هذه المشاركة كانت بمثابة انتقال نوعي لمسار تجربته الابداعية، حيث اغتنت هذه التجربة تجربته بحوارات معهم.

توسّع الحضور الجماهيري شيئا فشيئا في أمسيات أيمن أبو الشعر وأصبح رمزا من رموز الشعر الحديث وسطع نجمه وعرف بتوجهاته التقدّمية، وخلال أمسية حاشدة في مدرج جامعة دمشق الكبير في شتاء 1975، قامت بعض القوى المتطرّفة بمحاولة اغتياله حيث زاره الشاعر محمود درويش لتكون هذه الزيارة بداية لصداقة بينهما تلتها لقاءات في دمشق وموسكو.

بعد إتمامه لخدمة العلم كضابط في قوات الدفاع الجوي إبان حرب تشرين/ أكتوبر التي اندلعت في هضبة الجولان بين سوريا وإسرائيل في 6 أكتوبر/تشرين 1973، عمل أيمن أبو الشعر كمدرس للغة العربية في ثانويات حلب، وتابع فيها نشاطاته النضالية الإبداعية، وحوّل بيته إلى مركو لتلك النشاطات بما في ذلك إنشاء «مسرح الغرفة».

من حلب إلى الاتحاد السوفياتي

كان للاتحاد السوفياتي أثرا على تجربة أيمن أبو الشعر وعلى حياته المهنية حيث درس وأعدّ بداية أطروحة الدكتوراه في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية العليا، وسرعان ما تعرّف إلى عدد من الأدباء الروس والسوفييت ورموز كبيرة في الأدب الروسي على غرار جينكيز أيتماتوف ورسول حمزاتوف وريما كازاكوفا وغيرهم، وبات يشارك في العديد من النشاطات والأمسيات والندوات في موسكو ومختلف الجمهوريات السوفييتية، كما أنّه نشر العديد من اللقاءات مع الأدباء السوفييت والمقالات عن النشاطات الأدبية والسياسية في الدوريات العربية وبعض الصحف والمجلات السوفييتية، وقام بترجمة مختارات للعديد من الشعراء الروس. وتوّجت مسيرته بإصدار المجلد الأول من «أنطولوجيا الشعر السوفييتي» سنة 1986.

عمل إثر تخرّجه في «دار التقدّم» كمترجم، وصدرت بترجمته رواية «الأخوة والأخوات» لفيدور أبراموف، وكذلك كتاب لمجموعة مؤلفين يحمل عنوان «دراسات في الثقافة العربية في القرون الوسطى»، إلاّ أنّ انهيار الاتحاد السوفييتي جعل هذه المؤسسة تنهار بعد أن كانت واحدة من أضخم دور النشر في العالم.

أنشأ أيمن أبو الشعر بعد ذلك مكتب الإعلام العربي في موسكو، ودرّب العديد من الصحفيين، كما عمل مع منابر إعلامية خليجية في الصحافة المطبوعة والمسموعة والمرئية باسم مستعار وهو «أيمن خيري» قصد الفصل بين الاسم الأدبي والاسم الصحفي، ثم انتقل للعمل مع قناة «روسيا اليوم» بصفته رئيسا للمدققين اللغويين والصياغة الصحفية، وقدم خلال عدّة سنوات برنامج «رشفات» الذي يعنى بعالم الإبداع العربي والروسي بشكل خاصّ بما يشبه الأدب المقارن متلفزا، ويعمل حاليا في قناة «آر تي» «روسيا اليوم» كمترجم للبرامج والأفلام الوثائقية.

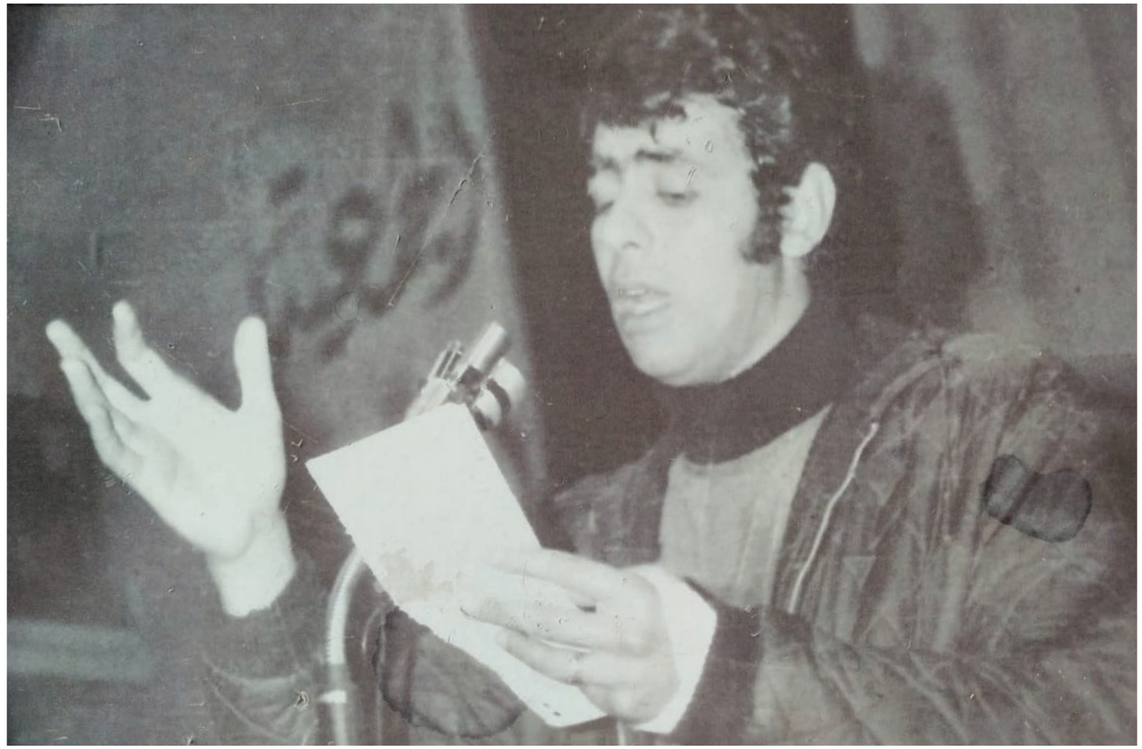

الإصدارات والمؤلّفات

رغم استقراره بموسكو إلاّ أنّ الوطن لا ينسى، إذ اعتاد «أيمن أبو الشعر» أن يسافر إلى سوريا خريف كل سنة، حيث يقيم الأمسيات ويصدر كتبه الجديدة التي كان آخرها مجموعة قصصية بعنوان «اعترافات عاشق» أو «معزوفات العذاب الشهي»، وتقارب مؤلفاته الثلاثين بين الدراسات والترجمة والمسرح والشعر والقصة بما في ذلك باللغة الروسية، ولعل من أكثرها شهرة «الحلم في الزنزانة رقم سبعة» و«الصدى» و«الحب في طريق المجرة»، وقد منح سنة 1985 جائزة «مایاکوفسكي»

بعد صدور مجموعة شعرية له مترجمة إلى اللغة الروسية بعنوان «صوت الحياة»، كما منح في موسكو جائزة «الريشة الذهبية للإبداع» تقديرا لأسلوبه الشعري « في قصيدة «قارع الطبل الزنجي»، صدرت له مؤخرا مجموعته الشعرية المترجمة إلى الروسية «قلب يبحث عن نبضه» واختير سنة 2019 رئيسا للجنة الدولية لمنح جوائز مهرجان الكاتب الروسي العالمي «تشيخوف»، كما تحوّلت بعض قصائده إلى أغان تؤديها المطربة من أصل روسي لانا هابراتسو ويلحنها الفنان وليم حسن.

كرّاسات الكتيبة

ملامح مدهشة من صراع الأجيال الثلاثة في الشعر العربي الحديث

إنّ الشعر العربي الحديث هو ذاك النتاج الشعري الذي يمتد من نهايات القرن التاسع عشر بعد مرحلة «الانحطاط» وخاصّة منها المرحلة العثمانية، إلى بدايات القرن الواحد والعشرين المفتوحة تجاربه في الآونة الأخيرة على احتمالات واسعة عبر مصطلح ما بعد الحداثة وقصيدة النثر، وقد قصدت استخدام كلمة ملامح لأوضح أن ما أكتبه هو انطباعات تقترب نوعا ما من الدراسة البحثية ولا تلج في عمقها، كوني أقصد تحديدا تسجيل بعض الانطباعات الأدبية الشخصية عن أمور وأحداث بالغة الأهمية في هذا المسار حيث جوهر الأمر يدور بين القديم والحديث، وبمعنى أدق بين الحديث والأحدث.

سأبدأ بالتناحر بين العقاد وشوقي، لكني سأركز بالدرجة الرئيسية على تجربة شاعرين كبيرين هما أحمد عبد المعطي حجازي وصلاح عبد الصبور وموقف العقاد منهما، ثم الاتهام الذي قتل الشاعر صلاح عبد الصبور، وآخر مواقف الشاعر حجازي من قصيدة النثر التي قد تبدو شبيهة أو قريبة من مواقف العقاد من الشعر الحديث.

المعارك الأولى: العقاد و شوقي

لم يكن الأمر عابرا أبدا فهو صراع بين جيلين وفكرين وموقفين يمثلان طبقتين استنادا حتى إلى انتماءات سياسية واجتماعية، وما يمثلها في التذوق الجمالي المتشظي آنذاك، والذي وصل حد التناحر بين إحياء التراث كحركة جديدة ولكن عبر تقديس الشعر القديم كمثال يحتذى، وهو التيار الذي يمثله شوقي من خلال تخطي عصر الانحطاط، وبالمقابل التجديد النوعي في بنية الشعر واللغة والأغراض والصور في مرحلة شائكة ويمثله العقاد.

ننطلق في البداية من وجود مفارقات نوعية بين شوقي والعقاد من أهمها السن، فشوقي يكبر العقاد بواحد وعشرين عاما فهو من مواليد عام 1868 والعقاد من مواليد 1889 وعندما كان العقاد في مقتبل عمره الإبداعي كان شوقي في أوج شهرته، ثم الانتماء الطبقي حيث أنّ شوقي «بيك» مدلل الملك وشاعره وابن القاهرة، وكانت جدته تعمل وصيفة في القصر عند الخديوي إسماعيل، إذن هو ابن أسرة غنية قريبة جدا من السلطة، وقد سافر ليتابع تعليمه في فرنسا على نفقة الخديوي، وكان مطواعا للبلاط مادحا له ومنافحا عن تصرفاته حتى أنه توجه إرضاء للقصر بهجاء ساخر ضد الزعيم الوطني أحمد عرابي حين عاد من منفاه:

> صغار في الذهاب وفي الإياب أهذا كل شأنك يا عرابي [1]

عباس محمود العقاد

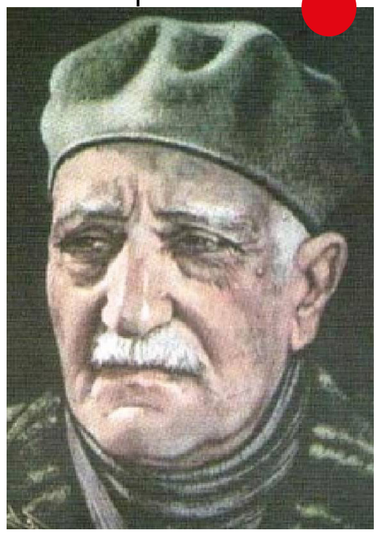

أما العقاد فهو ابن الريف، جاء من أسوان، وهو يحمل الشهادة الابتدائية وحسب، لكنه اعتنى بثقافته بشكل مذهل حتى غدا عضوا في مجمع اللغة العربية وحظي بصفة الموسوعي، وكان من بيئة فقيرة ومرتبطا بالشعب ومتحديا مناهضا للسلطة حتى أنه هدد الملك نفسه في البرلمان عام 1928، فقد تصدى للخديوي فؤاد والمندوب السامي البريطاني اللذين سعيا لتغيير الدستور، وقال كلمته التاريخية:

> «إن الأمة على استعداد لسحق أكبر رأس في البلد يخون الأمة ويعتدي على الدستور» [2]
>
> أحمد شوقي

مما تسبب بسجنه تسعة أشهر. وينقل الكاتب أحمد إبراهيم الشريف عن الصحفي محمد التابعي أنّ العقاد إمعانا في إذلال رموز السلطة مدَّ قدميه في وجه وزير الحقاني»العدل» حين زاره في السجن وبدل أن ينهض من فراشه حيث كان ممددا، وضع ساقا فوق ساق بمواجهة الوزير ولم يرد على أسئلته [3] وقد عرف عن العقاد لسانه السليط وحدته في التعبير عن آرائه، واعتماده حتى على التفاصيل لتفنيد رأي أو إثبات رأي آخر، حتى أنّ الزعيم سعد زغلول وصفه بأنّه «كاتب جبار المنطق» لكنه لم يخل من التشويش في تحديد موقفه الفكري السياسي العام حتى أنّه وضع «الشيوعية والصهيونية والاستعمار واستغلال الدين في سلة واحدة. « [4]

لن أتوسع في ذكر المفارقات التي امتدت من الطابع الفكري السياسي إلى المجال الأدبي، ففي مواجهة مدرسة الإحياء والبعث -ورائدها محمود سامي البارودي وكان شوقي وحافظ إبراهيم من أهم رموزها- أسّس العقاد مع المازني وشكري مدرسة الديوان التي كانت تدعو إلى التجديد في الشعر والخروج عن القوالب القديمة، ووضعت في الواقع أسس الرومانسية في الشعر العربي مما أسفر عن ظهور الشعر المرسل كنوع من التجديد، وهنا جوهر الصراع بين التقليدي والمتجدد نسبيا بين السلطوي والليبرالي، وقام العقاد عمليا بتشريح شوقي الشاعر في كتاب الديوان في الأدب، في مقالة موسعة متعددة الجوانب بعنوان شوقي في الميزان [5] حيث يتناول فيها أسلوب شوقي الذي يعتبره سخيفا ممجوجا بلا موهبة، وخاصة نشيده القومي الذي اختارته اللجنة المختصة، ورثاء شوقي لمصطفى كامل والتي تعتبر من عيون شعره، ورثاء شوقي للأميرة فاطمة، فيسخر سخرية مرّة من أسلوبه في رثائها حتى أنه يصف القصيدة بفكاهة الرثاء، وينال الرافعي مته ما ينال نتيجة دفاعه عن شوقي.

رأى العقاد أن شوقي وحافظ يمثلان الرجعية في الشعر، ولا شك أن آراءه هذه لا تخلو من بعض التعسف إذا ما أخذنا المرحلة التاريخية بعين الاعتبار، ما يذكر بموقف طه حسين من المتنبي حيث شن حملة شعواء على المتنبي وشكك بنسبه وصدق عواطفه واعتبره داعيا إلى القرامطة ومشجعا على القتل وسفك الدماء، واتهمه بالتكلف والتصنع في بعض التقييمات، [6] ما يذكّر بما نسب لأبي فراس الحمداني حين انتقد أبيات قصيدة المتنبي في حضرة سيف الدولة «واحر قلباه ممن قلبه شبم» رغم مفارقة الموقف والهدف، وقد فعل العقاد ذلك وأكثر في رفضه لتسمية شوقي أمير الشعراء، وانتقده انتقادا لاذعا وصل حد التجريح والسخرية ليس فقط لاعتماده وحدة البيت لا القصيدة بل في كل مكونات شعره، ووصف قصيدته في رثاء مصطفى كامل بأنها فاسدة المعنى وعبارة عن قوالب مكررة، وهي هراء وزيف وشتات، بل أنه أعاد ترتيب أبياتها ليثبت التفكك، واعتبرها مجرد كومة رمل يمكن تغييرتسلسلها دون أي تأثير:

> المَشرقانِ عليكَ ينتحبانِ قاصيهما في مأتمٍ والداني
> وجدانُك الحيُّ المقيمُ على المدى ولربَّ حيٍّ ميتِ الوجدانِ
> فارفعْ لنفسِكَ بعد موتِك ذكرَها فالذكرُ للإنسانِ عمرٌ ثانِ
> أقسمتُ أنكَ في التراب طهارةٌ ملكٌ يهابُ سؤالَه الملكانِ

على هذا المنوال كان ترتيب العقاد لهذه القصيدة بشكل مغاير تماما للأصل فبعد البيت الأول يأتي الرابع عشر وبعده الواحد والعشرون ثم الرابع والستون[7]، وهكذا نادى العقاد بضرورة تجديد الشعر العربي وحارب شوقي باعتباره مقلدا يعتمد على الموروث بطاعة عمياء كما كانت طاعته للسلطة الملكية.

فماذا حدث بعد أربعين عاما؟ لقد دارت الأيام دورتها وغيرت المواقع وتوجهات الصراع ومن هاجم القديم والتقليد ونادى بالتجديد يستنكر التجديد «الجديد».

شاعران كبيران ومفاجأة كبيرة

في الانتقال إلى المعركة الثانية في النصف الثاني من القرن العشرين على الصعيد المصري، لا بد من التنويه بأن هناك أسماء من الرواد الأوائل من شعراء الحداثة في مصر احتلت مكانة هامة في ذائقة الجيل الثقافي الذي أتى بعدهم وأنا منه، وفي معظم البلدان العربية، ورغم أننا كنا نلتقي أحيانا على صفحات مجلة الآداب اللبنانية إلا أنني كنت أتمنى أن ألتقيهما شخصيا، وأعتبرهما شاعرين كبيرين بل علمين من جيل الرواد قياسا بجيلي الذي

جاء بعدهما، وستبقى نتاجاتهما الشعرية المميزة علامة مضيئة في سفر الشعر العربي في القرن العشرين ولأجيال قادمة.المفارقة أن الصراع بين العقاد وهذين الشاعرين حمل طابعا فكريا ثقافيا كما كان الأمر بين العقاد وشوقي، ولكن في إطار معاكس تماما، ما يشابه في الانعطاف والتحول مئة وثمانين درجة ذاك الانعطاف الذي جرى عند توفيق الحكيم بين عودة الروح وعودة الوعي.

أحمد عبد المعطي حجازي الشاعر النقي

إنّ مفارقة الأجيال بين حجازي والعقاد واضحة تماما، فأحمد عبد المعطي حجازي من مواليد عام 1935 أي أن بينه وبين العقاد ما يزيد عن أربعين سنة ، وقد تألق حجازي في سن مبكرة، وبات من رواد حركة الشعر الحديث تماما كما تألق العقاد مبكرا، أنجز حجازي دراسته في جامعة السوربون وعمل في تحرير الأهرام، وكان رئيسا لتحرير مجلة إبداع، له مؤلفات عديدة من أهمها في مجال الشعر مدينة بلا قلب، ولم يبق غير الاعتراف، ومرثية العمر الجميل، وله كتب نثرية كثيرة من أهمها كتبه عن إبراهيم ناجي وخليل مطران وكتاب حديث الثلاثاء وكتاب الشعر رفيقي، عدا عن مساهمات عديدة في مؤتمرات ومهرجانات الشعر العربي، ناهيك عن الأعمال الكاملة، وقد ترجمت مختارات من أشعاره إلى عدة لغات عالمية، وكتب عنه العديد من الدراسات التخصصية، ويمتاز شعره بالبساطة المحببة عبر السهل الممتنع والصورة المستوحاة من صميم الواقع بصيغ ابتكارية مميزة تخفي جنين تفاؤل خلف غلالة ألم عميق من الواقع المعاش وبالتالي فهو يقف طبقيا إلى جانب المسحوقين ولو بشكل عام، وهو ما يتجلى أحيانا في صورة المدينة التي جاء إليها حاملا صفاء الريف، فإذ به يصطدم «بمدينة بلا قلب» حيث الضياع في زحام المدن الكبرى، أي أنه أقرب في البيئة الاجتماعية والوضع الطبقي إلى العقاد في بداياته الذي كان ابن الريف كذلك، فيقول حجازي:

> حملت كأسَ عمري الصغيرَ فارغاً
> لِمَن يصبُّ فيه قطرتي سرورْ
> طفتُ بِدور
> طُردتُ مرةً وقيل
> لي تفضلْ مرتينْ
> مرَّ الزمانُ كلَّ ليلةٍ سنةً
> لم أغفُ فيها غيرَ ساعةٍ، وغفوةُ
> الغريبِ لا تطولْ
> وفي السهادِ يرحلُ الخيالْ
> يعرفُ الكثير. [8]

أحمد عبد المعطي حجازي

يوغل حجازي في كتاب الحياة الواقعية، ويقرأ مرارتها وهو يدرك أن ما يريده منها يحتاج إلى نضال وليس إلى خيال... والحقيقة أن حجازي شدني بموقفه الجميل الواعي منذ شبابه وضرورة النضال من أجل تحقيق أحلامنا

> زمانُنا بخيل!
> أواه نحنُ لا نريدُ غيرَ أن نظل
> نريدُ ما يقيمُ ساقَنا لنشهدَ الحياةْ
> ونعبرُ البحورَ خلفَ حلمِنا الضئيلْ
> ونعرفُ الغربةَ في الصبا، والخوفَ أن نجوعَ
> في الصباحْ
> لكن زماننا بخيل [9]

يمكن بكل بساطة ملاحظة اعتماد إيقاع جديد، إيقاع موسيقي جميل لا يعتمد وحدة البيت ولا التقليد، ولكن موسيقاه واضحة، ومعانيه واضحة، لذا يمكن أن يشعر المتابع بالدهشة لموقف العقاد، فقد بدأت المعركة باكرا منذ نهاية الخمسينات وبداية الستينات، وقد شنها العقاد بقوة كبيرة مستندا إلى قوته حتى في المراكز الثقافية السلطوية (أي أنه بات مدلل السلطة كما كان شوقي حين هاجمه العقاد). والمفارقة أن العقاد الذي كان مع التجديد في شبابه وشن حملة شعواء على شوقي باعتباره تقليديا، يشن بعد ان غدا كهلا جام غضبه على الشعراء المجددين، فحين كان يوسف السباعي وزيرا للثقافة ضم حجازي وعبد الصبور إلى الوفد المصري لحضور مهرجان الشعر العربي في دمشق، فهدد العقاد بالانسحاب من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب إن اعتلى حجازي وعبد الصبور المنصة في دمشق كان ذلك عام 1961، وكان حجازي وعبد الصبور شاعرين في مقتبل العمر بينما العقاد شخصية شامخة باذخة الشهرة، أي كما كان الوضع بين العقاد وشوقي حين كان شوقي في أوج شهرته والعقاد قد لم يقطع سوى أشواط قليلة في مجال الشهرة، كما أنه في هذه المعركة كان يرأس لجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنون والآداب، ومن هنا فإن حجازي وعبد الصبور كانا رفيقي خندق واحد في مواجهة العقاد حتى أن حجازي هجاه هجاء مرا:

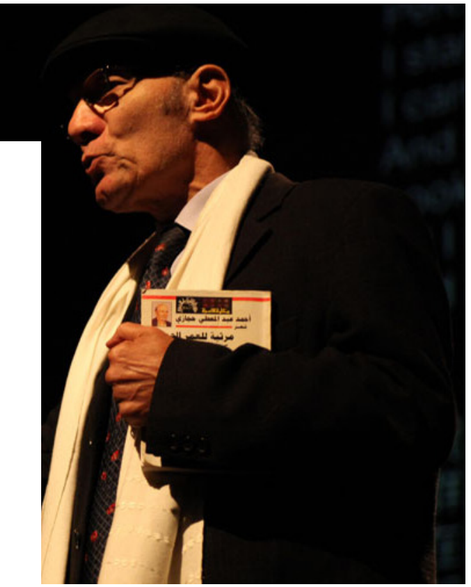

أحمد عبد المعطي
حجازي

من أي بحرِ عصيِّ الريحِ
تطلبُه إنْ كنتَ تبكيَ
عليهِ نحنُ نكتبُهُ

يا منْ يُحدِّثُ في كلِّ الأمورِ
ولا يكادُ يحسنُ امرأً أوَ
يقارِبُه

أقولُ فيكَ هجائي وهو أولُهُ
وأنتَ آخرُ مهجوٍ وأنسبُه

تعيشُ في عصرنا ضيفاً
وتشتُمنا أنّا بإيقاعِنا نشدو
ونُطرِبُهُ

وأننا نمنحُ الأيامَ ما طلبتْ
وفيكَ ضاعَ من التاريخِ
مطلبُهُ

وفيكَ لا أمسُنا زاهٍ ولا غدُنا
وفيكَ أبهتُ ما فينا وأكذبُهُ

مستفعلن فاعلن مستفعلن
فعلن [10]

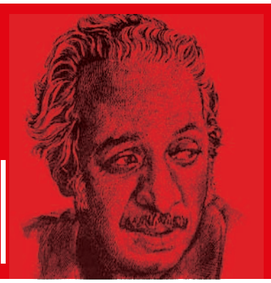

صلاح عبد الصبور شاعر الإحساس المرهف

فرد العقاد في أحد لقاءاته الصحفية بقوله «هم من يعيشون في عصر العقاد»، ولا بد من تسجيل حقيقية أن حجازي أعلن غير مرة أنه ندم ندما حقيقيا على كتابته قصيدة هجاء بحق العقاد [11]، وسيكون مثيرا جدا أن نعلم أن حجازي نفسه سيأخذ موقفا تجاه قصيدة النثر مقارب الموقف العقاد نحو شعره وشعر صلاح عبد الصبور، وإن كان له مسوغاته ولكن بعد خمسين عاما تقريبا من معركته مع العقاد التي جرت أيضا بعد قرابة خمسين عاما من معركة العقاد مع شوقي.

التقى حجازي بعبد الصبور عام 1955 لقاء عابرا تقريبا، وكان عبد الصبور قد سبقه إلى الشهرة ومُنح -حسب حجازي نفسه- مكانا مرموقا في التقدير والعمل بأجر مُجز، وخاصة أواسط الستينات، وتعمقت العلاقة والصداقة حين باتا يعملان معا في الأوساط الثقافية المصرية يساند كل منهما الآخر.

من المفارقات الجميلة ان عبد الحليم حافظ كان أول من عرفني على صلاح عبد الصبور وأنا طفل دون أن أنتبه، فقد كان والدي يطرب لأغنيته «لقاء» وهي قصيدة لصلاح عبد الصبور، وراح الوالد الذي كان يهتم بتطوير ذائقتي الجمالية منذ الطفولة يشرح لي صورها وكلماتها التي كانت صعبة على تلميذ في الابتدائية، فبت أتابعها كلما بثها المذياع الذي كنا نسميه «أبو العين الخضراء» حتى انني حفظت مطلعها ربما كي أرضي والدي آنذاك:

بعدَ عامينِ
التقينا ها هنا

والدُجى يغمرُ
وجهَ المغربِ

وشهِدْنا النورَ
يخبو حولنا
فسبَحنا

في جلالِ الموكب

[12]

كانت ولادة صلاح عبد الصبور عام 1931 ووفاته عام 1981 أي أنه عاش خمسين عاما، ومات وهو في أوج شهرته وعطائه. وقد بلغ شأناعظيما إلى درجة أن الكثيرين رشحوه للقب أمير شعراء العرب، وكانت شخصيته هادئة عموما، وكان قريبا من اليساريين حتى أن البعض ظنه بعثيا بسبب لقائه بميشيل عفلق عام 1957 [13] وتشير معظم الروايات والتعليقات إلى أن السلطات أيام السادات حاولت استمالته كثيرا، ولم يكن مطية لها كما صوره البعض حتى عندما طلب منه يوسف السباعي الذي كان وزيرا للثقافة أن يترأس الهيئة العامة المصرية للكتاب حيث كان ينظر إلى ذلك كعمل مهني ثقافي، ولكن الآخرين كانوا ينظرون إلى ذلك باعتباره رضوخا للسلطة المكروهة المعادية تماما لليسار.

ومما له دلالته حول مدى رهافة إحساس هذا الشاعر ونبله أنه حتى حين خاض معارك أدبية في مواجهة جيل الكبار كطه حسين والعقاد في مقالات كان محورها الدفاع عن الشعر الحديث الذي كان العقاد يرفضه جملة وتفصيلا ويحول نماذجه إلى لجنة النثر كان موضوعيا بعيدا عن الانفعالية، ويذكر عبد الصبور نفسه في حوار إذاعي أن العقاد اعتبر هذا الشعر غير موزون فرد عليه صلاح عبد الصبور بود عبر مقالة «والله العظيم موزون» لكن العقاد رفضه مع ذلك وكتب يقول أن على «سي عبده» – يقصد عبد الصبور- أن يتسلى بتكسير الأطباق والصحون بدل تكسير أوزان الشعر» [14]، وحين تصاعدت المعركة بين حجازي وعبد الصبور من جهة والعقاد من جهة ثانية، ووصلت حد أنه حرمهما من المشاركة بمهرجان دمشق، كانت آخر مقالة تنتقد العقاد لعبد الصبور في الأهرام أواسط فبراير، ولكن موت العقاد بعد أسابيع قليلة دفع عبد الصبور إلى نسيان الخلاف الفني التقني، وإلى إعطاء العقاد حقه من التبجيل والاعتراف بفضله وعلمه الموسوعي معتبرا أن رحلته وصلت إلى غايتها المرصودة، وأن فكره أنار البصائر وكشف الظلمات: «وملأ الدنيا ومشى في نوره الناس... رحلة مجيدة استغرقت عشرات السنين لذلك الفتى الغالي النفس المتطلع إلى المعرفة، أفسح لنفسه بيديه وبيديه وحدهما أمضى حياته محاربا صلبا وهو فارس كلمة وخوّاضُ بحر معرفة وكم جابه من الأخطار» [15] كان رثاء نقيا صادقا فيه اعتراف بالفضل وانحناءة التبجيل ما يليق بفارس شعر حقيقي، وقال في الأهرام لقد شُرفت يوما بخصومة العقاد.

وهناك حادثة أخرى تدل على مدى تحمل عبد الصبور وهدوئه في المواقف السلبية التي تشبه التأنيب من الكبار، ذاك أن صلاح عبد الصبور كان قد اعتبر طه حسين متأثرا بالثقافة الفرنسية وبموضوعة الانتقام بسبب الحب في دعاء الكروان، وتأثره في «الحب الضائع» بأندريه جيد [16] إلا أنه في غضون ذلك أشاد بطه حسين ككاتب مؤرخ له بصمته الأسلوبية، ويذكر لمعي المطيعي في موسوعة نساء ورجال من مصر أن هناك من أوغر صدر طه حسين على صلاح عبد الصبور ناقلا صورة غير دقيقة عما كتب عنه في روز اليوسف في سلسلة ماذا تبقى منهم للتاريخ، حتى أن طه حسين عندما زار مقر الأدباء وقدم صلاح عبد الصبور نفسه له سأله متجاهلا عن قصد هل أنت شامي، بمعنى لأنه كان كبيرا في خصومته مع الكبار، وقال عن طه حسين في مقال له بعنوان كتابين تعلمت منهما « أول الكتابين هو كتاب المنتخب من أدب العرب ... وقد جمعه وشرحه مجموعة من أساتذة الأدب على رأسهم طه حسين العظيم» [18]

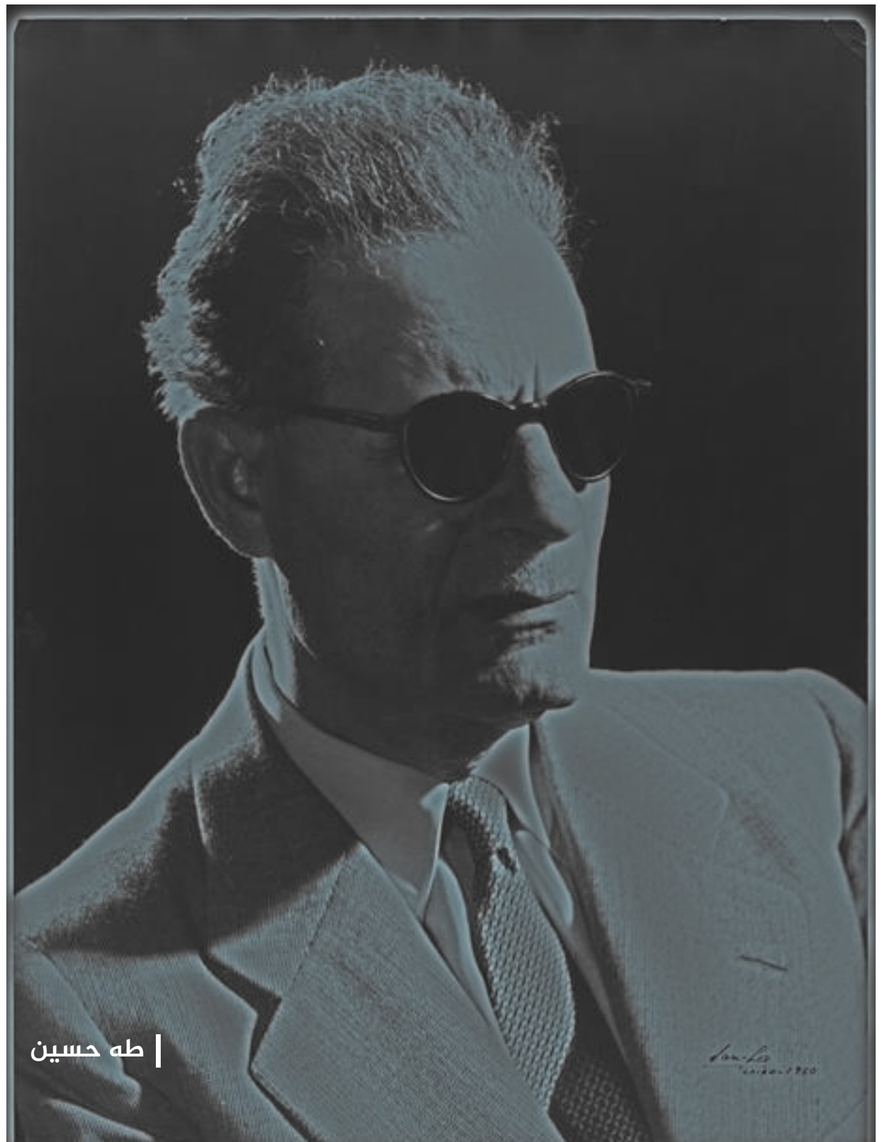
طه حسين

قدم صلاح عبد الصبور للمكتبة العربية قرابة عشرين عملا خمس مجموعات شعرية أولها أقول لكم وآخرها الإبحار في الذاكرة، ولعل من أهمها أحلام الفارس القديم ، وخمس مسرحيات شعرية من أهمها مأساة الحلاج ومسافر ليل حيث ترك بصمات نوعية في مجال المسرح الشعري، وتسعة أعمال نثرية لعل من أهمها حياتي في الشعر، ورحلة الضمير المصري، وحتى نقهر الموت.

رغم بعض الظلال الصوفية وغلالة الحزن التي تبدو في بعض أشعاره ومسرحياته خاصة في مأساة الحلاج إلا أنه عموما كان شاعرا يهتم بمعظم قضايا شعبه بالمعنى الواسع للكلمة، وعبّر بتفاعل حيوي عن نكبة الشعب الفلسطيني حتى كاد أن يتمازج مع أرض فلسطين وأحلامها، لذا يؤكد للأطفال الذين تحرقه عيونهم بأسئلتها عن موعد الغد المنتظر، يؤكد لهم أنه إن ضاع هذا الغد ضاع العمر سدى،ولكنه ظل مؤمنا بيوم الثأر:

”

كانت له أرضٌ وزيتونةْ
وكرمةٌ، وساحةٌ، ودارْ
وعندما أوفت به سفائنُ العمر إلى
شواطئِ السكينةْ
وخطّ قبره على ذرى التلالْ
انطلقتْ كتائبُ التتارْ
تذوده عن أرضهِ الحزينةْ
لكنه خلفَ سياجِ الشوكِ والصبارِ ظلَّ
وَاقفاً
بلا ملالْ
يرفض أن يموتَ قبلَ يومِ ثار
ياحلمَ يومِ الثار [19]

كان موقفه من الاحتلال الإسرائيلي واضح في أكثر من مناسبة، وكان دائما يستبشر بنصر قادم على المحتل الإسرائيلي حتى أنه كتب ممجدا الجندي المصري الذي عبر القناة إلى سيناء ورفع العلم:

> تملينَاكَ حينَ أهلَّ فوقَ الشاشةِ البيضاءِ
> وجهُك يلثمُ العلما
> وترفعُهِ يداك
> لكي يحلّقَ في مدارِ الشمسِ
> حرَّالوجهِ مُقتحِما
> ... تِراكَ وأنتَصنعُ آيةً وتخطُّ تاريخاً
> تراكَ وأنتَ أقربُ
> ما تكونُ
> إلى مدارِ الشمسِ والأفلاكُ
> تراك ذكرتني
> وذكرت أمثالي من الفانين والبسطاء
>
> [20]

صلاح عبد الصبور

تداخل الصراعات الأدبية والسياسية

أحدث ارتداد السادات عن خط عبد الناصر المعادي لإسرائيل المؤيد لحقوق الشعب الفلسطيني هزة عميقة في نفوس المثقفين المصريين الذين عارضوا سياسة السادات بشدة، ورفضوا كامب ديفيد واعتبروها خطوة كارثية تمس جوهر أحلامهم وتاريخ نضالهم عرضهم للاضطهاد والاعتقالات والتعذيب، طال ذلك معظم اليساريين والوطنيين الناصريين حتى اضطر الكثير منهم إلى الرحيل عن مصر، واضطر البعض الصمت والانزواء، وبات ينظر إلى الذين يشغلون مناصب كبيرة في المجال الثقافي على أنهم متعاونون مع نظام السادات رغم أن البعض يطرح سؤالا يبدو موضوعيا: هل من المعقول أن يستقيل جميع المثقفين من العمل في أجهزة الدولة إن كان فكيف لشاعر كهذا أن يكون مرحبا بالتطبيع «ويبيع»؟ هذا ما لم يحتمله عبد الصبور أن يتهم بالخيانة، وقد لاحظنا مدى تحمله للانتقاد وحتى التأنيب في الصراعات الأدبية.

الرئيس خائنا؟ وكان ذلك في صلب الأزمة التي اشتعلت في الواقع حين قبل صلاح عبد الصبور العمل كرئيس لتحرير مجلة الكاتب بعد طرد كادرها الرئيسي اليساري [21].

كانت المعركة في أواسط السبعينات معركة سياسية أدبية صحافية فكرية، وكانت من أشرس المعارك التي شهدتها مصر في القرن العشرين، ويمكن اعتبار أجوائها توطئة مباشرة لما حدث فيما بعد لصلاح عبد الصبور ووفاته.

فقد بدأ المعركة عمليا الروائي يوسف السباعي الذي كان وزيرا للثقافة في إطار حملته لتصفية المثقفين اليساريين وإبعادهم عن المنابر الصحفية الثقافية، ترافق ذلك مع صراع وصل أحيانا حدا يقارب الشتائم بين اليساريين والناصريين من جهة وأنصار السباعي من جهة ثانية، والذي اختار بذكاء صلاح عبد الصبور الشخصية الإبداعية المشهورة والقريبة عموما من اليسار لرئاسة تحرير الكاتب، وذلك في ظروف بالغة الحساسية وصلت حد إصدار بيان من المثقفين المصريين ضد عبد الصبور الذي تسلم منصب رئيس تحرير مجلة الكاتب، وتحديدا بعد الإطاحة برئيس تحريرها السابق أحمد عباس صالح الذي كان معروفا كمثقف يساري [22]، ربما ظن السباعي أن شخصية كصلاح عبد الصبور ستلطّف الأجواء باعتباره إنسانا وطنيا تقدميا على وجه العموم.

لكن المعركة اشتعلت بقوة أكبر، واعتبر الكتّاب والمثقفون اليساريون قبول صلاح عبد الصبور بهذا المنصب موافقة على سياسة السباعي المعادي لليسار وتواطؤا مع نظام

السادات ، وتصاعدت حملة قوية ضد عبد الصبور، وجرت مقاطعة جدية من المثقفين التقدميين للمجلة ناهيك عن حملات التشهير المتبادلة بين الجناحين اليميني واليساري، وبشكل خاص ضد صلاح عبد الصبور الذي وصفته بعض الرسائل المفتوحة إليه بتبني الانتهازية العارية من الشرف، وأنه يتباكى على حرية الرأي وبيده الخنجر المسموم الذي يتوغل في قلبها [23].

وبهذا المعنى أُشرك صلاح عبد الصبور في هذه الأجواء رغما عنه، وظلت رواسب هذا الإشراك كالجمر تحت الرماد لتشتعل مجددا بعد سنوات قليلة، وتؤدي إلى مقتله غما وقهرا، لتكون الخطوات الكارثية التي اتخذها السادات سياسيا، وتبناها السباعي ثقافيا وفكريا كممارسة هي النصال التي قتلت صلاح عبد الصبور والكثيرين من الأدباء والمثقفين نفسيا، والذين رحل عدد كبير منهم أو انزوى.

كان يوسف السباعي قبل ذلك بسنوات مختلفا تماما بالنسبة لي فقد كنت من المعجبين به وبرواياته التي تحولت إلى أفلام سينمائية، وخاصة «رد قلبي» و«إني راحلة»، ثم إنه حاز على جائزة لينين للسلام عام 1970، وما أرهقني هو تذكر أنني دعوته إبان مؤتمر الأدباء العرب ومهرجان الشعر العربي في دمشق إلى زيارتنا في البيت، والمفاجئ في الأمر أنه لبى الدعوة بتواضع، وكانت بحضور الناقدين الكبيرين الراحل محي الدين صبحي وخلدون الشمعة الذي يعيش في لندن حاليا أمد الله في عمره، ولم يكن يخطر ببالي إطلاقا أنه كان ضد اليسار إلى هذه الدرجة أو أنه سيغدو كذلك.

عبارة قتلت الشاعر

لم أكن حاضرا في تلك الأجواء لذا لا أستطيع أن أقدم تقييمي الشخصي، ولكني تابعت باهتمام معظم ما كتب عن هذه الحادثة التي أودت بحياة شاعر كبير أحبه. فحين دعا السادات إسرائيل للمشاركة في معرض القاهرة للكتاب الدولي إمعانا في سياسة التطبيع وضع عمليا الشاعر صلاح عبد الصبور في وضع بالغ الحراجة، إذ كان آنذاك رئيسا للهيئة المصرية العامة للكتاب، وتؤكد بعض التعليقات أنه كان معارضا لهذه المشاركة، بل إنه فتح مكتبه للمثقفين المتظاهرين في المعرض ضد مشاركة إسرائيل حتى أن الشرطة اقتحمت مكتبه وفتشته.

لكن الضجة الإعلامية التي أحدثتها هذه الهزة العنيفة دفعت لجان المقاطعة العربية لوضع اسمه ضمن لائحة المغضوب عليهم ظنا منها بأن صلاح وافق على هذه المشاركة.

متى كان السادات يهمه إن وافق أو لم يوافق وهو صاحب العبارة الشهيرة بالنسبة لخصومه «الذي سيقترب سأفرمه» أو تهديده بأن للديمقراطية أنيابا؟ لم يكن يهم السادات إن وافق صلاح عبد الصبور أو لم يوافق بعد أن كرس حملة أمنية واسعة، وأرسل زوجته جيهان لافتتاح المعرض. وقد شكّل إدراج اسم عبد الصبور في قائمة المقاطَعين صدمة نفسية حقيقية له، واعتبر ذلك ظلما غير مبرر رغم أن معظم الكتاب والمثقفين عموما انتظروا منه أن يسجل موقفا، وأن يستقيل، واعتبروا صمته موافقة على المذلة.

هل كان مقدرا له أن يعيش حالة مقاربة للعشاء الأخير وبدون يهوذا؟ ذاك أن أحمد عبد المعطي حجازي كان صديقا حميما للشاعر صلاح عبد الصبور، وبالتالي كان صلاح مع زوجته وابنتيه من أوائل المدعوين لحفل في بيت أحمد عبد المعطي حجازي إلى جانب عدد من الشعراء والنقاد والفنانين بمن فيهم أمل دنقل والناقد جابر عصفور والرسام بهجت عثمان بمناسبة عيد ميلاد ابنة أحمد عبد المعطي حجازي، وبعد حين والسهرة ناشطة كأية سهرة في مناسبة سعيدة حدث شيء غيّر الأجواء حسب وصف حجازي نفسه حيث وجه الرسام بهجت عثمان انتقادا لاذعا وبلهجة قاسية إلى صلاح عبد الصبور وقال له: «أنت بعت يا صلاح»، وحسب شهادة عبلة الرويني زوجة الشاعر امل دنقل التي كانت حاضرة أن لهجة بهجت عثمان كانت قاسية جدا، وأتبعها بعبارة «بعت بمليم واحد يا صلاح».

انتفض صلاح عبد الصبور متسائلا عن سبب اتهامه بالخيانة وما الذي باعه؟ ويرى أمل دنقل أن هذه العبارة كانت كالقشة التي قصمت ظهر البعير وينوه بأن عمله في منصب كبير إبان السادات كان يحرقه من الداخل، «كان ذلك جحيما لشاعر بحجم صلاح عبد الصبور، وأن وفاته بين أصدقائه أفضل ألف مرة من وفاته في مكتب مسؤول كبير» [24]. والحقيقة أن أحمد عبد المعطي حجازي أنّب بهجت عثمان وطلب هو وأمل دنقل منه أن يغادر المنزل فغادر، بعد ذلك أحس صلاح بالضيق الشديد وطلب أن يخرج إلى الهواء الطلق، لكنه راح يتعرق وازداد تعبه بوضوح فنقلوه إلى المشفى القريب، غير أنه توفي على يد صديقه أحمد حجازي بعد دقائق في المشفى.

عذاب الذات أم الافتراء؟

هذا الإحساس بالغبن والافتراء على خلفية الشعور الداخلي بأنه كان عمليا في غير موقعه شكّل أولى النصال التي لم تخطئ قلب الشاعر الحساس الذي اعتبر المناوشات وتبادل الاتهامات بالخروج على القواعد الفنية أمرا عابرا، وربما كان مهما كما كان مع العقاد، ولكن أن يتهم بالخيانة فهذا ما لا يحتمل، زد على ذلك إحساسه الداخلي بأن وجوده الدائم في مناصب أدبية صحفية عالية وبرعاية مباشرة من أديب وزير كان صديقه، وعرف عنه طواعيته التامة للسادات قد يكون مبررا لتلك الانتقادات القاسية، إحساس هائل بالذنب، وربما جعله كل ذلك في غم دائم، بالإضافة إلى ذكريات الانتقاد العنيف الذي وجه له عندما رضي بمنصب رئيس تحرير مجلة الكاتب بديلا عن رئيس تحريرها اليساري.

ويبدو من كلام أمل دنقل أنه كان يتمنى أن يستقيل من منصبه لكي يكون موقفه جليا، وربما كان يتمنى أن يرمي مفاتيح مكتبه كرئيس للهيئة العامة المصرية للكتاب وينغمس مع المتظاهرين قرب الجناح الإسرائيلي، بل وأن يقود المظاهرة بنفسه، إنه لم يفعل ذلك ولكنه كان قلبا وقالبا معهم، وقد حاول بشهادة حجازي أن يضع جميع العراقيل في وجه اشتراك إسرائيل في المعرض لكنه لم يستطع، فهو ليس رئيس الجمهورية ولا حتى وزيرا للثقافة، ولكنه مع ذلك فتح مكتبه للمثقفين المتظاهرين الذين رفعوا العلم الفلسطيني ووزعوا المنشورات، وقد أدى ذلك إلى تفتيش البوليس لحقيبته واقتحام مكتبه.

ماذا حدث؟ حدث أن هذه المعطيات لم تصل إلى لجان المقاطعة بل وصلت الانطباعات الأولى غير الدقيقة: بما أنه رئيس الهيئة العامة للكتاب، وهي المسؤولة عن المعرض إذن هو يرحب بالتطبيع! هكذا وضع اسمه ضمن قائمة الذين يجب أن يُقاطَعوا، تراكَم كلُّ ذلك في نفسية الشاعر وأحس بظلم قاهر، وجاءت عبارة الاتهام من الفنان بهجت عثمان لتقضي عليه.

إنها قسوة الناس وكلامهم الجارح كما وصفهم الشاعر نفسه قبل أن يقتلوه بالاتهام القاسي:

> الناسُ في بلادي
> جارحونَ كالصقورْ
> غناؤهم كرجفةِ الشتاءِ في
> ذؤابةِ المطرْ
> ...ويقتلونَ يسرقونَ
> يشربونَ يجأشونْ
> لكنهم بَشَرْ
> وطيبونَ حين يملكونْ
> قبضتي نقودْ
> ويؤمنونَ بالقَدرْ[25]

شاعر له تاريخ مجيد في عالم الشعر والمواقف الوطنية يوضع في قائمة الخونة، عبارة جارحة توجه إلى شاعر مرهف الحس، والغريب حسب هذه الشهادات أن زوجة حجازي كانت مترددة في دعوة أمل دنقل الذي عرف عنه حدته وقسوته في المناقشات، ولكنه كان ودودا ولطيفا جدا مع الجميع بمن فيهم صلاح، ويسجل له أنه طلب مع أحمد عبد المعطي حجازي من الفنان بهجت عثمان أن يغادر السهرة ويخرج من البيت، ومع ذلك يبدو أن من بين البواعث هو العذاب الداخلي نتيجة إحساسه بأنه لم يكن في موقعه حيث كان يجب أن يكون.

أهة الفقد بعد عشرين عاما

تم استغلال وفاة صلاح عبد الصبور للهجوم على اليسار عموما، ولم ينج حتى الشاعر حجازي من هذا الهجوم، لكن الحقيقة أن حجازي وعبد الصبور كانا شفتين لفم واحد، كانا صديقين حميمين ومكملين لبعضهما بعضا، وحين جاءتني دعوة للاشتراك بالنشاطات الشعرية في معرض الكتاب الدولي في القاهرة عام 2001 على ما أذكر حرصت على اللقاء بشاعر كبير أحبه هو أحمد عبد المعطي حجازي، وحزنت لأنني لم ولن أتمكن من اللقاء بالبطين الثاني لقلب الشعر المصري المعاصر صلاح عبد الصبور، التقيت بحجازي في أروقة المعرض وقلت له سأمر لأشرب فنجان قهوة عنده في الغد، فوضع اسمي عند المدخل للإجراءات الأمنية المعتادة، كان حجازي ودودا مرحا لطيفا كما توقعته ومثقفا يتجاوب مع أي نقاش حيوي مفيد ولكن بحذر وألمعية، وأول ما لفت نظري هو غرفته المشتركة مع آخرين بالمكتب المتواضع لشاعر كبير مبدع بحجم حجازي، إلا أنني لم أشأ أن أكدره بهذا الأمر، ولكني لم أستطع في الوقت نفسه ألا أثير الشجن غصبا عني فقلت له: «كان بودي أن القاكما اليوم معا» استفسرت نظراته وقال بتساؤل: «معا؟» قلت «أقصد الشاعر الجميل صلاح عبد الصبور لكنه لم ينتظرني ورحل»، تنهد حجازي بصدق وقال «أنا أكبر الخاسرين له، كما خسرته الثقافة المصرية، لقد كان شاعرا مبدعا حقا، شاعرا كبيرا بكل معنى الكلمة آه كم أفتقده»، مثل هذه الحرقة بعد مرور عشرين عاما على رحيله تؤكد صدق مشاعر حجازي حتما.

اتهم حجازي العقاد في المعركة الثانية بأنه لم يكن مخلصا للتجديد الذي دعا إليه، واعتبر أنه هاجم شوقي وحافظ بهدف النيل منهما ليس إلا، يثير الوضع غير الطبيعي نفسه تساؤلا بسيكولوجيا، فالعقاد الذي رفض منح شوقي لقب أمير الشعراء تقبل منحه هذا اللقب عام 1934 بعد وفاة شاعر البلاط «شوقي» بدعم من طه حسين الذي أراد أن يكافئه على الأرجح على مواقفه الإيجابية منه إبان الهجوم الكبير الذي تعرض له إثر إصداره كتاب «في الشعر الجاهلي» حيث دافع عنه العقاد من منطلق حرية الرأي.

قد يبدو مثيرا للانتباه أن حجازي نفسه يأخذ مكان العقاد في رئاسة لجنة الشعر للمجلس الأعلى للثقافة والفنون، ومن ثم يتخذ موقفا شبيها إلى حد ما بموقف العقاد نحوه، حيث هاجم حجازي قصيدة النثر بعد خمسين عاما تقريبا من معركته مع العقاد التي جرت أيضا بعد قرابة خمسين عاما من معركة العقاد مع شوقي، ما هذا؟

يقول حجازي واعتمادا على ما انطلق منه العقاد « الوزن»، أن قصيدة النثر بعد مرور قرابة قرن من الزمن لم تقنعنا بأنها قصيدة، وهو يؤكد أن الموسيقا شرط أساسي للشعر ليس في اللغة العربية وحدها، بل في كل اللغات كما أن السرد شرط من شروط القصة، لكن الوزن الذي يقصده العقاد هو بحور الشعر رغم أنه ساهم في تكريس الشعر المرسل متنوع القافية، فيما يقصد حجازي بالوزن الحفاظ على التفعيلة، حتى أنه يرى أن فكرة الثابت والمتحول

عند أدونيس قد جاءت عمليا من المستعرب الفرنسي جاك بيرك في ميزان الأصالة والمعاصرة، بمعنى أن الارتباط الدائم بالينابيع الأولى سيؤدي إلى الركود، ولكن التدفق بعيدا عن هذه الينابيع سيؤدي إلى الجفاف والضياع، من هنا فإن الثابت عند جاك بيرك هو القانون العام أو النظام الذي يقوم عليه البناء، أما المتحول فهو ذاك الناتج الذي يتعلق بالوقت والظرف وهو معرض للتحول والتغير دائما. [26]

في الختام أقول -وهذا بالمناسبة ليس تحيزا لحجازي الذي أحبه- أنني أتفهمه جيدا إذ يمكن الحفاظ على الموسيقى عبر التفعيلة وتطوير بنية القصيدة ولغتها وصورها وحجم الشطر وتوزيع كلمات القصيدة بما يخدم السياق، ولكني في غضون ذلك أرى أن أي نص إبداعي جميل حتى لو كان نثرا يملك الحق في طرح نفسه، وحتى المزاحمة، والزمن سيحدد القيمة في النتيجة، وهو ما أشار إليه حجازي نفسه بأن أحدا لا يحفظ أية قصيدة من هذا النوع « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الماس فيمكث في الأرض».[27]

المصادر:

1- من المفارقات المثيرة أن أحمد عرابي وهو زعيم وطني وليس شاعرا قد رد على أحمد شوقي بقوله:

كبارٌ في الذهابِ وفي الإيابِبرغمِ أنفِ أولادِ الكلابِ

2- بوابة الشروق عباس وصدقي ومعركة الدستور محمد سعد عبد الحفيظ العقاد وصدقي ومعركة الدستور. ومما جاء فيها على لسان رئيس تحرير جريدة الجهاد محمد توفيق دياب الذي نقل معركة: «كان بطلها هذه المرة هو الكاتب والأديب والنائب عباس محمود العقاد، الذى تمرد على قرار تعطيل حكومة صدقى للحياة النيابية، وقال تحت قبة البرلمان: «فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلاد فى سبيل صيانة الدستور وحمايته»، فدوى فى القاعة تصفيق حاد من الحضور».

3- أصوات أون لاين منوعات العقاد خلف أسوار «قره ميدان» دفاعا عن الدستور

4- موسوعة نساء ورجال من مصر دار الشروق طبعة أولى صفحة 394

5- (انظر للتوسع الجزء الأول من الطبعة الجديدة من كتاب الديوان في الأدب والنقد مؤسسة الهنداوي عام 2018)

6- طه حسين مع المتنبي دار الكاتب اللبناني بيروت 1973 المجلد السادس الطبعة الأولى للتوسع الصفحات 36-37-38

7- الديوان في الأدب والنقد – عباس محمود العقاد-مؤسسة هنداوي-النسخة الإلكترونية صفحة -129حتى 134

8- ديوان أحمد عبد المعطي حجازي دار العودة بيروت الطبعة الثالثة 1982 صفحة 225

9- المرجع السابق 225

10- المرجع السابق صفحة 438

11- الأهرام قضايا وآراء شهادة حجازي لشعر العقاد رجائي عطية

12- (قصيدة لقاء شعر عبد الصبور غناء عبد الحليم حافظ ألحان كمال الطويل الذي لحن عمليا 8 أبيات من 14)

13- موسوعة نساء ورجال في مصر لمعي المطيعي الطبعة الأولى صفحة 377

14- (من حوار إذاعي أجرته أمينة صبري بثته إذاعة صوت العرب من القاهرة – المادة غير محددة التاريخ لكنها على الأرجح أواسط الستينات بعد وفاة العقاد)

15- بوابة الشروق الرئيسية رأي رجائي عطية صلاح عبد الصبور في ذكراه

16- أندريه جيد كاتب روائي وناقد فرنسي حصل على 1951-1869 حصل على جائزة نوبل لآداب عام 1947

17- موسوعة نساء ورجال من مصر صفحة 379 380- دار الشروق طبعة أولى 2003 لمعي المطيعي

18- في مجلة الدوحة العدد11 1980

19- من قصيدته ثلاث صور من غزة مجموعة أقول لكم ديوان صلاح عبد الصبور صفحة 138 دار العودة 1972

20- من قصيدة «إلى أول جندي رفع العلم في سيناء عام 1973 (وقد تفاجأت أثناء بحثي عن مصدر لأسجل رقم الصفحة أنني لم أعي\ثر عبر الانترنيت على هذه القصيدة ضمن المجموعات الموجودة على الانترنيت ذاك أنني كنت قد أهديت مكتبتي بكاملها وفيها عشرات الأعمال الكاملة للشعراء العرب بمكن فيهم عبد الصبور...فإن صح تقدير أنها حذفت من مجموعاته الشعرية فهذا يترك إشارة استفهام كبيرة إذ لا يمكن حذفها دون موافقته! ومع ذلك هذا مجرد افتراض يحتاج إلى تدقيق)

21- البيان استراحة البيان، سبعينيات صلاح عبد الصبور، يكتبها اليوم: د. جابر عصفور

22- أحمد عباس صالح رئيس تحرير مجلة الكاتب من الرموز الثقافية اليسارية الكبيرة 2006-1930 من أشهر كتبه «اليمين واليسار في الإسلام» وقد أحدث ضجة حقيقية في السبعينيات من القرن الفائت باعتباره أول كتاب يتناول بالبحث الإسلام السياسي

23- موقع الكتابة الرئيسية زمن المعارك والسقطات الكبرى حسن عبد الموجود

24- الهلال اليوم الرئيسية –فن وثقافة-صلاح عبد الصبور ربيب الألم 22 أكتوبر 2020

25- ديوان صلاح عبد الصبور -الناس في بلادي دار العودة بيروت 1972 صفحة 29–

26- قصيدة النثر أو القصيدة الخرساء كتاب لأحمد عبد المعطي حجازي صادر ضمن سلسلة مطبوعات مجلة دبي الثقافية نوفمبر 2008

27- سورة الرعد الآية 17

انطباعات حول اليسار السوداني ومبدعيه

أعود اليوم إلى قصائد الشعراء الذين كانوا قدوة لي وأنا في بداية طريقي الشعري وأقرأها من جديد، أشعر أن معظمها مباشري بل وخطابي، وقريب من نبرة قصائدي آنذاك والتي تجاوزتها بعد حين كما تجاوز أولئك الشعراء تلك النبرة أيضا، ولهذا لا بد من أن نأخذ المرحلة بعين الاعتبار إذ كانت حركة التجديد وليدة آنذاك والنبرة الخطابية وحتى التعليمية سائدة، ومن هنا يمكن أن نفهم تطور الأسلوب والصور لدى هؤلاء الشعراء أنفسهم خلال بضعة عشرات من السنين.

وأنوه مجددا بأنني أسجل انطباعات مرت عليها قرابة خمسين عاما، ومن البديهي أنني قد أنسى بعض الحوارات والعبارات أو أتذكر مضمونها فقط، إذن هذه الانطباعات ليست حرفية لكنها أكيدة وحقيقية من حيث المضمون والأحداث بغض النظر عن التواريخ التي قد لا تكون دقيقة تماما، فعلى سبيل المثال أذكر جيدا أنني دعوت عبد الوهاب البياتي إلى نفس المطعم الشعبي الذي دعوت إليه محمد الفيتوري في دمشق القديمة، لكني لا أذكر التاريخ تماما ولم أعد أذكر حتى مع من التقيت أولا، كذلك باتت أزمان لقاءاتي مع جيلي عبد الرحمن غائمة نسبيا أيهما أولا لقاء موسكو أم عدن؟ لكن المحتوى واحد!

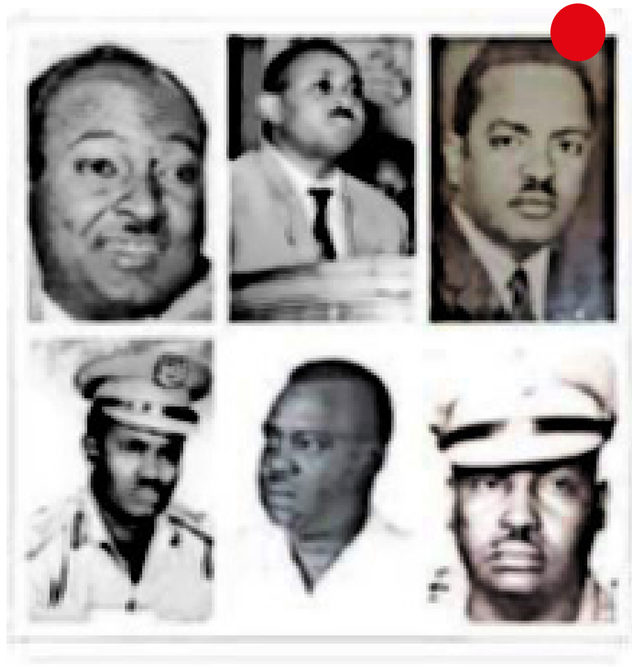

شهداء الحزب الشيوعي السوداني

اللقاء الأول مع السودان

أول لقاء لي مع السودان وقضية شعبه كان عبر لقائي مع شباب مثقفين من السودان في حلب عام 1970 على الأرجح، حيث كان هناك بعض الطلبة السودانيين الذين يدرسون في جامعة حلب، وقد عرفني إليهم أحد الأصدقاء اليساريين هناك خاصة أنني كنت منذ ذاك الوقت متحمسا جدا لانتصار القضية الاشتراكية الأممية، وواثقا بأن بناء العالم الجديد بات قاب قوسين أو أدنى، وكان هؤلاء الشباب يتحدثون عن السودان برهافة وحب وكأنهم يتحدثون عن حبيباتهم، حتى أن أحدهم وصف السودان بأنها «حبيبته ذات العيون الظليلة» [1]، وربما كان ذلك في اللاشعور أحد التأثيرات التي عمقت هذه التوجهات عندي للمزج بين الحبيبة والوطن.

لم أعد أذكر أسماء هؤلاء الشباب لكن لطفهم وثقافتهم ومواقفهم المبدئية تركت أثرا عميقا في نفسي خاصة أن إحدى السهرات معهم كانت مخصصة للشعر مع العزف على المندلين، وربما كانت من أولى السهرات التي تم فيها تسجيل بعض قصائدي مع ترنيمات من الأغاني الشعبية السودانية بواسطة آلة تسجيل في جلسة عامة- خاصة.

كانت لي بالطبع اهتمامات عامة بالسودان، وكان الشاعر محمد الفيتوري من الشعراء المفضلين عندي وخاصة نفحة الكبرياء المتأصلة عنده، وافتخاره بأنه إفريقي حر أسود البشرة وضاء الروح، ولكن منذ ذاك الحين بت أتتبع كل نأمة سياسية أو شعبية أو ثقافية في السودان، خاصة أنني كنت أشعر بأن الشعب السوداني يعاني اضطهادا مزدوجا طبقيا وعنصريا، وكنا نتفاءل نسبيا بأن الحراك الشعبي والسياسي -خاصة مع وجود ضباط يساريين في مجلس قيادة الثورة الذي شكله النميري- يعني أن زمن الأرجحة لن يطول، ذاك أن النميري كان يلعب دائما على حبال الصراعات بين الدينيين والعلمانيين، وبت أشعر بأن عبد الخالق محجوب [2] أكثر قربا لي مثلا من بريجينيف [3] نفسه الذي لم أكن بصراحة أشعر بالود نحوه، وكنت أشعر أنه مهووس بالأوسمة والجوائز التي تملأ صدره، وأنه نقيض عبد الخالق البسيط الشعبي، وكنت شبه واثق من أن إنسانا من هذا النوع هو الذي يجب أن يقود مع رفاقه المجتمع السوداني نحو بر الأمان.

التعاطف بغير حدود

فرحت وخفت بآن معا عندما سمعت عن استيلاء بعض الضباط اليساريين بقيادة هاشم العطا على السلطة في السودان، لأن قراءة موضوعية لواقع الأمور وكون أكثر من سبعين بالمئة من الشعب عادة هم ممن يدعمون السلطة الحاكمة ولو بتبعية غير مفهومة، وخاصة داخل القوات المسلحة لا تدفع إلى الاطمئنان، والحقيقة أنني بت قلقا جدا في تلك الأيام التي لم تدم طويلا، وكنت واثقا من أن اليساريين السودانيين سينحون النميري، ويشرعون بتكريس التقاليد الديمقراطية دون مزيد من الدماء خاصة أن الصدامات الأولى أسفرت عن وقوع قتلى. وبت أتلقف الأنباء حيث لم يكن هناك أنترنات، وكان المصدر الرئيسي مذياعا «ترانزيستور» صغير، كنت أخرج إلى الشرفة-البلكون وأتلقف المحطات التي تبث أخبار السودان، وكثيرا ما كنت أضغطه على أذني لكي أستوضح الخبر، شعرت أنني واحد من أولئك الشباب السودانيين الذين التقيتهم في حلب قبل عام تقريبا، وأنني مثلهم أتلقف سماع أخبار «حبيبتي ذات العيون الظليلة»، وجاء الخبر كالصاعقة، لقد تمكن النميري من إفشال عملية الإطاحة

محمد الفيتوري وأيمن أبو الشعر

به، واعتقل الضباط اليساريين وقائد الحزب الشيوعي السوداني عبد الخالق محجوب.

أدركت أن حقودا كالنميري [4] لا يمكن أن يفعل ما كان يمكن أن يفعله اليساريون السودانيون في انتقال سلس سلمي للسلطة، وكان بديهيا أن تحدث الفاجعة [5]، وكان ما كان.

بكيت كالأطفال، وأول ما نطقت به حين سمعت خبر إعدام عبد الخالق محجوب بعد أيام: « المجد في عيونك الظليلة» كنداء للشعب السوداني الحبيب، لم أنم بل لم يكن بالإمكان أن أغفو ولو لثوان، أخذت العود ووضعت ورقة وقلما على الطاولة الصغيرة، وكانت هذه القصيدة هي القصيدة الأولى التي تتوالد مع لحنها، أي أنّ النص واللحن توالدا معا حيث كنت أتابع أداء المطلع وأكرره مرتين أو ثلاث، وأنا أغمض العينين أحيانا إلى أن يتوالد ما بعده، وللمرة الأولى في حياتي أسهر مع العود حتى الصباح حيث تكتمل قصيدة الأغنية «المجد للصمود»، وتوجهت بعدها إلى فراشي في الصباح موجع القلب منجزا رثاء الأبطال، ووضعت العود في بيته، ورميت زجاجتين فارغتين في سلة المهملات حتى لا يعاتبني أهل البيت بأني بالغت في «شرب الشاي»، وبدأت بمعايشة جرح لم يندمل، ولن يندمل.

اللقاء مع الشاعر محمد الفيتوري

باتت أغنية المجد للصمود حلقة رئيسية في نشاطات اتحاد الشباب الديمقراطي، وفي الرحلات والحفلات والسهرات التقدمية، وحتى في بعض الاحتفالات حيث أصبح محجوب بطلا ورمزا كبيرا للصمود، وخاصة في رصد مواقفه الشجاعة إبان محاكمته، وتأكيده على اعتزازه بدوره في توعية الشعب السوداني،[8] ومن ثم توالدت قصائد أخرى عن أبطال الفداء السوداني وترددت أصداؤهم في أكثر من قصيدة شعرية خاصة أننا طبعنا مجموعة المجد للصمود في تلك الفترة تصويرا لنسخة مكتوبة باليد ورسوم ساهم فيها مبدعان تشكيليان موهوبان هما كما أذكر موفق قات وبرهان عكو[9] وانتشرت بشكل واسع كقصيدة تحد مغناة قبل أن تنتشر بشكل واسع الأغنية السياسية.

كقضية لهم في كل ثانية من حياتهم بل وحتى وهم يمارسون الحب:

”

المجدُ في عيونِكِ الظليلَةْ
يُسبِّحُ السوادْ
والحزنُ فوقَ رمشكِ الندِيِّ
بالدموع والسُهادْ
يسرِّحُ السهولَ والوهادْ
يقولُ في عِنادْ
محجوبُ يا بطلْ
يا فارسَ القبيلةْ

[6]

”

رفاقُنا يضاجِعونَ دونَ لذَّةٍ
ويزرعونَ في البطونِ نطفةَ الأملْ
ودونما قُبَلْ
تسيلُ جمرةُ
مزيجُها غبارْ
ودمعةُ وثارْ
لا وقتَ للملَلْ
الصمتُ كبرياءْ
والحزنُ من أشعةِ الإباءْ
فنحنُ سائرينَ لم نزَلْ
ونطفةُ الدماءِ والترابْ
جنينُها جَبلْ [7]

انتشرت القصيدة مغناة عبر الكاسيتات بشكل واسع حينها، وقصدت كصفعة للقتلة وللمجتمع البليد أن أستخدم صورة قد يبدو فيها خدش للحياء، وتحد لأعراف التابو الجنسي، حيث تؤكد هذه الصورة استمرار النضال بعد رحيل عبد الخالق محجوب في مفارقة مذهلة وغير عادية -لكنها ضرورية جدا-فهي تشير إلى أن المناضلين من رفاق محجوب ستستمر الثورة

مـضى زمـن يصعـب تقديـره الآن لكنـه ليـس كبـيرا جـدا وقيـض لي أن ألتقـي بالشـاعر محمـد الفيتـوري الـذي كان مـن بـين الشـعراء التقدميـين الذيـن أثـروا بمجمـل مشـاعري وتوجهـاتي، وخاصـة نـبرة الرفـض والتحـدي وفضـح الظالمين وقسـوتهم، وحتـى فرضهـم للعبوديـة التـي يرفضهـا الفيتـوري ويـروي قصـة اسـتعباد إفريقيـا عـبر أفـواج سـفائن تجـار العبيـد البيـض في قصيـدة رؤيويـة رائعـة بعنـوان حـدث في أرضي:

”

ذات يـومٍ لم يزلْ يثقـلُ بالنقمةِ أرواح جدودي
ذات يوم لم يـزلْ يزحمُ أيامَ وجودي
وقفـتْ أرضيَ ترنـو للمقادير حزينةْ
وقفت كامرأةٍ تنسـجُ أكفانَ السـكينةْ
وقفت مطرقةَ الـرأس مهينةْ
ورأت في نظرةٍ واحـدةٍ أو نظرتين
نظـرة خائنـة صفراءَ ذات أجنحةْ
سـفناً تزحمُ أعمـاقَ البحارِ النازحةْ
سـفناً تغدو وأخرى رائحةْ
سـفناً مكتظةً بالأسلحةْ
وبأبناءِ بلادي
وبخيراتِ بلادي
وبتاريخِ بلادي [10]

وهـو كثـيرا مـا ينتقـل مـن وصـف الحالة التـي أرهقـت الأفارقـة إلى التبشـير بمسـتقبل وضـاء قـادم لا محالـة فيتفـاءل في نـصر إفريقيـا وشروق شمسـها بعـد أن تنتفـض بتاريخهـا وتحيـي مسـتقبلها وتلبـس ثـوب الفـرح بعـد أن ظلـت طويـلا في ثيـاب الحـداد كان في تلـك القصائـد صاحـب قضيـة خاصـة مبـشرا ببـزوغ فجـر الفـرح:

”

لتنتفـضْ جثـةُ تاريخِنـا وليُنصب تمثـالُ أحقادِنا
آنَ لهذا الأسودِ المنزوي المتواري عن عيونِ السَـنا
آنَ لـهُ أنْ يتحدّى الورى آنَ لهُ أن يتحـدّى الفنا
فلتنحن الشـمسُ لهاماتِنا ولتخشـع الأرضُ لأصواتِنا
إنّا سنكسـوها بأفراحِنـا كما كسـوناها بأحزانِنا [11]

مثـل هـذه الأشـعار – رغـم إحسـاسي بأنهـا موغلـة في المباشريـة- بنـت جسـورا للتواصـل مـع محمـد الفيتـوري حيـث كنـت قـد قـرأت بشـغف مجموعاته الأولى أغـاني إفريقيـا واذكريني يـا إفريقيـا وعاشـق مـن إفريقيـا وأحـزان إفريقيـا وحـين سـألته لمـاذا تكـرر كلمـة إفريقيـا في عناويـن جميـع مؤلفاتـك قـال:»إني أريـد أن أؤكـد فخـري بهـذا الانتمـاء فأنا من أب سـوداني وأم ليبية مصريـة وترعرعـت وتعلمـت في مـصر، وليبيـا والسـودان ومـصر كلهـا بلـدان إفريقيـة، ولأني أريـد أن أغيـظ بهـذه العناويـن مـن يكـره إفريقيـا ويزدريهـا، وأُفـرح مـن يحبهـا ويحترمهـا»، قلـت «في مـصر حيـث الدراسـة الدينيـة؟»، تلقـف هـذه العبـارة التسـاؤلية وكأنهـا نـوع مـن الاسـتفزاز، فعـدل مـن جلسـته وقطـب جبينـه وتنهـد طويـلا ثـم قـال «نعـم تلـك حقيقـة، وكان لهـا تأثـيرات إيجابيـة حتـى عـلى تجربتـي الفنيـة» قلـت «تقصـد الأجـواء الصوفيـة الرائعـة بمفارقاتهـا المذهلـة؟» فـأدرك أننـي لا أنـوي إحراجـه فابتسـم وأجـاب «الظـلال الصوفيـة التـي أعتـبر أنهـا تُغْنـي الفـن عمومـا، وتُجوهـر روح الإنسـان، وترتقـي بالشـعر وترتبـط بالـرؤى.»

كانـت مناقشـة مسـتفيضة جميلـة لم أعـد أذكـر جميـع حيثياتهـا لكنـه أوضـح ببسـاطة ودون مواربـة بـأن والـده كان مـن أتبـاع الطريقـة «الشـاذلية» الصوفيـة، وأن معظـم الأجـواء في مرحلتـي الطفولـة والصبـا كانـت دينيـة بمـا في ذلـك مرحلـة الدراسـة الجامعيـة «الأزهريـة» وظـل حسـه الرافـض للعبوديـة يتنامـى في حياتـه وشـعره[12]، مـن هنـا كان بديهيـا أن تـترك أجـواء هـذه المرحلـة بصماتهـا في نتاجاتـه حتـى اللاحقـة، ولعـل مـن أجمـل تلـك القصائـد ذات النفـس الصـوفي قصيدتـه الشـهيرة «معزوفـة لدرويـش متجـول»:

”

في حضرةِ من أهـوى عبثتْ بيَ الأشواقُ
حدَّقتُ بلا وجهٍ ورقصتُ بلا ساقٍ
وزحمتُ برایاتي وطبولي الآفاقَ
عشـقي يُفنيني عِشـقي وفنائي استغراق
مملـوكِكِ لكنـي سـلطانُ العشّاق [13]

كان لقـائي الأول بـه عـلى مـا أذكـر في فنـدق سـمير أميـس عنـد جـسر فكتوريـا، وبعـد يومـين دعوتـه إلى الغـداء في مطعـم شـعبي يقـدم أكلات شـامية مطبوخـة بالطريقـة البيتيـة، وطلبـت بامياء وملوخيـة وكبـة إضافـة طبعـا إلى الـرز وشـوربة العدس والسـلطة فاندهـش وقـال مازحـا «لمـاذا كل ذلـك هـذا اغتيـال بالدسـم»

وكان محمد الفيتوري قصير القامة أقرب إلى النحالة، وقد فوجئت إذ شاهدت صورا له بعد مضي سنوات عديدة وقد امتلأ جسمه قليلا، ولم يعد نحيلا أو هكذا خُيّل إليّ.

حديثنا عن الصوفية وتأثره بها شدني إلى استفسارات عن توجهاته السياسية، وأدركت دون أية شكوك أنه تقدمي الهوى عربي الانتماء إفريقي العشق ذو إحساس إنساني عميق، ورغم أن توجهه الرئيسي كان إلى المضطهدين في إفريقيا إلا أنه كثيرا ما توجه بندائه التحريضي والتبشيري إلى كل الشعوب من خلال «أخيه الإنسان يبحث عن ضياء لأرضه»:

”

يا أخي في كلِّ أرضٍ عريتْ من ضيا ها
وتغطَّت بدِماها
يا أخي في كلِ أرضٍ وجمتْ شفتا ها
واكفهرَّت مقلتاها
قم تحررْ من توابيتِ الأسى
لست أعجوبتَها أو مومياها
انطلقْ فوق ضُحاها ومَساها

[14]

ولا أدل على أن الأرضية الدينية عمقت من أسلحته الفنية ولم تبعده عن اليسار –وهي ظاهرة نوعية لدى الشيوعيين السودانيين الذين يرتادون المساجد ويتفاعلون من الدينين- قصيدته في رثاء عبد الخالق محجوب زعيم الحزب الشيوعي السوداني والتي حقد عليه النميري بسببها وسحب منه الجنسية السودانية، ومطلعها «حين يأخذك الصمت منا»يقول فيها:

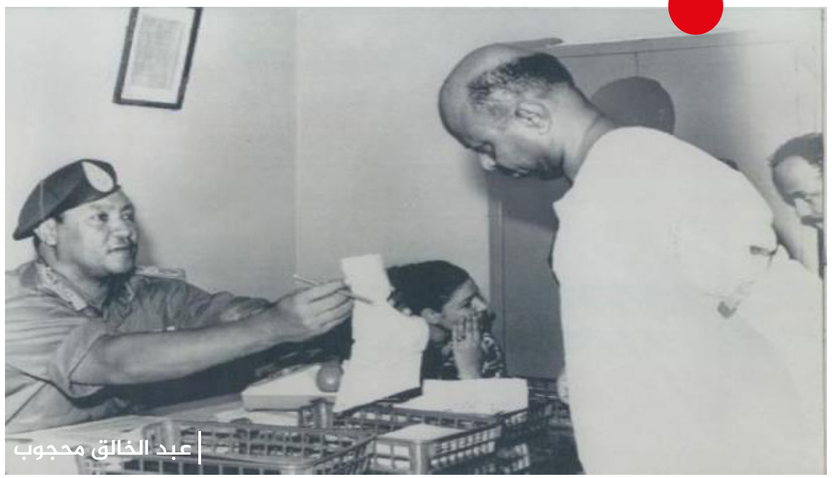
عبد الخالق محجوب

”

لماذا يظنُّ الطغاةُ الصغارْ
وتشحبُ ألوانُهم
أن موتَ المناضلِ موتُ القضيةْ
أعلمُ سرَّ احتكامِ الطغاةِ إلى البندقيَّةْ
لا خائفاً
إن صوتي مشنقةٌ للطغاةِ جميعاً
ولا نادماً
كل طاغيةٍ صنمْ... دميةٌ من خشبْ
إن روحي مثقلةٌ بالغضبْ [15]

حين وصلنا إلى المطعم لفت نظري أنه اختار بنفسه مكانا قصيا ومنزويا رغم أن المطعم كان شبه فارغ، وبرر ذلك بقوله لا أحب الضجيج قريبا سيأتي الناس، وقد لا نستطيع أن يسمع واحدنا الآخر حتى أنه طلب مني أن أخبر صاحب المطعم بضرورة تخفيض صوت المسجلة التي كانت تصدح بأغنية لأم كلثوم ما يشير إلى حنينه للهدوء والبعد عن الصخب أو حبه للانزواء.

فاجأني تقييمه لشعراء الأرض المحتلة الذي لم يكن كما كنت أتمنى عموما، وخاصة تجاه محمود درويش طبعا بتغليف فني مع كلمة «ربما» قادنا الحديث بشكل طبيعي إلى تجربة اليسار السوداني عموما فسألته: «هل كنت شيوعيا في يوم من الأيام؟ أو فكرت بالانتساب للحزب؟ فقال بثقة: «لا لم أكن منتسبا لأي حزب لا الحزب الشيوعي ولا غيره، ولكن الشيوعيين السودانيين أنقياء جدا ومناضلون حقيقيون، وكانت علاقاتهم معي جميلة عموما رغم بعض المنغصات التي لا سبيل إلى ذكرها».

تشعَّب الحديث ما دفعني إلى الاستفسار عن السبب لاهتمام محمود أمين العالم [16] بكتاباته الشعرية المبكرة حتى أن البعض ظن نتيجة ذلك أنه شيوعي، وعلى أية حال اسم محمود أمين العالم كان الجسر الأول الذي نقل الفيتوري إلى الشهرة الواسعة، فأكد لي أن محمود أمين العالم كتب عن قصائده التي كان ينشرها في المجلات والصحف دون أية صداقة شخصية، وأنه كان شاعرا شابا في مقتبل

العمر وبداية الطريق لكنه ذهب بنفسه إلى محمود أمين العالم- الذي وصفه بأنه أستاذ جيل وهو واحد من هذا الجيل- ذهب إليه راجيا أن يكتب مقدمة مجموعته الشعرية الأولى «وهذا اعتراف نوعي آخر» حيث تصاعدت بعد ذلك معركة في الصحف.

بالمناسبة بعض جوانب هذه المعركة تتعلق بما اعتُبر مبالغة من الفيتوري بتصوير مأساته الشخصية «الزنوجة واللون الأسود» وكأنها مأساة إفريقيا كلها والانطلاق عند اليساريين عموما في رفض ذلك من أن المشكلة في اضطهاد النظام الرأسمالي للكادحين سودا وبيضا،ورغم قناعتي النسبية من حيث المبدأ بهذه المقولة، إلا أنني واثق أيضا من وجود اضطهاد عام، واضطهاد خاص مضاعف قد يمارسه قسم من المضطَهَدين أنفسهم في إطار العنصرية. [17]

لا بد أن أشير أخيرا إلى أن الفيتوري رثى جمال عبد الناصر بقصيدة جميلة تعتبر من عيون الشعر العربي آنذاك:

”

الآنَ وأنتَ مُسجّى
أنتَ العاصفةُ، الرؤيا، التاريخُ،
الأوسمةُ، الرايات
الآنَ وأنت تنامُ عميقا تسكنُ في
جنبيكِ الثورةْ
ترتدُ الخُطواتْ
تعودُ الخيلُ مطأطِئةً من رحلتِها
مغرورقةَ النظراتْ
الآنَ يُقيمُ الموتُ سرادقَهُ العالي
يتدفَّقُ كالأمطارِ على كل الساحاتْ
الآن يكونُ الحزنُ عليكَ عظيماً
والمأساةُ تدوسُ على جثثِ الكلماتْ
الآنَ وهُمْ يبكونَ
كأنَّ ملايينَ الأرحام ولدتك
وأنَّكَ عشتَ ملايينَ الأعوامْ [18]

اللقاء مع جيلي عبد الرحمن

لم تكن لقاءاتي بالشاعر التقدمي السوداني جيلي عبد الرحمن كثيرة لكنها كانت مديدة ونوعية، وتمحورت حول جانبين مقدسين لكلينا: الشعر والنضال في سبيل عالم أفضل.

لم أعد أذكر بدقة الزمن وأي اللقاءات كان أولا لذا اسجل عموما أننا التقينا ربما في موسكو مرتين مرة في مطعم في قلب العاصمة موسكو، وكان معنا الناقد المسرحي الصديق عبد الله سمسوم وقد يكون اختلط الأمر علي وكان اللقاء مع شاعر سوداني أخر أو ربما أثناء زيارة لجيلي إلى موسكو إذ كان يعمل قبل ذلك مدققا لغويا في وكالة أنباء موسكو حيث يعمل عبد الله (وقد توفي عبد الله وتوفي أيضا المترجم المصري أبو بكر يوسف الذي كان في السهرة معنا في بيت السفير ولم أعد قادرا على التأكد مئة في المئة بأن اللقاءين في موسكو كانا مع جيلي تحديدا، لكن الحادثة التي سأرويها في بيت أحد السفراء العرب فيها من الطرافة ما يجعلني أثبتها هنا على هذا الاحتمال ريثما أتبين من هو هذا الشاعر إن لم يكن جيلي عبد الرحمن، على كل الحوار هو مع جيلي مئة بالمئة، ولكن ربما كان هذا الحوار في عدن، ومن البديهي أنه ليس حرفيا لكن مضمونه أكيد فقد شدتني معطياته وخاصة ما يتعلق بعبد الخالق محجوب)

كان يهمني في لقائي مع جيلي استيعاب تجربته في المجالين الشعري والنضالي، فهو يكبرني بخمسة عشر عاما كالفيتوري، وقد وجهت له في لقائنا الأول السؤال الذي كنت قد وجهته للفيتوري: «ما قصة تخرج معظم الأدباء والشعراء التقدميين من الأزهر وأنت من بينهم، وكيف حدث الانقلاب الفكري بعد ذلك؟» فقال لي « تلك مرحلة قديمة جدا، وكان الأزهر المؤسسة التعليمية الأكثر مصداقية في مختلف العلوم، وكان يمثل نقيضين بآن معا، فهو بشكل عام حلم لمن يريد أن يتعلم بشكل جيد، وهو من جهة ثانية ملاذ الفقراء والمقهورين، وفيه تتخمر الأحاسيس الطبقية، صحيح أن القرآن والشؤون الدينية رئيسة ومحورية، ولكن الأزهر يعلّم بشكل نوعي اللغة أيضا وفنون الشعر، ولولا الأزهر لما استطعت العمل في الصحافة بسن مبكرة، ولما استطعت كتابة ما يستحق النشر وأنا شاب صغير.

وكان من البديهي أن نتحدث وبإسهاب عن تجربة الحزب الشيوعي السوداني، وسر اتساع جماهيريته، فأكد لي «جيلي» أن الميزة الرئيسية كانت في التجاوب مع أحاسيس الناس الفقراء واحترام تقاليدهم وحتى شؤونهم الدينية، حتى أنه أكد لي أن كثيرين من الشيوعيين كانوا يصلون في الجوامع ليس بقرار حزبي بل نتيجة قناعاتهم.

وهذا هام جدا كتوضيح من شيوعي سوداني عريق! وكان لا بد من تناول محاولة هاشم العطا لاستلام السلطة، وفشل تلك الحركة، فأوضح أن الحزب الشيوعي السوداني دعم إلى حد كبير النميري في المرحلة الأولى حيث بدا النميري نفسه وكأنه يساري حتى أن الحكومة الجديدة ضمت آنذاك عددا كبيرا من الشيوعيين، إلا أنه لعب على حبال الصراعات بين التنظيمات اليسارية والقومية، وتعاطف مع الإسلاميين حتى أطلق على نفسه بعد حين اسم أمير المؤمنين (أكدت بعض التحقيقات فيما بعد أن النميري ساهم لقاء رشى مالية بتسهيل سفر الفلاشة اليهود من أثيوبيا عبر السودان إلى إسرائيل عام 1985 عن طريق أوروبا وفق اعتراف صحيفة «يديعوت أحرونوت»، وهناك أمر بالغ الأهمية لفت نظري إليه جيلي عبد الرحمن وهو أن الشيوعيين السودانيين مسالمون غير قساة بطبعهم، وسقوط القتلى في البداية كان نتيجة المقاومة والمواجهة ثم لو أن الشيوعيين أعدموا النميري فور أن صار بقبضتهم ولم يحتجزوه حيا لما كانت لديه الفرصة «ميتا» لأن يعدمهم، ثم أكد لي جيلي أن عبد الخالق محجوب لم يكن على علم بهذه الحركة ولم يكن يؤيد الانقلابات وفوجئ به، حتى أنه أنّب هاشم العطا وقال له: « لماذا استعجلتم» ولكن كان لا بد من تأييد الحركة التي

تزعمها ضباط شيوعيون، وقد دفع الحزب ثمن تسرع هؤلاء الضباط، وخسر العديد من خيرة كوادره، وعلى رأسهم مؤسس الحزب وقائده عبد الخالق محجوب نفسه الذي كان قد كتب مقدمة لكتاب أصدره جيلي عبد الرحمن مع تاج السر الحسن أواخر الخمسينات حول تأثير المعونات الأجنبية على استقلال السودان، وهذه شهادة هامة جدا من شخص قريب جدا من قيادة الحزب الشيوعي السوداني بمعنى أن الحزب لم يتخذ قرارا بالقيام بالانقلاب .

حديث كهذا كان لا بد أن يقودنا إلى قراءة قصائدنا في رثاء محجوب ورفاقه فقرأت قصيدة المجد للصمود، وقرأ جيلي قصيدة جميلة أذكر مطلعها:

”

وانتظرناكَ على العشِب طويلاً
ولهثنا في حقولِ القيظِ
سنطاً ونخيلا [19]
كنت تزهو في ذراعِ الثائرِ المهديِّ
سيفاً
يحتسي المحرومُ منهُ
قطراتِ الشهدِ صيفا
كان سيفاً أحمرَ الحد صقيلا [20]
قصيدة غنائية فيها ابتهال ونشيج
وكان يلقبه فيها بعريس الشهداء

بعد يوم أو اثنين كانت سهرتنا عند أحد السفراء العرب الذي دعانا إلى العشاء، وهو صديق قديم لي كانت له اهتمامات جيدة في الشعر رغم أنه طبيب، وكان في بلده وزيرا للصحة، وكان معنا المترجم المعروف أبو بكر يوسف، وكان بديهيا أن يتم إلقاء الشعر في هذه السهرة، وجاء دور جيلي الذي كان في نشوة، فألقى قصيدة يهاجم فيها السلطات الديكتاتورية ويتبرأ منها وفي أحد المقاطع قال بترنم مشددا على الحروف لتنصله من أي تقارب مع مثل هذه السلطات:

«لم أكن يوما وزيرا أو سفيرا أو حقيرا»

فنظرنا إليه بدهشة، ظن جيلي أننا نطلب منه إعادة هذا الشطر فأعاده ثم تنبه في آخره إلى أننا في بيت سفير كان وزيرا، فتوقف وضحكنا جميعا وأولنا السفير الوزير الذي كان شهما حتما، فاعتذر جيلي وقال له: «أنت حتما غير مقصود»

إثر ذاك (أو قبل ذاك ولكن بسنوات متقاربة جدا...) التقينا في عدن حيث انتدب جيلي عبد الرحمن للتدريس في جامعة عدن وكانت لنا عدة لقاءات جميلة وربما كانت الحوارات التي ذكرتها قد جرت في عدن وأذكر أن إحدى السهرات كان فيها عدد من الأدباء السودانيين واليمنيين والفلسطينيين بينهم أحمد دحبور استمرت حتى الصباح.

وحين أقيمت لي أمسية في قاعة خور مكسر كان في القاعة المكتظة حضور سوداني ملفت بينهم بالطبع جيلي عبد الرحمن، فألقيت قصيدة المجد للصمود تحية لنضال الشعب السوداني الذي كان التقدميون في اليمن يعتزون به ويعتبرونه نضالا مشتركا.

متابعة وجدانية وجينية

لا يستطيع اليساري «الحقيقي» حتى وإن حاول أن ينسلخ لا عن تاريخه ولا عن أحلامه، وكأنما في الأمر جينات نوعية توجه مساراته، من هنا كان لا بد من متابعة نضالات الشعب السوداني الذي تعرض إلى محنة جديدة قاسية بسيطرة الإخوان المسلمين على السلطة عبر انقلاب قادته عمليا في بداية الجبهة الإسلامية برئاسة حسن الترابي، واستدعي عمر البشير الذي كان في الجبهة كونه أعلى رتبة عسكرية في ذاك الوقت ليتابع المشوار ويكرس حكم الإسلاميين بالقوة، ولم يلبث أن قام عمليا بانقلاب عسكري أجبر حكومة المهدي على الاستقالة، ثم مضى بخطوات سريعة باتجاه أسلمة الدولة ومؤسساتها، وحل البرلمان والأحزاب السياسية وحتى نقابات العمال، بل وتعدى ذلك لإعادة فرض الشريعة الإسلامية عمليا حتى على الجنوب السوداني ذي الأكثرية المسيحية والانتماءات الدينية غير المسلمة، مما عمق من الحس الانفصالي والسعي للاستقلال ناهيك عن تسلط الأخوان الذين يطلق عليهم السودانيون لقب «الكيزان» على كل مفاصل الحياة الاجتماعية والسياسية.

استمرت اتصالاتي عبر الانترنات مع شخصيات سودانية يسارية وخاصة إبان انتفاضة الشعب السوداني ضد البشير و«الكيزان»، ومن جديد عبرت عن دعمي غير المحدود للشعب السوداني وانتفاضته بعدة قصائد لعل أشهرها «تسقط بس» وهو شعار من المظاهرات الجماهيرية في السودان اعتمدته في القصيدة كخاتمة لكل مقطع.

وما زال السودان يخوض مسارا متأرجحا يحتاج إلى بوصلة شعبية توصله إلى شط الأمان!

المصادر:

- أذكر بشكل ضبابي أن ذاك الشاب قال، وكأنه يلقي مقطعا شعريا – وربما كان الأمر كذلك-تقريبا هذه الكلمات: «السودان حبيبة مكحلة بدون كحل، وعيونها ظليلة بلا مساحيق!!!

2- عبد الخالق محجوب 1927 1971 واحد من أبرز قادة اليسار في العالم، وهو سكرتير الحزب الشيوعي السوداني، مثقف كبير، وكان يؤكد على خصوصية كل بلد في تجربته لبناء الاشتراكية وعدم التطبيق الحرفي للتجربة السوفييتية

3- ليونيد بريجينيف رئيس الاتحاد السوفييتي منذ عام 1968 وحتى وفاته عام 1982 ... «انتشرت طرفة أواخر أيامه تقول أنه أجريت له عملية توسيع للصدر حتى يتسع للمبداليات والأوسمة...»

4- جعفر نميري 1930-2009 وصل إلى الحكم عن طريق انقلاب عسكري عام 1969 وكان برتبة عقيد

5- رغم أن النميري بدأ أقرب إلى اليسار إلا أنه بعد حين سرح أهم الضباط الشيوعيين من الجيش ما دفعهم للانقلاب عليه واستطاع بدعم من أنصاره العسكريين الهرب وسيطر بعد ساعات على الوضع وأفشل الانقلاب وأعدم قادته ومعهم عبد الخالق محجوب الذي لم يكن يعلم بالانقلاب حسب ما أكده لي أحد الرفاق المقربين منه

6- مجموعة المجد للصمود صفحة 5 (صدر في دمشق باسم مستعار هو مايا الدمشقي)

7- المرجع السابق صفحة 10-9

8- أثناء محاكمة عبدالخالق محجوب في معسكر (الشجرة) يوم الثلاثاء ٢٧ يوليو ١٩٧١، سأله قاضي المحكمة العسكرية العقيد احمد محمد حسن وكان يشغل وقتها منصب رئيس القضاء العسكري في القيادة العامة للقوات المسلحة :(ماذا قدمت لشعبك؟!!) ..أجابه عبدالخالق بهدوء شديد ورباطة جأش: (الوعي.. بقدر ما استطعت).

9- الفنان التشكيلي موفق القات والفنان التشكيلي برهان عكو فنانان سوريان تشكيليان

10- قصيدة حدث في أرضي يمكن متابعتها من فم الفيتوري يتلوها على الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=k0PynfhKx-I

11- قصيدة إفريقيا استيقظي يمكن متابعتها على الرابط التالي بأداء الفيتوري نفسه:

https://www.youtube.com/watch?v=DRAxQNvA0ic

12- من بين الأمور المثيرة جدا أنه أكد لي أن جده لأمه كان تاجر رقيق وأن جدته كانت جارية أعتقها جده وتزوجها وكانت تقص علي حفيدها حكايات مؤلمة عن معاناة العبيد

13- محمد الفيتوري معزوفة لدرويش متجول اصدار دار العودة بيروت 1970

14- محمد الفيتوري من أغاني إفريقيا ويمكن متابعة القصيدة كاملة بأداء الفيتوري نفسه على الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=hqgnocTEAy0

15- يمكن سماع القصيدة بأداء الفيتوري نفسه على الرابط التالي:https://www.youtube.com/watch?v=PM1jy4xFDEU

16- خير دليل على ذلك ما حدثني به محمد الفيتوري نفسه من أنه كان يتفجع ألما حين أدرك أن جده كان تاجر عبيد بدل ان يكون مناضلا لتحريرهم.

17- محمد الفيتوري من قصيدة القادم عند الفجر ويمكن متابعتها كاملة بأداء محمد الفيتوري نفسه على الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=p4TlGJXhubE

18- نوع من الأشجار الظليلة دائمة الخضرة التي تتحمل المناخ الصحراوي بما في ذلك درجات الحرارة المنخفضة

19- قصيدة بعنوان «العريس وطحالب القاع» في الحقيقة لم أعثر على المجموعة التي ضمت هذه القصيدة ولكن يمكن بكل بساطة رؤيتها كاملة منشورة في الانترنيت على الرابط التالي:

http://alantologia.com/blogs/20748/

20- قصيدة بعنوان «تسقط بس» كتبتها تعاطفا مع انتفاضة الشعب السوداني ضد البشير وهي مخرجة بالصور والفيديو والموسيقا انتشرت بشكل واسع إبان انتفاضة الشعب السوداني يمكن متابعتها على الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=Qy3Q8Z7eA1o

انطباعات أولى حول تجربة اليمن الديمقراطي

بنات عبد الفتاح اسماعيل وأيمن أبو الشعر

يعيش اليمن اليوم أسوأ كارثة إنسانية يشهدها العالم دونما أي ذنب ارتكبه الشعب اليمني في هذا الصراع بالذات، ولكنه أرهص بتمزقه المستمر بين حين وآخر لهذه الكوارث دون أن يرغب في ذلك، من هنا يمكن طرح السؤال التالي: لماذا أكتب هذه المذكرات التي فيها الكثير من الشجون، والتي لا تقتصر بالطبع على بعض التقييمات الإبداعية بل تحاول أحيانا الولوج في العمق لكشف الدود الذي يأكل الجذور فتنهار الأشجار مهما كانت باسقة؟ والسبب الآخر هو أن هذه المعطيات يمكن أن يطويها النسيان إن لم أسجلها في هذه السطور وسيكون مؤسفا ألا يستفيد الجيل القادم من دروس دُفع ثمنها دما غزيرا.

نعم انني أحاول أن أشير إلى عيوبنا نحن قوى اليسار بعد أن مزقتنا الصراعات التي كانت خلفياتها الحقيقية في معظم الأحيان تكمن في التنافس على السلطة والزعامة والهيمنة، وليس كما تطرح التبريرات في كل مرة بأن الصراعات نتيجة خلافات أيديولوجية عميقة .

لقد عايشت ذلك الصراع في دمشق، وفي تجربتي مع اليمن ونسبيا مع السودان [1] وكذلك في أوساط التنظيمات الفلسطينية وخاصة اليسارية منها، وكانت نتائج هذه الصراعات غالبا مأساوية جدا، عدا عن أن آثارها أحيانا تستمر لعشرات السنين تاركة ندوبا عميقة في وجه هذا اليسار الذي يتحمل أبناؤه جريرة أخطاء القيادات التي شوهته، وتدفع الأجيال اللاحقة الثمن على مبدأ «الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون» ومن حسن الحظ أن صحوة متواضعة بدأت تظهر بعد عدة أجيال من هذه الصراعات تدعو من جديد لتوحيد صفوف اليسار.

وأنا لا أميل فقط إلى الاعتقاد بل أنا واثق أن ما يعيشه اليمن اليوم من صراعات دامية وفق أجندات خارجية لم يكن ليعايش مآسيها المذهلة لو حافظ على وحدة ونقاء دربه اليساري منذ البداية.

كم مؤلم ومؤسف هذا الاقتتال الذي يدور بين اليمنيين ويهدر دمائهم.. وما سأتحدث عنه جرى قبل أكثر من خمسة وثلاثين عاما وبالتالي لا يمثل هذا التناول أي دعم لفريق ضد آخر من القوى المتصارعة اليوم لكنه حتما يحمل أطيب الأمنيات وأصدقها بأن يصل الشعب اليمني في نهاية المطاف إلى بر الأمان الاستقرار.

ولا بد من التنويه بأنني رغم صداقتي الحميمة مع عبد الفتاح اسماعيل فإنني أحاول أن أكون موضوعيا حتى النهاية كما كنت في البداية...لقد عايشت تجربة هذا الشعب النقي، وملخص انطباعاتي عنه أنه على وجه العموم شعب مسالم طيب ونقي إلى حد القداسة، ووفي وشهم جدا، لكنه في الآن نفسه أشبه ما يكون ببرميل بارود قابل للانفجار أو التفجير في أية مرحلة يمكن أن تسيطر فيها إشاعات أو إشكالات حساسة، وإن ظهرت تناقضات في مصالح بعض القوى فتستجيب لها ولنقيضها قطاعات واسعة فتتناحر.

هذه الخاصية «حرارة الانفعال كبرميل البارود» موجودة حقا بشكل فردي وجماعي، وأذكر كمثال فقط أنني في إحدى السهرات كنت شاهدا على مشادة بين أصدقاء نتيجة خلاف عابر جدا انتهت ببعض الدم والجراح لسبب تافه تماما.

من هنا أرجو فهم تركيزي على بعض المحاور التي لا يجب أن ننطلق من تقييم أبعادها ومسبباتها من أجواء تلك الأحداث قبل عدة عقود من الزمن، بل علينا الغوص نحو الجوهر، فقد استطاع الثوار اليمنيون طرد الإنكليز عام 1967 بعد احتلال استمر أكثر من قرن من الزمان [2]، والواقع أن الخلافات بدأت بين جبهة تحرير الجنوب والجبهة القومية حتى إبان النضال ضد المستعمرين كما أوضح لي عبد الفتاح إسماعيل نفسه، لكن صراع التصفيات وتغيير القيادات بدأ منذ الإطاحة بقحطان الشعبي عام 1969 بحركة قادها سالم ربيع علي الذي تمت تصفيته أيضا عام 1978 [3] حيث جرى تأسيس الحزب الاشتراكي اليمني، وظل عبد الفتاح إسماعيل زعيما للحزب وقائدا لليمن الديمقراطي حتى عام 1980، وقدم (كما فعل قحطان الشعبي) استقالته من جميع مناصبه، لكنه لم يبق في البلاد بل وافق على السفر إلى موسكو، وحسب شرحه الشخصي لي فإن الحزب الوليد كان يمكن أن يتمزق ويتشرذم ناهيك عن أن حجم الضحايا والخراب سيكون كبيرا، ثم عاد بعد خمس سنوات تنفيذا لقرار الحزب، وسرعان ما اشتعلت المواجهات بشكل دام جدا هذه المرة وأسفرت عن سقوط بين 13 و16 ألف ضحية حسب بعض المعطيات.

وبمتابعة موضوعية نرى أن المعارك والقتلى والجرحى نتيجة هذه الاشتباكات خلال عشرة أيام فاقت مئات المرات نتائج الصدامات والمعارك في عدن إبان الصراع مع قوات الاحتلال البريطاني لعدة سنوات...أليس ذلك مؤشرا رهيبا على مسار الفاجعة؟ خاصة إن كانت

هناك قوى تروج لهذه الصراعات وتزكيها، لذا أنا أعي تماما أن هناك من لن يقبل بما أطرحه هنا، بل ربما قد يقوم بعض الأشخاص تعبيرا عن مواقف محددة ليس فقط بانتقاد ما أكتب بل والتشكيك به طبعا انطلاقا من مواقف سياسية محددة، ولكني لا أطرح هذه الذكريات لإدانة هذا وتبرئة ذاك، بل لأخذ العِبر من هذه الدروس القاسية للاستفادة منها في بناء المستقبل على أقل تقدير عبر نداء جوهري أطلقه لجميع قوى اليسار: «لا تحتكموا إلى السلاح فجميعكم خاسرون حينها». وقد لفت نظري بشكل خاص أن علي ناصر محمد وجه الاتهام للقيادة السوفييتية أيام غورباتشوف وخاصة كارين بروتنس بلعب دور رئيسي لتوتير الأوضاع ودفعها نحو الصدام بمعنى أن من خرَّب الاتحاد السوفييتي بدأ بتخريب اليمن وقد رد بروتنس على اتهامات علي ناصر ورفضها لكني شخصيا لا أستثني أن يكون علي ناصر صادقا في تصوره على الأقل من خلال طبيعة غورباتشوف والدور الذي لعبه حتى في تخريب بلده. [4]

أخيرا أنا لا أدعي أنني سأقدم لوحة وثائقية شاملة كوني أعتمد على ذاكرتي، لكن جميع ما سيرد فيما وأقدمه هنا صحيح تماما من حيث المحتوى، وقد تجافي ذاكرتي الدقة في التوقيت والأمكنة نسبيا، لكن ذاكرتي السمعية قوية بما يكفي لطرح مضمون حقيقي للأحداث والحوارات والمواقف بحيث يمكن التأكيد على موثوقيتها لا حَرفيتها، وأنوه بأنني كنت أحيانا أخفف من الصياغة دفعا للتوهم بالمبالغة. وما أذكره هنا هو تلخيص مكثف لمجموعة مقالات سبق أن نشرتها قبل سنوات حول علاقتي بتجربة الشعب اليمني لذا يمكن أن تتغير الصياغة قليلا لكن المحتوى واحد مع تكثيف نسبي خاصة إبان طرح تقييمي الخاص لهذه الأحداث، وقد كُتبت عن هذه المقالات دراسة تحليلية ضافية. [5]

البداية مع الشمال

عبد الفتاح اسماعيل وفيدال كاسترو

تعود علاقتي باليمن إلى مرحلة قديمة من خلال معرفتي في دمشق ببعض الطلبة اليمنيين معظمهم من شمال اليمن بداية مرحلة الانتصار على الملكية وتكريس الجمهورية، وأذكر جيدا من أحاديثهم أن اليمن آنذاك كان أقرب إلى أجواء ألف ليلة وليلة في الانعزال والجهل وانتشار الخرافات والانتماء القبلي شبه المطلق، من هنا كانت فرحتنا كبيرة بانتصار الجمهورية، وكنت أردد معهم أغنية فيها هذه الكلمات على ما أذكر «صوت المذيع بكِّر يدق بابي... يعلن على الدنيا على الروابي... شرع السما يا طير وحكمنا النيابي ... (وكنا نرددها شرع الهوى يا طير وحكمنا النيابي)...» [6]، من جهة ثانية يلفت النظر بشكل خاص الطابع الفعلي للصراعات التي تجري غالبا تلبية للمصالح السياسية، الأمر الذي ينسف فكرة أن الصراع الحالي في اليمن له أساسه الطائفي، فقد تعاونت في تلك الفترة السعودية وإيران وباكستان معا لمساعدة الإمام محمد البدر وهو شيعي ليقف بوجه قوات عبد الناصر السني، كان ذلك بحدود عام 1963، وساهم في ذلك حتى المرتزقة الأوربيون بمساعدة إمدادات بريطانية، فيما كان الجنوب يغلي.

على أية حال التقيت بهؤلاء الطلبة اليمنيين أواسط الستينات، وأذكر أن عمر البار كان أقربهم إليّ وهو شاعر متمكن، وقد غدا فيما بعد قاضيا، وكذلك زيد العنسي الوديع جدا، وشاب اسمه على الأرجح عبد الغني كان عاملا فنيا في جريدة البعث في دمشق ثم بعد عودته إلى اليمن أصدر جريدة الشعب في صنعاء، وقد نشر فيها كتحية لذكرى تلك الأيام إحدى قصائدي عن اليمن وأرسل لي نسخة منها في حينه لكني لم أعد أعثر عليها. كان ذلك في النصف الثاني من الستينات على الأرجح، وكان من البديهي أن ينشدَّ انتباهي نحو اليمن الديمقراطي الذي استطاع طرد المستعمرين البريطانيين بعد احتلال دام أكثر من قرن وربع القرن من الزمن.

وكمتابع محب لليمن وتجربته الثورية التي كنت أصفها إبان الحديث عن اليمن الديمقراطي بالشمعة الوحيدة المنيرة في ظلام الليل العربي...ومع ذلك مرت هذه الثورة بطريق شائكة عبر الصراعات، وكان اسم عبد الفتاح إسماعيل قد غدا رمزا كبيرا للثوريين اليساريين ورديفا عربيا لكاسترو وهوشه منه، ورغم ذلك طالته تشظيات الصراعات على السلطة، واضطر إلى مغادرة عدن والعيش في منفى اختياري إجباري في موسكو.

اللقاء مع عبد الفتاح اسماعيل

توطدت مجددا علاقاتي مع الأصدقاء اليمنيين في مبنى سكن الدراسات

العليا في موسكو وتفاعلت مع أخبارهم، ومن البديهي أنني أبديت اهتماما بمصير عبد الفتاح حيث انتشر خبر وجوده في موسكو، وأنه يعيش في ضيافة الحزب الشيوعي السوفييتي في فيلا صغيرة في منطقة الغابة الفضية، وفي السهرات كنت ألتقط أخبار اليمن الديمقراطي من هؤلاء اليمنيين ، وذات يوم جاءني صديق يمني رائع ونقي جدا اسمه عبد الغني وقال لي : «الوالد يود ان يراك» وكان الشباب اليمنيون يطلقون على عبد الفتاح لقب الوالد، طبعا فرحت بالدعوة كثيرا وأبلغني عبد الغني أن عبد الفتاح يتمنى عليَّ بأن أُحضر آخر قصائدي معي وكذلك قارع الطبل الزنجي فأسعدني جدا أنه يتابع نتاجاتي الشعرية.

لدى وصولنا قادنا رجل مربوع القامة ذو وجه بشوش اسمه ناصر كان مرافقا للرئيس عبد الفتاح في موسكو، قادنا عبر ممر وسط أشجار كثيفة إلى فيلا صغيرة وفتح بابها قائلا «الوالد في انتظاركم»، جلسنا في الصالون وبعد ثوان فقط دخل علينا عبد الفتاح بوجه بشوش، وبعد الترحاب البروتوكولي الذي اعتاد عليه رئيس دولة كسر هذا الحاجز على الفور وقال «أنا ألتقي مع شاعر أحبه وليس مع رئيس دولة أخرى لذا لنتجاوز البروتوكولات ولنتحدث ببساطة» وأضاف على الفور «كنت أعتقد أنك أكبر عمرا، على أية حال أنا أعرفك عبر تسجيلات أمسياتك التي كانت تبثها إذاعة عدن بين حين وآخر، ولا أخفي عليك أن لك شعبية حقيقية في اليم.

قلت له «وأنا أعرفك عبر صورة الشعب اليمني الذي استطاع تجاوز عنق الزجاجة « قصدت ما تحدث عنه الفتاح غير مرة حول تجاوز عقدة أن عدن تشبه عنق الزجاجة التي كان بإمكان القوات البريطانية إغلاقها في أية لحظة في وجه الثوار [7] فأجاب على الفور «نحن إذن يعرف واحدنا الآخر».

من اللقاء الأول شعرت أن عبد الفتاح إنسان ألمعي حاضر البديهة، وخلال دقائق كانت هواجس الوطن على طاولة النقاش وكنت مرتبكا بعض الشيء في اختيار الصيغة التي أتوجه بها إليه حين أحدثه في الساعة الأولى مرة سيادة الرئيس ومرة الرفيق الأمين العام أو أيها القائد، وكنت أشعر بتكلف شديد في ذلك، وفجأة قال لي وقد لاحظ ذلك:

- ما اسم ابنك الأكبر؟

- «خالد»

- أي أنت أبو خالد

- نعم

-وأنا أبو صلاح إذن تناديني إما الرفيق فتاح أو أبو صلاح وأنا أناديك الرفيق أيمن أو أبو خالد

وسرعان ما انتقلنا إلى إشكالات اليمن وصراعاته، سألته فيما إذا كنت أستطيع أن أطرح تساؤلاتي وانطباعاتي بصراحة دون إحراج له، فأكد أنه على العكس يود سماع الآراء الصريحة، فبينت له أننا ننظر إلى تجربة اليمن في الاستقلال باعتزاز لكننا نأسف ونتألم لحدوث موجات من الصراعات التي يبدو أنها في الجوهر صراع على السلطة، فقد كنتم موحدين في مرحلة الصراع ضد الاستعمار فلماذا هذه الخلافات التي تنتهي بالدم أحيانا أو بالقطيعة والإبعاد.

تنهد عبد الفتاح وبدأ يشرح بتريث وهدوء، وسرعان ما تحول إلى تحليل مكثف مؤكدا أن الصراعات كانت موجودة حتى إبان النضال ضد الاستعمار البريطاني حسب رؤية هذا الفصيل أو ذاك، وأحيانا يتصرف فصيل حسب رؤاه بما يخالف رأي فصيل آخر تماما، بل وحدثت بعض الصدامات الدامية وخاصة بين الجبهة القومية للتحرير وجبهة التحرير وكلاهما يكرس نضاله لتحرير جنوب اليمن ورغم التقارب أحيانا و حتى الاندماج إلا أن الخلافات اتسعت أحيانا وتحولت إلى صدامات ومع ذلك كانت محدودة ولم تستمر طويلا حيث سيطرت الجبهة القومية تماما على الوضع وأشار إلى أن المفارقة في التسمية بوجود كلمة واحدة (القومية) والواقع أن حركة القوميين العرب كانت نشطة عموما في مختلف البلدان العربية.

لكن الأمر استفحل بالطبع بعد أن أصبحنا دولة لها حزبها الكبير وجيشها وقواها الأمنية– يتابع عبد الفتاح- ، وكان الجميع بهذا الشكل أو ذاك مسيسين، المشكلة أن الأزمة قد تبدأ من خلال التباينات في الرأي، وقد يكون بهذا الحدود مفيدا لإغناء التجربة الديمقراطية لكنه إن استفحل يصبح خطرا على السلطة الوليدة، وعلى حزب يريد بناء مجتمع تقدمي اشتراكي، حيث تتحول التباينات إلى تكتلات ومحاولة للتخلص ممن لديهم رأي مخالف، ومن ثم حصارهم أو تهميشهم وكأنهم خصوم وليسوا رفاقا، وهنا يكمن الخطر ولا بد من تكريس الحوار المبدئي، تكريس الديمقراطية، وأنا أعتقد أن الرئيس «قحطان الشعبي» قد ظُلم أما الرئيس «سالمين» فكان براغماتيا بالمعنى السلبي لهذا المصطلح، وكان مستعدا للتحالف حتى مع أمريكا.

لفت نظري في هذا الحوار الذي استمر عدة ساعات تابعناه إبان تناول العشاء أنه كان يستخدم كلمات من مثل ربما أو على الأرجح وأميل إلى الاعتقاد، وخاصة عندما يقيم هذا الرفيق أو ذاك فقد كان يتحاشى تماما توجيه أية إهانة لأحد.

ثم انتقلنا للشعر والأدب وسألته كيف عرف قصائدي فأوضح لي أن إذاعة عدن لا تزال تبث قصائدي عبر أشرطة التسجيل بين حين وآخر، أسمعته بعض القصائد وأسمعني بعض قصائده التي تعبر عن عشق مذهل للوطن، وكان يسألني بكل تواضع عن رأيي ويصغي باهتمام لبعض ملاحظاتي الطفيفة موافقا.

بدا لي أن عبد الفتاح ليس محاورا رائعا وحسب بل هو مستمع واع ومهذب جدا وكنت أوجه بعض الانتقادات خصيصا لمعرفة ردود فعله وكان يتقبل الانتقاد بصدر رحب... لم يكن عبد الفتاح يتقن بحور الشعر لكنه بحسه المرهف كان يعنى بالموسيقى الداخلية عموما، وبالتالي تبدو قصائده على جسر بين شعر التفعيلة وقصيدة النثر مع استخدام أنيق لتكرار القافية أحيانا والتي سرعان ما تتنوع، لكن صوره جميلة متعددة المصادر ومتأثرة بثقافته السياسية والتزامه بقضايا شعبه، ولهذا يبدو الوطن دائما كحبيبة يخشى عليها:

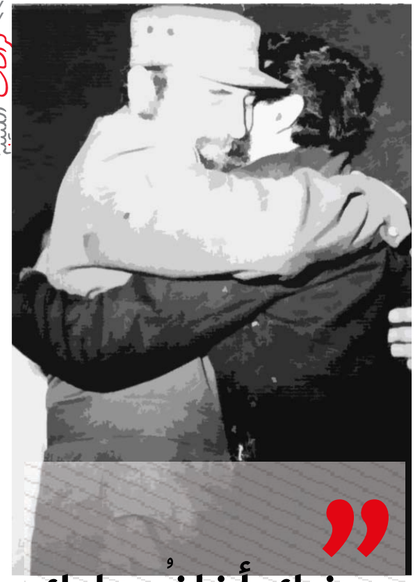

عبد الفتاح اسماعيل
وفيدال كاسترو

ومنك أخافُ عليكِ
وحظي ينازعُ بين يديكِ
لكيلا تصابي
بعدوى بريقِ الغرورِ
فتغمضُ عيناك
والفجرُ يولد -
تقتنعينَ
بداءِ الرضا والسرور
وتنسينَ أنَّك نورُ
الأمل [8]

كـما لاحظـت أنـه يختـصر «بـواو الجماعـة» الآخريـن السـلبيين عمومـا، يقـول في قصيـدة الكتابـة بالسـيف وهـي مطولـة غنيـة بالأفـكار والـرؤى والصـور أسـقطها منـذ البدايـة عـلى عمـرو بـن معـد يكـرب الزبيـدي [9]

"لذا قالوا
بأني داعي
النبـوةِ/ للكفرِ
والبدعـةِ والزندقةُ
لأني لفظتُ سـمو
الطوائـفِ/ مفخرةِ
الابتزازِ/ حيثُ
ترزقُ الآلهةُ من
تشاء/ بغيرِ
حساب/ في
سـفرة المِيمنةْ
وذوبَّتُ أحشاء
روحي/ مع
البسـطاءِ/ غناءً
لشـمعِ البشارةِ/
في جبهةِ
الميسرةْ [10]

ونلاحـظ هنـا أن تقسـيم النـص يعـود إلى طابـع قراءتـه الخاصـة حتـى لـو جـافى السـياق اللغـوي، وأذكـر أننـا تناقشـنا طويـلا حـول قصيدتـه «فكـرت فيـك كثـيرا» حيـث التماهـي بحـب الوطـن حتـى أنـه يشـعر بعيـدا عنـه أنـه بـلا ملامـح وهـذه حالـة سـيطرت عـلى فتـاح في السـنوات الأخـيرة في موسـكو لدرجـة لا توصـف:

الرئيس علي ناصر محمد يعزي بوفاة المناضل احمد محمد الجبواني

"فكرتُ فيك/
احتار فكري /
نظرتُ إليكِ/
غريبا نظرتُ
لذاتي/ التفتُّ،
فيكِ لمحتُ
غرابةَ أمريَ
أدركتُ أنّي
بدونـكِ لا وجهَ لي
حدّقْت فيك/
رسـمتُك/ تغيَّر
شكلي /
أصبحَ وجهُكِ
وجهي
كيف ألامِسك
أداعبُ جواهرَ
جسمِكِ/ كيف
يغادرُني شـجَني
[11]

ويسـتبد بـه الشـوق والتماهـي إلى درجـة الحلـول وتحمـل العـذاب حتـى ليغـدو شـهيا مـن أجـل الحبيبـة الوطـن:

"تحسَّسـتُ جرحك...
بدونِك لا لونَ
لي... وحزنيَ
حزنُكِ
بدونِـكِ لا وجهَ لي
... وفرحي فرحُكِ
بدونك لا اسـمَ لي
خريطةُ جسـمِكِ
فرحِك وحزنِكِ
ثـوبٌ مُفصَّل عليّ
[12]

اللقاءات تكررت والحوارات توسعت

يلفت النظر أن مسألة تماهي عبد الفتاح بقصائده مع الحبيبة الوطن قد تنبه ونبه إليه الشاعر أدونيس في المقدمة الصغيرة الي كتبها للمجموعة حيث يقول» أدعو القارئ إلى أن يقرأ هذه النصوص بوصفها إضاءة لجوانب حميمة من حياة عبد الفتاح إسماعيل، وبوصفها تمثل بعدا آخر من أبعاد كتابته يقوم على المقاربة الفنية الرمزية لأشياء الواقع ومشكلاته [13]، وقد بدا لي من خلال متابعة قصائد فتاح في كل جلسة أن كتاباته الشعرية موزعة بين الحوار الفلسفي العميق مع الآخرين ومناجاة الحبيبة الوطن التي تحولت إلى هاجس في سنواته الأخيرة في موسكو، وكنت أضطر أحيانا لتخفيف حالته الوجدانية الملتهبة هذه إلى تغيير الموضوع وتوجيه الحديث نحو تجارب أخرى. وحين حدثته عن كوبا ومشاركتي الجميلة بمهرجان الشباب العالمي أثرت شجونا عميقة فحكى لي عن تجربته المميزة مع كوبا التي يستحق شعبها حسب تعبيره وسام المجد، وعن صداقته الحميمة مع فيديل كاسترو الذي كان يعتبره رمزا نضاليا وفيا وصادقا ونقيا كالمطر، وقد أسمعني قصيدة أذكر أن مطلعها كان على النحو التالي: « فوق سماء الأطلنطي» ورغم أنها قصيدة قصيرة فقد كان يغمض عينيه أحيانا وكأنه يستعيد شريط ذكرياته في هافانا. [14]

حين ناقشنا مسألة بناء المجتمع المعاصر توقفنا عند واقع الشعب اليمني وركز على ضرورة الانتقال الواعي وعدم حرق المراحل مركزا على ضرورة السير أحيانا بخطوتين إلى الأمام لتحقيق نتائج خطوة واحدة وأن من لا يعرف خصوصيات شعبه لا يستطيع التقدم به ومعه كثيرا، لكن ما استوقفني في هذه الجلسة حالة الحزن العميق الذي يسيطر عليه، أكد لي إبان وداعه لنا ضرورة تكرار ليس الزيارة بل الزيارات فقلت «سنأتي كل أسبوعين» فرد عبد الفتاح «خليها كل أسبوع».

تكررت الزيارات والحوارات واتسعت مناقشاتنا لأمور الشعر وذات يوم جئته قبل الموعد بحوالي ساعة فاستقبلتني ابنته إصلاح واعتذرت أن الوالد مشغول حاليا وحين حاولت الاعتذار والذهاب للعودة في الموعد، فأكدت أنه طلب ألا أغادر بل أن أنتظر ريثما يودع ضيوفه.

قامت إصلاح بواجبات الضيافة وابتدعت حوارا لكي لا أشعر بالملل ولفت نظري أنها مطلعة بشكل جيد وحين سألتها هل تقرأين كثيرا أجابت الكتب لا تغني عن دروس الحياة وحين جاء عبد الفتاح بعد ذلك وتبين لي أن هناك علاقة أسروية جميلة واعية جدا وعبر عن اشتياقه لأولاده (لدى عبد الفتاح سبعة أولاد خمسة بنات هن آسيا، إصلاح، عايدة، وفاء، وئام، وشابان هما صلاح وعمد)

سألته هل أجبرت على المغادرة فأوضح أنه اختار ذلك طوعا وبقناعة حتى لا يحدث صدام مسلح وتراق الدماء وتتمزق التجربة والوطن [15]، وعبّر عن قناعته بأن قيادة الحزب الشيوعي اللبناني لعبت دورا في ذلك وخاصة جورج حاوي لتشجيع فكرة الرحيل لحل الإشكال، لم يوضح لي هل كان دور قيادة الحزب الشيوعي اللبناني سلبيا أم إيجابيا، لكنه أشار إلى أن قيادة الحزب الشيوعي اللبناني كانت أقرب إلى علي ناصر وكانت تؤيد سفره هو إلى موسكو كحل لتهدئة الأوضاع.

تناقشنا حول هذا الأمر طويلا وكان محورا في قصيدتي في رثائه فيما بعد في إظهار موقفه هذا بالدرجة الرئيسية:

> أدركنا اليومَ
> بمرآةِ الجرحِ
> قداسةَ نُبلِكَ
> يومَ رفضتَ إراقةَ
> قطرةِ عطرٍ
> من ياقوتِ وريدِ
> الثورةِ إذ آل
> يتَرحيلْ [16]

وأوضح لي أن الخلاف تصاعد لعدم فهم جوهر الالتزام بالقرارات التي يمكن لأي رفيق أن يناقشها وينتقدها ولكن إن أقرت فعلى الجميع الالتزام بها، فالحوار بين الرفاق يجب أن يقود إلى التفاهم أما التشبث الأعمى فيقود إلى التناحر والخراب، أي إلى حرب أهلية، لذا فضلت السفر لمنع ذلك، فأوضحت من جانبي أن التجربة بحاجة إلى قيادتها كلها وتصفية القيادات في كل مرحلة أو خلاف سيضعف التجربة، وقد يقودها إلى الفشل أجاب نعم ولكن كيف نثبت للناس أننا قادرون على حل خلافاتهم إن كنا لا نحل خلافاتنا بين أنفسنا فتساءلت فيما إذا كانت المشكلة في من سيكون رئيسا، فاستشهد بأروى بنت أحمد التي حكمت اليمن [17] ووحدت قبائله قبل نحو من ألف عام، فالمهم إذن ليس من سيقود بل كيف سيقود أي نشتغل من أجل الناس لا أن نشتغل ضد بعضنا البعض. (وقد استخدمت أروى في هيئة طفلة مرشدة لمسار تجربة اليمن من خلال قصيدتي في رثائه للعشق حدائق لا تروى إلا بنزيف يا أروى).

ثم سألته فيما إذا كانت المشكلة تنحصر في علي عنتر، فأوضح أن علي عنتر انفعالي ولكنه إنسان طيب ونقي، ولا بد سيرجع إلى ضميره، وأن المشكلة في التوتر الذي يتحول إلى تشنج ثم تظهر الشائعات التي تغدو كالزيت الذي يصب على النار.

استوقفتني فكرة بالغة الأهمية في توضيحه حين قال البلد الذي لا يوجد فيه متنفسات ثقافية وفنية وسياحية وترفيهية كافية ينشغل بها ويتمتع سيتسلى الناس فيه بالإشاعات، وأن الثقافة الثورية في اليمن وليدة جدا وتحتاج إلى تفاهم لا تناحر، فرواسب التخلف والقبلية ما زالت سائدة.

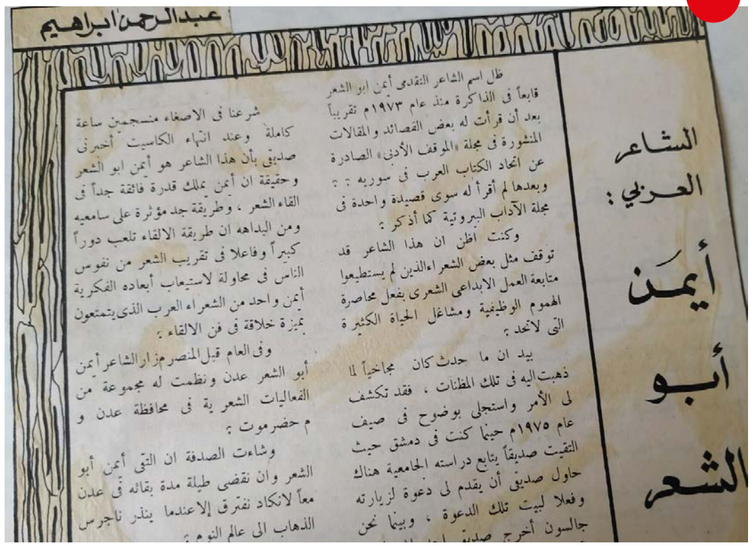

حولت الحوار نحو الشعر فأسمعني قصيدة شعبية له قرأها بنوع من الحضور الصوفي كانت بدايتها بكرت غبش عاد الصباح ما هنش [18] وكان فيها بعض الكلمات غير المفهومة بالنسبة لي وقد فسرها لي ناهيك عن استخدام حرف الشين للنفي كالمصريين.

الشيء الهام الذي أذكره جيدا هو أن عبد الفتاح لم يصف أيا من الرفاق ولا لمرة واحدة بأية صفات سيئة، أو يتلفظ بشتيمة بل كان يقيّم بموضوعية وأحيانا يحاول خلق الأعذار وهذا يعني أنه كان لا يزال يطمح إلى المصالحة والتفاهم، ورغم تعمق صداقتي مع عبد الفتاح إلا أن ما كان يهمني بالدرجة الرئيسية هو التجربة الثورية في اليمن لذا كنت أتمسك بالموضوعية حتى لا أصبح طرفا في الصراع وبت أشعر أن عليّ محاولة تقريب وجهات النظر قدر الإمكان.

اللقاء مع الرئيس علي ناصر موقف فتاح

ذات يوم اتصل بي السفير اليمني في موسكو وأعتقد أن اسمه الدكتور عبد الله باكير وأبلغني أن الرئيس علي ناصر وصل إلى موسكو ويرغب برؤيتي في جلسة في حرم السفارة، كان اللقاء لطيفا وقد دعا إلى الجلسة أيضا الشاعر المصري عبد الرحمن الخميسي، وأثناء الجلسة طلب أن ألقي مقاطع من الحلم في الزنانة السابعة وقارع الطبل الزنجي فاعتذرت متعللا بضعف الذاكرة، فقال سأحضر الشريط إنه معي في السيارة.

كان علي ناصر لطيفا ومتحدثا واعيا وكان واضحا بالنسبة لي أن عبارته «الشريط في السيارة عندي» هي على الأغلب لتبيان الاهتمام والتشجيع على الإلقاء، ورغبت في تعميق العلاقة معه علي أستطيع المساهمة في رأب الصدع، وعند انتهاء الجلسة ومغادرة علي ناصر السفارة صافحني بحرارة وقال ننتظرك في عدن، فرحبت بالفكرة. ولم تمض سوى أسابيع حتى أبلغني السفير بأن دعوة قد وجهت لي لزيارة اليمن.

نقلت بصورة عامة أجواء اللقاء مع علي ناصر إلى عبد الفتاح وقلت له بصراحة أنه ترك انطباعا إيجابيا لدي، وأنني أعتقد أن متابعة الدرب معا مفيد جدا للتجربة اليمنية، وفوجئت بأنه أثنى على حيويته، كنت أعتقد أن القطيعة نهائية والخصومة عميقة جدا لكن موقفه كان إيجابيا على وجه العموم من حديثي الإيجابي عن علي ناصر وتزايدت قناعاتي بضرورة

علي ناصر وأيمن أبو الشعر

تقريب وجهات النظر ولكنه نصحني بألا أحاول فتح مثل هذه الحوارات مع الرئيس علي ناصر إذ ربما أفسدُ الزيارة بذلك، وسيظنون أنني أنفذ توصية من فتاح، وركز على أهمية التعرف إلى الشعب اليمني ليس في عدن وحدها مؤكدا أن قسما كبيرا من هذا الشعب يحب قصائد أيمن وهو يستحق أن تكون له مكانته في شعره.

والحقيقة أنني توقعت أن يوصيني عبد الفتاح ببعض الأمور كنقل رسائل شفوية خاصة أن الأوضاع كانت تغلي في قواعد الحزب وكوادره، وكنت أخشى ذلك إذ لا أستطيع أن ألعب دورا قد يفسر بأنه التفاف على من دعاني باهتمام، أسمعته قصيدة عصية عدن فابتهج بها كثيرا، وخاصة حديثي عن القبائل آملا أن تتاح لي الفرصة لزيارة الشمال أيضا.

ابتهج جدا بإحدى صور القصيدة التي أشبه فيها اليمن بفتاة تنساب ضفيرتان على صدرها وراح يرددها:

> لِمَنْ فرقتِ شعرَكِ الرطيبَ يا يَمن
> ضفيرةً صنعاءْ وضفيرةً عدن [19]

وختم بقوله مودعا «لا تنس أن الحكمة يمنية».

لقاءات عدن

كان الاستقبال في عدن جميلا جدا، وفوجئت في أمسية خور مكسر بأعداد هائلة من الناس تملأ القاعة الضخمة، وقد رافقني طيلة الزيارة الشاعر المبدع عبد الرحمن إبراهيم وهو شاعر متمكن يمتاز بموسيقاه العذبة وصوره المجنحة، ولا أزال أذكر مطلع قصيدة له أسمعني إياها في إحدى السهرات «شجر حبيبي وأنا شجر، وأنا الذي أحرجت زوبعة وشيدني القمر» [20] وكان بعض الشباب يقتربون مني ويسألون عن كيفية الحصول على القصائد ويهمسون «كيف الوالد؟ هل تقابله؟ في السهرات مع المثقفين كان بعض الرفاق يطرح بشجاعة ضرورة عودة فتاح بمن في ذلك بعض كبار المسؤولين، وكنت أجيب عسى خيرا هذا شأنكم وأنا أتمنى للشعب اليمني التوفيق وتعميق الوحدة، وكنت أتذكر نصائح فتاح بعدم الخوض في هذه الأحاديث التي قد تفتح باب التوتر الذي يصعب إغلاقه عدا عن أنني بالفعل أتمنى أن يتاح لي أن أساهم ولو قليلا في رأب الصدع.

في اليوم الثاني للأمسية دعاني الرئيس علي ناصر إلى الغداء في القصر الجمهوري [21] وقد اهتم بي مشكورا اهتماما كبيرا، وكان وديا وحبورا ومحاورا ذكيا، ونوهت له بأنني أرغب بأن ترتب لي أمسيات في المحافظات الأخرى، فأوعز لتحقيق ذلك على الفور، وبعد حين قلت له أن مدير الإذاعة [22] أخبرني أنه قد يضطر إلى حذف أحد مقاطع القصيدة أثناء بث تسجيلها، فهناك رمزية سياسية قد تشكل إحراجا مع إحدى الدول الجارة فما كان من علي ناصر إلا أن اتصل بمدير الإذاعة وطلب منه أن يبث القصيدة كاملة عبر الإذاعة ما يدل على انه عملي جدا وصاحب قرار حتى في مثل هذه الشؤون الإدارية العادية.

في مناسبة أخرى (أعتقد في زيارة أخرى عام 1983) قمت بتقديم مسرحيتي الأرنب الذئبي في عدن

وأخرجتها بنفسي حيث قام بتمثيلها شباب موهوبون [23] وقد حضرها الرئيس علي ناصر محمد ومعظم أعضاء المكتب السياسي والقيادة اليمنية ما يدل على أنه كان إلى جانب وديته ولطافته مهتما حقا ومتفاعلا وعمليا وحريصا على متابعة هذه النتاجات رغم أنه على الأرجح يعلم بصداقتي بعبد الفتاح لكنه كان يعرف أيضا أنني لست طرفا، وأنني صادق في تفاعلي مع التجربة اليمنية على وجه العموم.

لم تتح الفرصة لحديث صريح حول الصراعات الداخلية بشكل مباشر لكني بشكل عام نقلت له تمنياتي بأن يتجاوز الشعب اليمني الصعاب والمحن التي تعترض طريقه، ويوحد جميع قواه وكوادره لبناء عالم أفضل، ومن الواضح أنه فهم الرسالة خاصة أنها واضحة النقاء، ولفت نظري بشكل خاص آنذاك عضو المكتب السياسي أبو بكر باذيب الذي كان بحواراته ومناقشاته ينم عن عقل نير وثقافة كبيرة ويوحي بالثقة والمسؤولية.

إبان الحوار مع أحد القياديين وأعتقد أنه في اللجنة المركزية أو المكتب السياسي ممن لا يخفون تأييده لفتاح أوضح لي أنه كان مفيدا أنني لم أتطرق إلى موضوع تعاون الرئيس علي ناصر وعبد الفتاح كقائد ومفكر بشكل مباشر، ونوه بأن الكلمات الودية والابتسامات قد لا تعني شيئا إبان اتخاذ القرارات الحاسمة، وطلب مني أن أنقل لفتاح أن الحزب سيفعل كل ما يستطيع لعودته، فأجبته أن فتاح حتما يعرف ذلك وأنا صادق في أمنياتي بتجاوز هذه الصراعات. والحقيقة أن حواراتي ولقائي مع علي ناصر ترك انطباعا جميلا عنه

علي ناصر محمد

مما كرس قناعاتي بضرورة الوصول إلى رأب الصدع فلكي تمخر السفينة عباب الماء لا بد من مجدافين قويين من الجانبين وليس من جانب واحد.

وفي المحافظات الأخرى كان التفاعل جميلا وشفافا ومما علق في ذاكرتي عن مدى إخلاص الشعب اليمني والتزامه حين تكون القيادات واعية أن وزير الثقافة دعاني مع بعض الأدباء إلى رحلة إلى محافظة داخلية، وانطلقنا في سيارتين لمسافة غير قصيرة وكانت رحلة جميلة رافقها الشعر إذ كان وزير الثقافة شاعرا متمكنا، وله أسلوبه المميز، واضطررنا أثناء العودة لتغيير مسارنا نتيجة سيول قطعت الطريق العام وحين وصلنا إلى مدخل عدن كان هناك حاجز عسكري، وكان ممنوعا في ذاك اليوم مضغ القات تحت طائلة المسؤولية، فتوقفت السيارتان للتفتيش الشكلي فقال مضيفي للعسكري معك وزير الثقافة، فما كان من العسكري إلا أن أخذ التحية له كمسؤول كبير في الحكومة وأشار لزميله أن يرفع الحاجز، وفجأة طلب من السائق التوقف وقال للوزير باستهجان «تخزن»؟ [24] ألم تسمع بقرار منع تناول القات في هذا اليوم؟ فشعر الوزير بالإحراج وقال له أنت محق ورمى، القات من فمه.

شعرت بسعادة كبيرة إذ هكذا يجب أن تكون الأمور الجميع سواسية أمام القانون وشعرت باحترام كبير تجاه هذا الوزير الذي أثبت أنه إنسان راق إلى جانب كونه شاعرا. [25]

فتاح يتهيأ للعودة

إثر عودتي إلى موسكو نقلت مجمل انطباعاتي لعبد الفتاح منوها بأن قناعتي ازدادت بضرورة رأب الصدع، وأنه هام جدا أن تعمل جميع المجاديف القادرة على دفع السفينة للأمام، فوافق من حيث المبدأ مشيرا إلى أنه سيعمل بهذا الاتجاه، ومرت شهور عديدة.

ذات يوم كان في زيارتي عضو المكتب السياسي المسؤول عن المثقفين في الحزب الشيوعي السوري الدكتور نبيه رشيدات، وأثناء الحديث تطرقنا إلى قصة عبد الفتاح إسماعيل فعبر عن رغبة شديدة في رؤيته سارعت للاتصال بعبد الفتاح فأخبرني أنه مستعد للقدوم وهو يرغب أيضا بلقاء الدكتور نبيه «أبو عمر» [26] لم يصدق أبو عمر في البداية أن عبد الفتاح سيأتي بنفسه إلى مبنى سكن الطلبة، وقد جاء فعلا، ما يهمني ذكره هنا هو أن الدكتور نبيه أراد أن يحيي عبد الفتاح فقال أرفع نخب البطل الذي حرر باب المندب فرد عبد الفتاح على الفور إذن نخب الشعب اليمني، فهو الذي حرر باب المندب، وأسمعته على العود قصيدة باللهجة الشعبية تحكي عن الشوق للوطن كنت قد كتبتها بعد سماعي لقصيدة فتاح تاج النهار باللهجة العامية ما يعني أنها أثرت في كثيرا:

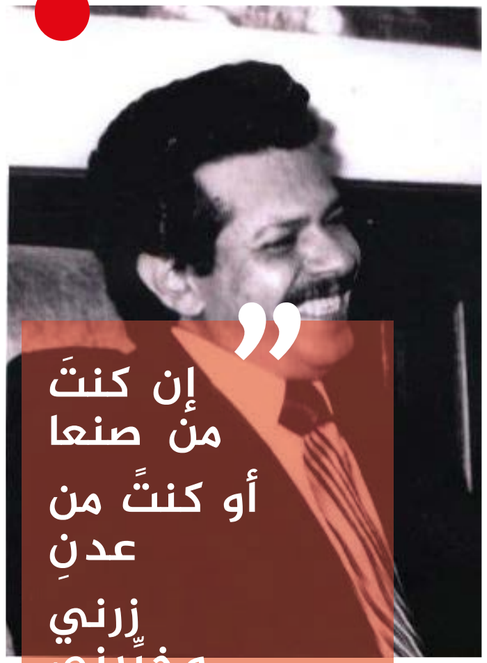

> إن كنتَ من صنعا أو كنتً من عدنِ
> زرني وخبِّرني عن بسمةِ اليمنِ
> طالَ الفراقُ بنا والعمر لم يهنِ
> بسولها يرعى لكأنَّ في بدني [27]

مقطع من قصيدة يتقمص فيها الشاعر أيمن أبو الشعر مشاعر عبد الفتاح وقد تحولت إلى أغنية

كانت حوارات رائعة تابعناها بعد أيام بزيارة لعبد الفتاح أنا والدكتور نبيه والشاعر الفلسطيني سالم جبران.

ازدادت الأمور تعقيدا في عدن، وبدا أن الجناح الذي يريد عودة عبد الفتاح تزايدت قواه كثيرا، وبات يطرح الأمور علنا، وبدأ فتاح يعبر عن قلقه من احتمال أن تتحول الخلافات إلى مواجهات، وكانت أقصى أمنياتي ألا تحدث صدامات بين الفرقاء خاصة أن لدي أصدقاء رائعين من الطرفين، وربما عايشت هذا التوجس نتيجة تصاعد التوتر إلى درجة كبيرة، توتر وخصومات تناحرية بين الرفاق ما ولد قصيدة صلاة التي تترجم في العمق تلك الحالة الرهيبة والتفاني في سبيل الوطن والرغبة في التعايش وبنفس الوقت ظهور بوادر النقيض:

”

وتسـألُني عن صراعِ المرايا
طحالـبُ تنمو وتشـتدُّ صخراً وصخرُ يعا نق
طبـعَ الرخاوةِ مدٌّ وجزرُ
يراهزُ رملاً ويخلقُ سـاحلْ
ومـا كانَ بحري شـهيداً ولكنْ تأبّى
فمـا البحرُ قاتلْ
ولكنني في انشـطارِ الظلالِ بأفقِ السرايَا
تسـاءلتُ عشقاً صلاةً
إلى أيـنَ تمضي خطايا؟
أنا ما هجرتُ الشـواطي
تضاريسُـها أينعتْ في احتراقِ الخلايَا
وكلُّ الوجوهِ التـي بادلتْني انعكاسُ الشـعاعِ
ووهجَ الشـراعِ... هنا لم تزلْ فيَ فؤاديَ نبضاً
ودفئاً يزهِّرُ بيـن الحنايا
فكيـفَ اسـتحالتْ خصوماً مرايا
مرايا [28]

عبد الفتاح اسماعيل

لفت نظري في هذه الفترة أن مقر إقامة عبد الفتاح في الغابة الفضية بات مزارا للطلبة والزائرين لموسكو بدون تخف أو خشية، وذات يوم وكنت في زيارته قال لي:

- هل تنفذ لي رجاء لأمر هام

فقلت له: بالطبع حتى وإن لم يكن هاما

فسألني:

- هل تعرف الرفيق زكي بركات [29]

قلت له:

- نعم،

فقال:

- نعم إنه راجح العقل

ثم رجاني أن أذهب مع السائق وأحضره فلن يعرف القدوم وحده، ولا يستطيع إرسال السيارة إلى الفندق خشية الاحراج، وهو يود لقائه، وبأنّ الرفيق زكي في الشارع قرب مسرح البلشوي في مركز موسكو، أدركت عندها أنّ المهمة مستحيلة فالمكان كبير جدا، وبالفعل لم أتمكن من العثور عليه، وكان الجو صقيعيا فعدت خالي الوفاض، ولفت نظري أن فتاح كان متأثرا جدا خشية أن يصاب الرفيق «زكي» بالبرد ويمرض، وكان يعاتب نفسه بشدة.

في الزيارات اللاحقة توضح لي أن فكرة العودة باتت جدية تماما فحذرته وعبرت عن مخاوفي حتى أنني قصدت أن احرجه فنوهت بأن السلطة لا تستحق التضحية بالحياة، فأكد لي بنبرة صادقة أنه لا يطمح للسلطة وإلا لما غادر، ولكنه يلبي رغبة أعداد كبيرة من الرفاق الذين قد حسموا أمرهم وسيتخذون قرارا من الحزب بعودته فكيف يخذلهم، فذكرته بأنه قال لي أن من بين سلبياته أنه يترك الأمور للحوار، ولا يكون شديد الحزم بل يتوخى الاقناع، فتساءلت لماذا الحزم الآن، فقص عليّ قصة السفارة العراقية في عدن، وكيف يجب أن يكون القائد حازما جدا إن كان الأمر يمس كرامة الوطن في بعض الأحيان، حيث ساهمت السفارة العراقية باغتيال أحد المناضلين العراقيين في عدن، وتردد الرفاق في مسألة اقتحام السفارة لكنه أصر بحزم، وحسم الأمر لأن في التغاضي إهانة لسيادة وكرامة الوطن كما قال.

ذات يـوم اتصـل بي فتـاح [30] وطلـب منـي الحضـور عـلى الفـور فانتابنـي القلـق، وقلـت لـه إننـي أعـد مأدبـة عشـاء لعـدد مـن الأدبـاء والشـعراء السـوفييت، فكيـف أتركهـم فقـال دون تـردد ضيوفـك ضيـوفي أحضرهـم معـك مهـما كان عددهـم، ورحـب الجميـع بالفكـرة خاصـة بعـد أن علمـوا أن فتـاح ليـس رئيسـا سـابقا وحسـب بـل وشـاعرا أيضـا، وحـضر معـي آنـذاك إيغـور إيسـايف سـكرتير اتحـاد الكتـاب وأناتوليسـافرونوف رئيـس تحريـر مجلـة أغانيـوك ومجلـة آسـيا وإفريقيـا، والشـاعر إيغـر لابـن، والكاتـب المسرحي فالـودا كاسـما تشيفسـكي، والشـاعرة الجورجيـة مزيـا خيتاغـوري وابنتهـا، كانـت سـهرة مشـهودة حقـا وذكرتـه بأنـه يرتكـب الإثـم الـذي سـمعته عنـه كتهمـة وهـو تواصلـه مـع المبدعـين.

اسـتمع فتـاح إلى الجميـع وأنـا أترجـم لـه، ثـم عاتبنـي لأننـي لم أعرفـه عليهـم مـن قبـل، وتحـدث باختصـار مكثـف عـن فلسـفة الحيـاة، وكيـف يصبح اليساري مهووسا بقضية بناء الغـد الأفضـل لشـعبه، وختـم قائـلا أنـه يعـز عليـه أن يكـون لقـاؤه الأول معهـم هـو توديـع في الآن نفسـه وقـرأ قصيـدة معـبرة:

علي سالم البيض وحيدر ابو بكر العطاس

”

بروعةِ سحرِ الشروقْ
وفتنةِ جمالِ الغروبْ
لقلبـك لحنُ الغزلْ
...
فيـزرعُ حبَّكِ بين الضلوعْ
ويزهـرُ قلبي الولوعْ
فمنكِ نما
وفيكِ اكتملْ
...فأغلى الأماني
وأحلى الأغاني
أن أحقـقَ فيكِ كل الأملْ [31]

قلت لفتاح:

-مسافر إذن ؟

- نعم أخيرا إلى الوطن

-فـرح لأجلـك وخائـف عليـك ليتنـي أسـتطيع منـع سـفرك هـذا

- أتمنـع عاشـق عـن لقـاء حبيبتـه؟ لم أعـد أطيـق الفـراق يـا رفيقـي، ثـم إن الأمـر تنفيـذ لقـرار حـزبي

كنـت أرى فتـاح يضحـك مـن قلبـه لأول مـرة وكان بريـق أسـطوري يشـع مـن عيونـه وتابعنـا قـراءة الشـعر، وكان يـشرد أحيانـا فـأدرك أنـه بـات يطـوف أرجـاء اليمـن رغـم أنه بيننـا، غـادر الأدباء السـوفييت وبقيـت قليـلا وأعطيتـه قصيـدة «فتقدمـي دمـي» فعـرف على الفـور أنهـا عنـه، قرأهـا بإمعـان، وكـرّر عبارتهـا الأخـيرة مرتـين «ليـكاد قلبي أن يغـادر أضلعـه» ثـم قـال كأنـك تسـكن بداخـلي وتـرى مكنـون روحـي.

”

أوكلَّمـا قدمتُ قلبي
شـارةً تُهدي السبيل
للقادميـنَ بلا دليلْ
ظنوهُ قنبلةً وشـرياني الفتيل
يتوغلـونَ بمن أحبُّ لعلَّ أنسى
في قلب قلبـي يعبُر الدربُ
فمهما حاولـوا أن يُبعِدوها
عن مرادي
أوغلوها في فؤادي
في كلِّ خطـوٍ باعدوها
باعـدوا عنّي ابتعادي
فتمازجَـتْ في العمقِ أنفاسـي وآفاقُ لهَا
هيهـاتَ أن تجدوا حدوداً في التَماهي
بين آهاتي وهبّاتِ النسـيمِ
على بلادي [32]

عودة فتاح إلى عدن ووقوع الكارثة

لم يأخـذ فتـاح بنصيحتـي وسـافر إلى الوطـن لتبدأ مرحلـة جديـدة مـن تاريـخ هـذه الشـخصية الفريـدة، وصفحـة نوعيـة أخـرى في تاريـخ اليمـن، وبـات بعـض الرفـاق يـزودوني بمجمـل الأخبـار عـن الأوضـاع فقـد كنـت أخـشى لا عـلى عبـد الفتـاح وحـده بـل عـلى مجمـل هـذه التجربـة الثوريـة المميـزة، ومـرت الشـهور الأولى بسـلام ولكـن بنشـاط متصاعـد.

عـاد فتـاح إلى الحـزب بقـوة ووصـل إلى المكتـب السـياسي مـن جديـد، ووصلتنـي منـه عـدة رسـائل شـفهية مـع رفيـق اسـمه عبـد الإلـه بمـا في ذلـك سـؤاله فيـما إذا كنـت سـأوافق عـلى العمـل في اليمـن في المجـال الثقـافي، فهنـاك العديـد مـن المبدعـين التقدميـين العـرب لكنـي اعتـذرت، وارتحـت لبدايـة عـودة التفاهـم بـين الرفـاق، وعقـدت الآمـال عـلى تعـاون وثيـق بـين عبـد الفتـاح وعـلي نـاصر ولـو تدريجيـا.

لكـن فجـأة، وكأنمـا تخمـرت القنبلـة في غفلـة مـن الزمـن حدثـت الكارثـة بدايـة في اجتـماع القيـادة، ومـن ثـم في الصدامـات المبـاشرة في الشـوارع حيـث قـام أحـد الحـراس بفتـح نـار رشاشـه عـلى أعضـاء المكتـب السـياسي الذيـن كانـوا ينتظـرون عـلي نـاصر فقتـل عـلى الفـور عـلي عنـتر وتمكـن عـلي سـالم البيـض والباقـون مـن سـحب مسدسـاتهم وإطـلاق النـار باتجـاه الحـرس، واتسـعت دائـرة الصدامـات، وتذكـرت وأنـا في حالـة حـزن عميـق وجـزع حقيقـي حـواراتي مـع عبـد الفتـاح حـول الخواتيـم المرعبـة،

وقناعاته بالحوار الديمقراطي وحول قناعاته بأن السلطة مجرد وسيلة لتحقيق النهج الاستراتيجي وأهداف الثورة حتى أنه كان قد وصف السلطة في أحد حواراتنا بالحصان الجامح الذي لابد أن تقوده بعنان نحو الأهداف السامية، أو يقودك نحو التهلكة.

ورغم أن فريق عبد الفتاح هو الذي انتصر لكن زوبعة الدم هذه شكلت جرحا عميقا للشعب اليمني، وأساءت دون شك للتجربة اليمنية، وتجربة اليسار عموما كنموذج متصارع على السلطة، واستشهد عبد الفتاح إسماعيل وقيل أنه احترق داخل مصفحة تعرضت لكمين أثناء نقلها له، وفقدت اليمن عددا كبيرا من كوادرها هنا وهناك للأسف، وخسر الشعب اليمني، ممّا يطرح سؤالا فلسفيا نفسيا: هل يستحق الوصول إلى السلطة او التمسك بها كل هذا الدم؟

أقيم في موسكو حفل تأبين ضخم ألقيت فيه قصيدة رثاء مطولة وهي «للعشق حدائق لا تروى إلا بنزيف يا أروى» [33]

اللقاء مع الرئيس علي سالم البيض

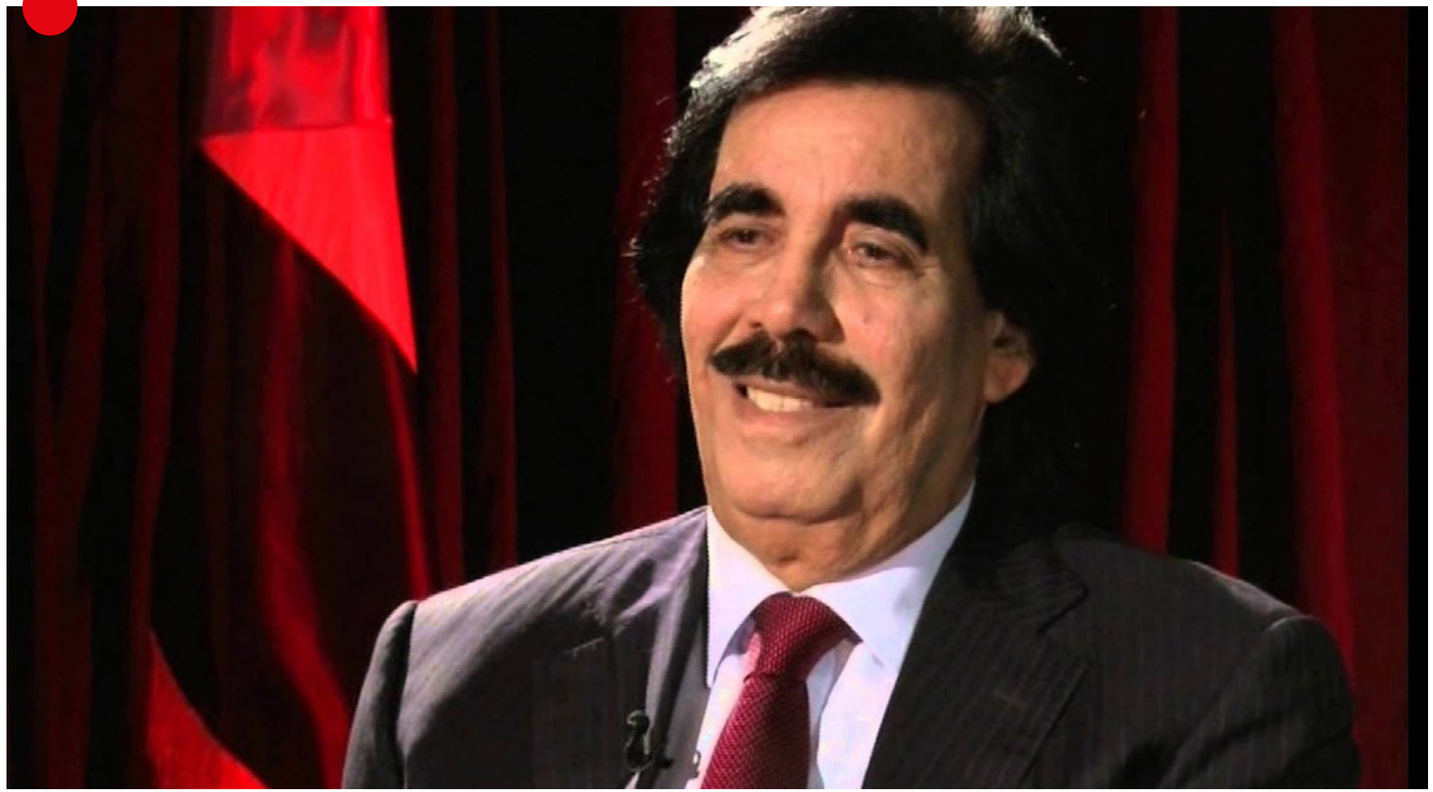

بعد مدّة قصيرة جاءتني دعوة جديدة لزيارة عدن، وكان قد استلم رئاسة الحزب والدولة علي سالم البيض، وبدأ اليمن الديمقراطي يستعيد عافيته بالتدريج نسبيا، لكن الحزن ظل يخيم على أجوائه، وأول ما فعلته هو أنني زرت بيت عبد الفتاح إسماعيل، وكان جانبا منه مخربا نسبيا وآثار الحريق لا تزال واضحة حيث تم قصفه من سفن البحرية إبان الصدامات الدامية.

استقبلني معانقا ناصر الذي كان مرافقه في موسكو، وغدا مسؤولا عن منزله، وأخبرني أن الصور احترقت، وبكى قائلا كان الوالد يتمنى أن تزوره هنا، كان يود أن تهدأ الأمور كي يرسل لك الدعوة ليس كصديق له وحده بل كصديق للشعب اليمني، قلت للصديق النشيط جدا صالح شايف [34] الذي كان معي: لي رجاء عندك، قال: تفضل من عيوني، فقلت له أليس لديكم فرقة موسيقية قال: بلى، قلت له: من هنا إلى البحر سيرا على الأقدام حوالي عشر دقائق أرجو أن تحمل مجموعة من الشباب والفتيات الورود ويسيرون في مقدمة الفرقة إلى البحر ويرموا الورود في البحر الذي كان يعشقه فتاح كتحية لذكراه، ولأن القذائف التي أحرقت بيته جاءت من البحر، وهو عادة يواجه الخصومة والعداء بالود.

وهذا ما كان فعلا في صباح اليوم التالي، ثم رافقتني مجموعة من بنات عبد الفتاح إلى نشاط فني في أحد الملاعب وهن يستفسرن عن كل لقاء مع والدهم في موسكو و لم يكن معنا صلاح وعمد وآسيا.[35]

في برنامجي لليوم الثاني بعد احتفالية رمي الورود في البحر مع الموسيقى تناولت الغداء في القصر الجمهوري بدعوة من الرئيس علي سالم البيض، وكان في اللقاء مجموعة من خيرة كوادر الحزب، وتلا الغداء جلسة مطولة في «المقيل» شاركتهم فيها «بالتخزين»، وكانت الجلسة شعبية على الأرض فوق فرشات صغيرة ومساند ومثل هذه الصالونات للضيوف تسمى المقيل عادة ربما لأنها تبدأ بعد الغداء حيث وقت القيلولة، وقد لبست المئزر اليمني وأجلسني علي سالم البيض بجانبه وحرص على قطف الفنن الصغيرة وتقديمها لي إمعانا في إكرام الضيف، ولكن للحقيقة أنها نشطتني ولم تعط أي مفعول تخديري.

كانت جلسة ودية بدأت بمضغ القات وتخزينه في القم قرابة ساعة من الزمن، وبعد ذلك بدأ الحوار يشد مواضيعه إلى أن وصلنا إلى يوم محاولة تصفية المكتب السياسي في عدن، فأوضح لي الرئيس علي سالم البيض بأنهم كانوا مطمئنين لأن سيارة علي ناصر محمد كانت موجودة غير بعيد عن مدخل البناء، بمعنى أنه سيظهر خلال دقائق، وكانوا يتحدثون بشكل طبيعي وعفوي عن برنامج الجلسة، وما يمكن أن يناقشوه حتى أنهم لم ينتبهوا لعدم وجود أي رفيق من جماعة علي ناصر على الإطلاق، وفجأة دخل الحارس الشخصي لعلي

ناصر ووضع حقيبة الرئيس وقبل أن يخرج أشهر رشاشه وكان كما يبدو على عنتر قريبا وظهره للباب وبدأ الحارس «حسان» بفتح النار على أعضاء المكتب السياسي وأول الطلقات جاءت في ظهر علي عنتر فأردته قتيلا وقتل كذلك صالح مصلح وعلي شايع .

استعصت الطلقات في الرشاش قليلا وقد نزل من تبقى على قيد الحياة تحت الكراسي وأشهروا مسدساتهم للرد على مصادر النيران التي كثرت وتمت تصفية حراس أعضاء المكتب السياسي الحراس الذين ينتظرون في الخارج، ولكن مداهمة القاعة توقفت ربما نتيجة التصور بأننا جميعا قد قتلنا، أو لأننا أصبحنا مستعدين لإطلاق النار بالمقابل، وبقينا عدة ساعات حتى تمكنا من الاتصال برفاق في الخارج ليواجهوا الموقف، وغادرنا مساء كل على حدة أنا وعبد الفتاح حتى لا يصفوننا معا إن واجهونا، وذكر لي أنه قال لعبد الفتاح -وهم بعد في القاعة يتفكرون بكيفية الخروج- : أما زلت تؤمن بالحوار الديمقراطي يا رفيق فتاح؟ وأوضح أن القتال استمر وعندما خرج أطلقت قوات كانت منتشرة في المنطقة عليه النار فأصابته بجراح لم تكن خطيرة.

والانطباع الذي تركه الرئيس علي سالم البيض كان غير عادي شعرت أنه إنسان نقي جدا وصادق جدا وملتزم جدا والأهم من كل هذا وذاك أنه كان دائما يتحدث عن أهمية الالتزام بالقرارات الجماعية والابتعاد عن الفردية وحب الزعامة.

أحب أن أسجل أمرا آخر وهو أنه كان متحمسا للوحدة بقناعة حقيقية من هنا فإن تغير موقفه من مسألة الوحدة يجب أن يدرس جيدا وتدرس أسبابه الحقيقية، حتى أنني اليوم أتساءل وأنا أول من جدَّل شعر اليمن في ضفيرتين لرأس واحد: ضفيرة صنعاء ضفيرة عدن: ترى ما مدى صحة موقفي ليس عاطفيا وحسب بل إنسانيا وتاريخيا؟ ربما يكون الحل في انفصال حضاري سلمي شبيه بتقسيم جمهورية تشيكوسلوفاكيا إلى جمهورية التشيك وجمهورية سلوفاكيا مع تكريس التعاون والاحترام والتفاعل، هذه مجرد خاطرة عابرة ومع ذلك هذا أمر متروك للشعب اليمني نفسه.

حيدر ابو بكر العطاس

إثر ذاك دعاني حيدر أبو بكر العطاس -وكان على ما أذكر الشخصية الثانية في البلد آنذاك ربما في منصب رئيس مجلس الشعب الأعلى- إلى الغداء في منزله وكان معه وزير التربية، وكان شخصية ودية واعية وكان واضحا من حديثه ونقاشه المكثف على مائدة الغداء أنه رجل دولة محنك، والحقيقة أن جميع كبار المسؤولين والرؤساء اليمنيين الذين التقيت بهم كانوا متعددي الجوانب الإيجابية، وكان يمكن بالفعل أن يحققوا الكثير معا، ولكن آلت ساعة مندم وحين يتذكر حتى هؤلاء القادة تلك الأيام العصيبة يركزون على أن الدرس كان كبيرا جدا، وكان ثمنه هائلا، وأن عبد الفتاح كان مؤمنا بالديمقراطية والحوار، ولهذا ربما دفع الثمن في ذاك الظرف المتأجج في مجتمع متخلف. وتشير تقديرات الخسائر البشرية إلى قرابة 16 ألف قتيل حيث انتقلت المعارك إلى الشوارع والتصفيات على بطاقة الهوية والانتماء المناطقي ولم تحسم إلا بعد مضي عشرة أيام.

في زيارتي الأخيرة لعدن أقيم حفل مكرس لذكرى عبد الفتاح إسماعيل ألقيت فيه عددا من القصائد المستوحاة من تجربته، وتم في هذا الحفل تقليدي وسام عبد الفتاح إسماعيل وهو أعلى ميدالية في اتحاد شبيبة اليمن، وأنا اعتز بهذا الوسام كونه يحمل اسم قائد كبير وصديق حميم إلى قلبي [36].

كان عبد الفتاح يتراءى لي من بين وجوه من أجالسهم وأكاد أسمع صوته بين أصوات المتكلمين وهو يحدثني عن الخلافات العابرة بين الرفاق وأن من يكون ضدك اليوم قد يغدو معك غدا، وفكرت مليا في عمق التجربة وأنا أطل من كوة الطائرة وهي تحلق في سماء عدن، فكرت بصدقها وانفعالاتها وأخطائها برموزها وتحولاتهم ومفهوم السلطة وإغراءاتها وضرورة أن يكون العنان في أيد حكيمة وخامرني شعور مؤسف قوي بأن بناء الثورة اليمنية قد تصدع على أية حال وهو يحتاج إلى نسغ جديد، وأدركت على جميع الأحوال أن تجربة اليمن الديمقراطي نتيجة هذا التصدع يمكن ألا تصمد أمام محن قد تواجهها في السنوات القادمة، وأول ما فعلته حين وصلت إلى سكني هو ظان فتحت مؤلفه حول الثورة الوطنية -المجلد الذي أهداني إياه وبدأت أقرأ وأتذكر متمنيا أن يتعافى هذا الشعب الذي يستحق الحياة الكريمة لا الصراع الدائم.

المصادر:

- كان النميري في بداية استلامه للسلطة أقرب إلى الشيوعيين وتعاون معهم وكان في مجلس قيادة الثورة ضباط شيوعيون وشارك الشيوعيون في الحكومة إلا أنه بدأ بالتخلص منهم وحظر نشاطاتهم ما دقع بهاشم العطا إلى القيام بانقلاب فاشل دون التخطيط مع الحزب ما أسفر عن دمار كبير للحزب وتصفية العديد من كوادره بمن فيهم عبد الخالق محوب...

2- بدأ الاحتلال البريطاني لعدن 19 يناير عام 1831 واستمر حتى 30 نوفمبرعام 1967

3- استمر حكم قحطان الشعبي منذ الاستقلال وحتى يونيو 1069 حيث قدم استقالته من جميع مناصبه تحت ضغط بعض القيادات بزعامة سالمين – سالم ربيع علي الذي استلم السلطة تسع سنوات حتى تمت تصفيته في 26 يونيو1978

4- البروفيسور كارين بروتنس نائب مدير قسم العلاقات الخارجية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي أيام غورباتشوف

5- الاشتراكي نت- قراءة في موضوع أيمن أبو الشعر عبد الفتاح إسماعيل إنسانا بقلم أحمد ناجي النبهاني

6- أغنية بالله عليك يا طير يا رمادي- كلمات سعيد محمد الشيباني ألحان وغناء محمد مرشد ناجي

7- كان عبد الفتاح قائد فصائل الفدائيين في عدن وأمين عام الجبهة القومية لتحرير الجنوب، وكان يلقب بالذئب الأحمر، وأثبتت انتقال الكفاح المسلح إلى عدن فشل تصور إحكام سيطرة القوات البريطانية على عدن كعنق الزجاجة التي يمكن أن تغلقها لدى أول انفجار

8- من قصيدة رنين القلق مجموعة نجمة تقود البحر دار المدى للثقافة والنشر الطبعة الثانيةصفحة 28

9- عمرو بن معد يكرب الزبيدي المذحجياسلم وصحب الرسول وارتد بعد وفاته ثم عاد إلى الإسلام ولذلك يعتبر تابعيا وهو شاعر وفارس شجاع لقب إبان الفتوحات بفارس العرب

10- الكتابة بالسيف من مجموعة نجمة تقود البحر صفحة 15

11- من مجموعة نجمة تقود البحر صفحة 81

12- من مجموعة نجمة تقود البحر صفحة 82

13- أدونيس مقدمة مجموعة نجمة تقود البحر صفحة 6

14- عبد الفتاح إسماعيل وكاسترو في هافانا

15- حسب المناضل اليمني الكبير جار الله عمر أن بعض قادة الجيش اتصلوا بفتاح وبينهم قائد سلاح الصواريخ قاسم عسكر وآخرون وقالوا له سنقف معك لا تستقيل فقال لهم لا أريد أن تراق نقطة دم واحدة بسببي ومن أجل بقائي في هذا المنصب، الحزب هو الأهم

.

16- مجموعة ما الذي قالته في الليل الفراشة من قصيدة للعشق حدائق لا تروى إلا بنزيف يا أروى صفحة 36

17- أروى بنت أحمد الصليحي حكمت اليمن منذ 492 هجرية إلى 532 هجرية، وعرف عنها الحكمة والعدل وازدهار العلم والأدب حتى سمي عصرها بالعصر الذهبي لليمن

18- من القصائد الشعبية المشهورة لعبد الفتاح وقد تحولت إلى أغنية ألحان وغناء محمد مرشد ناجي وهي موجودة في مجموعة نجمة تقود البحر صفحة 108-107

19 -من عصية عدن مجموعة ما الذي قالته فب الليل الفراشة صفحة 62-61 – وقد تحولت مقاطع منها إلى أغنية من تلحين وأداء نجيب سعيد ثابت

https://www.youtube.com/watch?v=fyEThln8KLM

20-عبد الرحمن إبراهيم كان آنذاك من الشعراء الشباب الموهوبين وقد ترك لدي انطباعا جميلا وتوقعت له مستقبلا شعريا كبيرا وهذه مقالة له عن زيارتي لعدن ومرافقته لي (...)

21-مع الرئيس علي ناصر محمد في القصر الجمهوري

22-جمال الخطيب مدير إذاعة عدن كان يحفظ بعض قصائدي وبات صديقا مقربا وقد لعب ابنه دور الطفل في مسرحيتي الأرنب الذئبي... لكنه للأسف قتل أيام أحداث يناير!!!

23-(صورة من إحدى التدريبات على مسرحية الأرنب الذئبي) ومقالة عن المسرحية (....)

24-تخزن أي تمضغ القات وجاء مصطلح التخزين لأن الذي يمضغ القات يتركه في فمه وكأنه يخزنه حتى ينتفخ خده، وتشرب معه عادة القهوة أو المياه الغازية، ويبدو أن النبتة جاءت من أثيوبيا منذ القرن السادس عشر، والقات أورق خضراء في أغصان تنبت في شحرة قد يصل طولها إلى ثلاثة أمتار وهو يشبه النعناع، أو أوراق الملوخية، ويشاع عنه خارج اليمن بأن فيه خواص مخدرة

-25راشد محمد ثابت كان بداية الثمانينات وزيرا للثقافة في عدن، إنسان مثقف لطيف وهو شاعر غنائي له بصماته الخاصة في الشعر الغنائي وكان حقا لطيفا جدا ونقيا جدا

-26نبيه رشيدات عضو المكتب السياسي في الحزب الشيوعي السوري وكان مسؤولا عن العلاقة مع الأدباء والمثقفين وهو نفسه أديب يكتب الشعر

-27كان واضحا جدا أن عبد الفتاح أدرك أن الأغنية عنه وتأثر كثيرا حتى كادت عيناه تدمعان لكن ذكاءه الفطري دفعه لمسحهما بالمنديل مشيرا إلى أن الدخان آذاهما قليلا...

-28من مجموعة ما الذي قالته في الليل الفراشة صفحة 115-114 إصدار عام 1986

-29زكي بركات «ذكي تلفظ عادة في الأسماء وتكتب كما هو اللفظ الشعبي زكي» كان عضو اللجنة المركزية، ورئيس تحرير صحيفة الثوري، وكانت لنا في عدن لقاءات جميلة حقا أسمعني خلالها قصائد حداثية مدهشة، وهو من القياديين الذين تركوا انطباعا رائعا لديّ، عدا عن كونه مبدعا شعريا

-30لم تكن الموبايلات قد انتشرت وكان فتاح يتصل عبر أحد الروس العاملين لديه بمسؤولة المبنى التي ترسل في طلبي نتيجة علاقة ودية مميزة، ويعاود الاتصال فنتحدث أو أتصل به بنفسي

-31نجمة تقود البحر صفحة 76

-32من قصيدة فتقدمي دمي مجموعة ما الذي قالته في الليل الفراشة صفحة 27-26

-33من مجموعة ما الذي قالته في الليل الفراشة وهي تحكي قصة أحداث يناير صفحة صفحة 54-35

-34صالح شايف كان آنذاك رئيسا لاتحاد شبيبة اليمن التي يطلق عليها تسمية شبيبة فتاح وكان آنذاك شابا ديناميكيا عمليا واعيا

-35صورة مع بنات عبد الفتاح إسماعيل وهن يرافقنني لحضور إحدى الفعاليات الثقافية الاجتماعية

-36من حفل تقليد وسام عبد الفتاح إسماعيل في عدن

https://www.youtube.com/watch?v=hOORJfzk4mw

محطات تأملية حول تجربتي الشعرية والحياتية السياسية

ذكريات وانطباعات عن بعض الرموز الإبداعية الكبيرة: نزار قباني محورا

معظم هذه الذكريات يعود إلى عشرات سنين خلت، وربما رحل معظم المبدعين الذين يقتضي الوفاء لذكراهم كمعالم كبرى على طريق الإبداع أن أسجل بعض الانطباعات والشهادات عنهم بما تسعفني به الذاكرة التي قد تخذلني في بعض التفاصيل، وربما تحتاج بعض التواريخ إلى تدقيق، وقد تكون بعض الأقوال والحوارات مقاربة لا مطابقة بحرفيتها نتيجة مرور زمن طويل، لكنها حقيقية من حيث المحتوى حتما، وإن جافت حينا بعض الحقائق فلأنني أحاول أن أخفف أو أتغاضى عن الجوانب الإيجابية المتعلقة بي شخصيا أو أحذفها أساسا، ويؤسفني أنه لم تكن هناك أجهزة موبايل مزودة بالكاميرات كما هو الحال في الوقت الراهن لما اقتصرت على توثيق بعض هذه اللقاءات الأمر الذي تم أساسا عن طريق الصدفة خاصة أن هذه اللقاءات في حينها كانت هامة جدا بالنسبة لي وربما كانت عابرة بالنسبة لأولئك الشعراء الكبار.

في رحاب مهرجان الشعر في دمشق

لا تدعي هذه العجالة أنها تحاول تقديم دراسة عن بعض كبار الشعراء وخاصة نزار قباني الأمر الذي يحتاج إلى مئات الصفحات والشواهد، إلا أنها انطباعات خلفتها ذكريات للقاءات محدودة مع بعض الرموز الإبداعية الكبيرة وبشكل خاص نزار قباني الذي كان بمثابة نجم حقيقي لجيلي عموما، وربما تنبع أهميتها بالدرجة الأولى من كونها تسجل انطباعات شخصية عن عدد من أشهر الشعراء العرب في القرن العشرين، «بغض النظر عن احتمال كونها صائبة أو مخطئة»، وخاصة نزار قباني، وهي انطباعات عن مواقف وعبارات عفوية، ناهيك عن تسجيلي لبعض المواقف من آخرين أو حول قصائد نوعية لهذا الاسم الكبير رغم أني في هذه الفترة تعرفت إلى بعض كبار شعراء العربية الذين فاقت شهرتهم الآفاق أيضا، وكنت سعيدا جدا بهذه اللقاءات التي أثرت تأثيرا عميقا في توجهاتي الشعرية على وجه العموم بشكل غير مباشر، وأشدد هنا على أن هذه اللقاءات كانت هامة جدا بالنسبة لي، وربما كانت عابرة بالنسبة لهم فهم تجربة وعمرا آنذاك أكبر مني بكثير.

كانت مساهمتي في مهرجان الشعر العربي في دمشق عام 1971 أهم جسر بالنسبة لي للاقتراب من عالم المبدعين الكبار كشاعر شاب ذو تجربة متواضعة آنذاك[1]، وأغلب الظن أنني دعيت للمشاركة في هذا المهرجان كوني كنت أعمل في اتحاد الكتاب العرب في ذاك العام، وليس لأن اسمي حقق نجاحا كبيرا.

كنت أتلهف بشغف كبير إلى سماع ملاحظات وآراء هؤلاء الكبار واعتبرها تشجيعا لي، فقد كنت أصغر شاعر عمرا وتجربة في هذا المهرجان، هناك تعرفت إلى الشعراء الذين اعتبرهم أساتذة لي، وأحفظ الكثير من أشعارهم كبدوي الجبل[2] الذي دعاني إلى بيته في أبي رمانة بعد المهرجان وكان شاعري المفضل، وكنت معجبا إلى درجة كبيرة ببنية الصورة الشعرية المدهشة التي ينسجها كخبير في الجواهر، وقد لفت نظري إلى بعض الجوانب الفنية التي نصحني بالتركيز عليها، وهو المبدع الموغل في الشاعرية، ورغم ما أشيع عن بدوي من أنه ذو نزعة يمينية خفية إلا أنني كنت أعتبره الشاعر الأول في عصره، فهو يصوغ القصيدة كما لو أنه يصهر اللغة كالذهب، ثم يعيد تشكيلها، أو يصوغ القصيدة كعقد يجمع لآلئ أبياتها وينضدها بحرفية مدهشة، بدوي الجبل ملك الصورة العذبة الانسيابية كأنها رسمت بمداد الروح وأكسير المشاعر العاطفية، نعم إنه شاعر لا يكرر، وبعد إصرار ورجاء أسمعني بضعة أبيات من تلك القصيدة المذهلة «خالقة»، ولكنني أسجل للأسف هنا أنه لم يكن يجيد الإلقاء كالشعراء الذين يتمثلون ما يكتبون بإلقائهم كقباني وبسيسو وحتى الجواهري، ويبدو أنه يدرك ذلك فاكتفى ببضعة أبيات وقال «القصيدة طويلة جدا الأفضل أن نسمع مختارات منها بصوت السيدة فيروز»:

فيروز

> من نُعمياتك لي ألف منوّعة وكلّ واحدةٍ دنيا من النور
> ر فعتِني بجناحي قدرةٍ وهوى لعالمٍ من رؤى عينيكَ مسحو ر
> تعبٌ من حسنه عيني فإن سكرت أغفت على سندسيٍّ من أساطير

يستطيع المرء في هذه الأبيات أن يعرف كيف يمكن أن يتمازج السهل الممتنع بالصياغة اللغوية الملونة الهلامية النورانية المجسدة، حين تقرأ شعر بدوي الجبل تشعر أن في فمك قطعة سكر تذوب، فهو يصف حالته غير العادية بصورة غير عادية يعز الشرح عنها، ولا بد من تقبلها كمشروب اسطوري يخدر الروح، هكذا كنت مأخوذا بأشعار بدوي الجبل وبالتالي يمكن أن تقدروا مدى تأثير لقائي الأول به رغم أنني شاركت معه في مهرجان الشعر العربي لكنني كنت طالبا -ربما مجتهدا وطموحا- في مدرسة الشعر وكان هو أستاذا حقيقيا بلا منازع هذه القصيدة مثلا التي تأسرك حتما خاصة بصوت فيروز:

فيروز

”
أخادع النّومَ إشفاقاً على حلمٍ حانٍ على الشفةِ اللّمياءِ مخمورِ
وزارَ طيفُكِ أجفاني فعطّرها يا للطيوفِ الغريراتِ المعاطيرِ
يا طفلةَ الروحِ حبّاتُ القلوب فدىً ذنبٍ لحسنِكِ عندَ اللهِ مغفورِ[3]

محمد مهدي الجواهري

وتعرفت إبان المهرجان إلى محمد مهدي الجواهري[4] وزرته في الفندق الذي ينزل فيه آنذاك في دمشق، وكان على ما أذكر في ساحة الحجاز في الزاوية المتصلة بشارع الحلبوني مقابل مبنى محطة القطارات، وأسعدت بحديثه الشيق عن حياته ونضالاته وترحاله والتي كان يرفق مراحلها ببعض الأشعار مما كتبه بمناسبات مشهودة وكنت مأخوذا تماما بحديثه وشخصيته خاصة أنه في عمر جدي عمليا، وكان يلقب بشاعر العرب الأكبر، وقد استفدت كذلك من بعض ملاحظاته، وأدركت أن كل شاعر عالم قائم بذاته، فهو يفوق بدوي الجبل بالتوغل في الكلاسيكية بينما يتجاوزه بدوي الجبل بالعذوبة والسلاسة، وكلاهما معلم ماهر في بنية الصورة.

ظل الجواهري رغم تناوله لقضايا عصره بما في ذلك الظلم والفقر وضرورة محاربة الطغاة والرجعية بظلال ماركسية النزعة أحيانا، متمسكا بعمود الشعر التقليدي، وربما قاده ذلك أحيانا حتى إلى المديح كونه من أهم أغراض الشعر العربي القديم.

و كان الجواهري بحق أستاذ الشعر الكلاسيكي الذي يحافظ حتى على اللغة القديمة عموما بفخامة توحي لك باستعراض عسكري ضخم مهيب، وقد التقيت به ثلاث مرات وترك أثرا جميلا في نفسي، وكان حين أقرأ أمامه قصيدة في إطار التفعيلة يقول: فيها موسيقى نعم لكنها تفتقر إلى فخامة «المسير» يقصد الإيقاع القديم الذي يشبه المسير العسكري، وكان قد لفت نظري «ولم يصل إلى سمعي» وأنا في القاعة ما قاله لنزار قباني حين استوقفه وكأنه يعاتبه حين كان يلقي قصيدته في المهرجان، فسألته ما الذي أثاره في قصيدة نزار فقرأ لي دون أن يدخل في التفاصيل بضعة أبيات من قصيدته عن المعري ومنها:

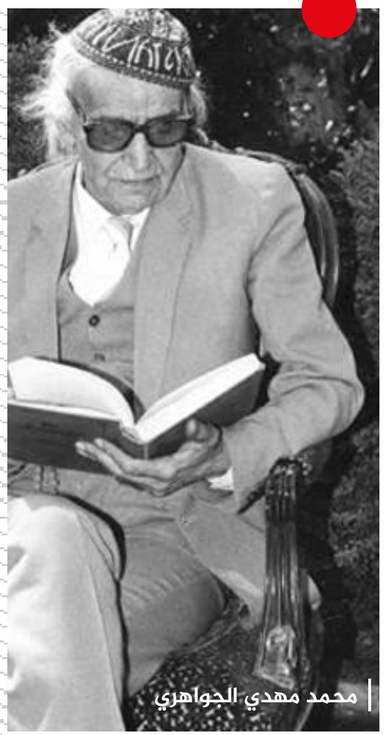
محمد مهدي الجواهري

قِف بالمعرةِ وامسحْ خدَّها التَرِبا
واستوحِ مَن طوَّق الدنيا وما تعِبا

واستوحِ مَن طيَّب الدنيا بحكمتِهِ ومن
على جرحِها من روحِه سَكبا

أقامَ بالضَّجَّة الدنيا وأقعدَها شَيخُ
أظلَّ عليها مُشفقاً حدِبا

بكى لأوجاعِ ماضيها وحاضِرِها وشامَ
مستقبلاً منها ومُرتَقَبا

وللكآبةِ ألوانٌ وأفجعُها أن تبصرَ
الفيلسوفَ الحرَّ مكتئِبا

لثورةِ الفكرِ تاريخٌ يحدِّثنا بأنَّ ألفَ
مسيحٍ دونها صُلِبا[5]

وهو يقصد أن فكرة البيت الأخير
أخذها نزار بقوله:

ماذا سأقرأ من شعري، ومن أدبي؟
حوافر الخيل داست عندنا الأدبا

وحاصرتنا ... وآذتنا ... فلا قلم قال
الحقيقة إلا اغتيل أو صُلبا

فقلت له يا أبا فرات يا أستاذنا الغالي أنت بذلك تتهم نزار بالسطو على أحد أبيات قصيدتك ولا أعتقد أنه يفعل ذلك وهو يعرف أنك مدعو إلى المهرجان ثم إن حروف اللغة العربية ثمانية وعشرون، ومن غير المعقول أن يكون لدينا ثمانية وعشرون قصيدة وحسب، يمكن للكثير من الشعراء أن يستخدموا كلمة «صُلبا» كقافية في أحد الأبيات دون أن يسطوا على قصائد أحد، فهز الجواهري رأسه وقال مبتسما تنتصر لربعك (يقصد لابن بلدك)، تنبهت إلى كفه المعروقة وتجاعيد الجلد فيها، فلاحظ ذلك وقال بسرعة بديهة دون أن أسأله: نعم إنني أحمل خارطة الوطن في يدي أينما رحلت، والعروق والتجاعيد في الجلد تضاريس الوطن.

وكان في بعض الأحيان يلقي مباشرة بعض الأبيات مشيرا بإصبعه كمعلم أو مايسترو لينبه كيف يحتضن الإيقاع الألفاظ والقافية، والحقيقة أن له أسلوب مميز جدا في الإلقاء ونطق الكلمات والحروف[6]:

كان لبدوي الجبل وللجواهري الفضل في متابعتي كتابة الشعر الكلاسيكي بين حين وآخر إلى جانب شعر التفعيلة، وظل الجواهري بشخصيته الفريدة حاضرا في ذهني دائما، وبعد مرور قرابة ثلاثين عاما رحل الجواهري عن عمر يقارب قرن من الزمان ورثيته بقصيدة منها:

حملت إليك
أريجَها الأزهارُ
والياسمينُ
وضوءَها الأقمارُ

وعلَتْ جبينَكَ
هالةٌ قدسيّةٌ مذ
توَّجتْكَ مليكَها
الأشعارُ

كم ليَّلَ المنفى
عيونَك ساهراً
ويظلُّ يسكُنفي
العيونِ نهارُ

بدأ الترابُ نشيدَهُ
متهلِلاً حتى
انحنتْ لمقامِكَ
الأحجارُ

فعرفتُ مذ واروكَ
كنزَ محبةٍ كيف
الحياةُ من الممات
تغارُ[7]

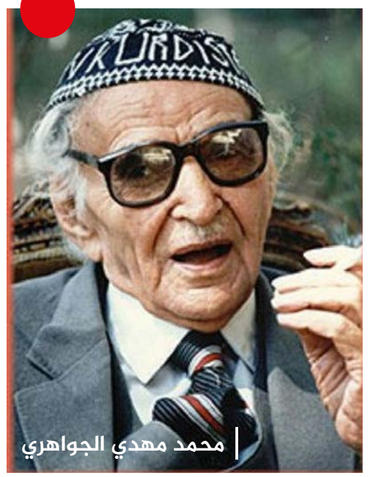
محمد مهدي الجواهري

وفي هذا المهرجان التقيت بالشاعر اليساري الكبير معين بسيسو[8] الذي كان الأقرب إلى روحي وأفكاري، ولبى دعوتي إلى الغداء حيث كان الناقد محي الدين صبحي[9] حاضرا أيضا، فقد كان محي الدين صديقا حقيقيا بالنسبة لي، وبين الجد والمزاح دارت النقاشات على الغداء عمليا -حسب وصف محي الدين-بين شاعرين يساريين وناقد «يميني»، مرّ ذلك بكثير من المرح الوخاز، فقد كان محي الدين ودودا ومرحا وذا شخصية لطيفة أنيسة .

وصادف أن تعرفت في هذه الفترة ربما قبيل أو بعيد المهرجان في دمشق بالشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي[10] وكانت لنا عدة لقاءات وحوارات استفدت منها بالطبع لكني كنت آخذ عليه ولعه الشديد بالجناس في صياغاته الشعرية آنذاك، وطبيعة العلاقة «غير الودية» بينه

وبين الجواهري، وكان هذا «النفور» يظهر في التعابير التي يطلقها احدهم على الآخر ولا أريد أن أدخل في تفاصيل ذلك لكني لم أخف امتعاضي من حالة «الأعدقاء» هذه وصارحتهما بشكل مهذب بشعوري هذا، فهما على أية حال أكبر مني سنا بكثير، وكانا بمثابة أساتذة كبار لجيلي عموما، لكني كنت واثقا من أن كل واحد منهما يعرف قيمة الآخر وإن كان يكابر، ولعل من أهم ما أتذكره عن البياتي أنه كان يصر على أنه أول من بدأ بتجربة الشعر الحديث أو بشكل متزامن مع السياب[11] ونازك الملائكة[12]، فأبديت استغرابي وشعرت أنه يبالغ في هذا الطرح فمجموعته الأولى ملائكة وشياطين والتي صدرت عام 1950 كانت كلاسيكية الطابع، رغم أنها صدرت بعد تجارب السياب ونازك الملائكة المنشورة بثلاث سنوات على الأقل[13] لكن البياتي أصر على أسبقيته، وأن محاولاته هذه بدأت قبل نازك والسياب ببضع سنين لكنه أكد لي أنه لم يكن ينشر تلك التجارب التجديدية متخوفا من رفض الجمهور لها، وبعد نقاش أشار إلى أنهما (نازك والسياب) يمكن أن يكونا أيضا قد كتبا بعض التجارب التجديدية في نفس المرحلة ولم ينشراها، وبهذا المعنى يكونا مشاركين في الريادة، وبالتالي هو في أحسن الأحوال يعتبرالسياب والملائكة زميلين مساهمين في هذا الانعطاف نحو الحداثة.

اصطحبته ذات لقاء إلى مطعم شعبي في دمشق القديمة[14] حيث حدثني عن معاناة اليساريين في العراق، ومن عباراته التي أذكرها جيدا أو معناها على الأقل «أن أقل عقوبة يمكن أن يتعرض لها الشيوعي في العراق هي الإعدام» وفي هذا اللقاء على العشاء نقل بعض الانطباعات الجميلة عن موسكو، وأثنى على الشاعر التركي الأممي ناظم حكمت [15] وذكر لي أنه التقى به في موسكو قائلا «من أجمل ذكرياتي في موسكو لقائي مع الشاعر التركي الأممي الكبير ناظم حكمت»، ولا بد من الإشارة إلى أن عبد الوهاب البياتي تطور كثيرا منذ السبعينات تدريجيا في الصياغة الشعرية ونسج الصورة، وابتعد نسبيا عن ولعه بالجناس، واستفاد من المعطيات الميثولوجية، وبدأ يظهر بوضوح تأثره بالصوفية ناهيك عن تعمق الحس الإنساني الأممي عبر تجربته في الترحال والتنقل بين البلدان والمدن العربية والأجنبية، ورغم التفاوت النسبي في تقييم البياتي بين الرفض والتمجيد كشاعر إلا أن غالبية النقاد والأدباء من جيله يعتبرونه شاعرا مميزا، ولا شك أنه حقق شهرة لها طابعها العالمي.

ولا شك أيضا في أنه طور إلى حد كبير تجربته الشعرية حيث نرى مثلا في قصيدة هكذا قال زارادشت أسلوبا مغايرا تماما لعبد الوهاب البياتي في ملائكة وشياطين، فقد نضجت تجربته الحياتية الفلسفية، وخبرته الشعرية وصياغته اللغوية الممزوجة بالحداثة والصوفية مع الغوص في مشاعر الغربة، ثم إنه يتكئ في عنوان القصيدة على كتاب الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشة [16] «هكذا تكلم زارادشت» لعله قصد الإيحاء بالصراع مع فلسفة القوة التي يمثلها نيتشة واحتضار «السوبرمان» المناضل بين رحى الواقع المرير:

يغرق العالمُ في الصمتِ ويرتدُّ جوادُ الريحِ منهوكا
على أبوابِ ليل القادمينْ
وينادي كَ مغنيها وكهانُ حضاراتِ الغزاةِ الفاتحينْ
والمحبون وأبناءُ السبيلْ
هذه الليلةُ مرَّت عدماً، صفراً
وها أنتَ طريدْ
حاملاً ناري إلى عصرٍ جديدْ
رافضاً كلَّ الشعاراتِ ومصلوباً على بوابةِ الرفضِ
وملعوناً وحيدْ
تقتفي خطوَك من منفى إلى منفى عيونُ المخبرين
فمتى يهبطُ «زارا» وينادي كَ كما ناداه أطفالُ المجوسْ
هذه الليلةُ مرَّتْ
سحقتها قدمُ الصمتِ وأبلت ثديَها العاري الطقوسْ
خلَّفتها طفلةً حبلى وأماً زانيةْ
لجنودِ الطاغيةْ...[17]

مع نزار قباني

في هذه الفترة عرفني محي الدين صبحي إلى الشاعر الكبير نزار قباني حيث قال لي: سنذهب إلى شاعر شغل الدنيا وملأ الناس فقلت له: بالشهرة نعم أما بالصياغة فالمتنبي هو الذي «ينام ملء جفونه عن شواردها» [18] ابتسم وقال لكل عصر ميزانه، فقد كان محي الدين صديقه المقرب منذ سنوات عديدة وكتب عنه الكثير، وكنت آنذاك متأثرا نوعا ما بالحملات التي تعتبر نزار برجوازيا، لكني كنت أحترم تجربته الشعرية وكتاباته العشقية عن دمشق، من هنا كان اللقاء مع نزار مهما جدا بالنسبة لي، فقد كان نزار شاعرا ذا تجربة جماهيرية مشهودة، وقصائده عن دمشق تستحق الكتابة بماء الذهب، ناهيك عن موسيقاه الشعرية المميزة، ورغبت بالطبع أن أتشرب قدر الإمكان ملامح من خبرته لأستفيد منها في مساري الشعري اللاحق، وكنت أدرك وأنا الشاعر الشاب آنذاك أن شهرته أتت نتيجة تاريخ من العطاء الشعري المتميز، وأذكر أن الكاتب الكبير حنا مينة كتب في تعليقه على المهرجان يقول: «أن من بين الظواهر الإيجابية في هذا الحفل الإبداعي مشاركة شاعرين شابين هما أيمن أبو الشعر وأحمد دحبور» وقد أدهش نزار في هذا المهرجان جمهوره الحاشد بقصيدة عن دمشق، قصيدة رائعة تنساب بساطتُها شلال صور عفوية وموسيقى متألقة، وكان يرمز بوضوح إلى أن العاشق الحقيقي يسامح حبيبته حتى إن أخطأت بحقه، وكانت القصيدة أقرب ما تكون إلى السمفونية الشعرية الوجدانية كاعترافات عاشق عائد إلى حبيبته:

> فرشتُ فوقَ ثراكِ الطاهرِ الهُدبا فيا دمشقُ لماذا نبدأ العتَبا
>
> حبيبتي أنتِ فاستلقي كأغنيةٍ على ذراعي ولا تستوضحي السببا
>
> يا شامُ إنَّ جراحي لا ضفافَ لها فمسِّحي عن جبيني الحزنَ والتعبا
>
> وأرجِعيني إلى أسوارِ مدرستي وأرجعي الحبرَ والطبشورَ والكتُبا
>
> تلك الزواريبُ كم كنز طمرتُ بها وكم تركتُ عليها ذكرياتِ صِبا [19]

ازداد إعجابي بنزار قباني وبجرأته وتحديه ومقارعته لكل ما هو سلبي، والأهم من ذلك هذا الدفق المتناغم بين الموسيقى وصياغة الصور بحرفة عالية، وإبداعه في السهل الممتنع بخصوصية نزارية، وذاك الصدق المتناهي لعاشق يبث لواعجه لحبيبته، ولم تعد تعنيني عبارات الهجوم السائدة وصفات البرجوازية التي كانت لصيقة به والتي كنت متأثرا بها آنذاك، وبدأت أدرك أن معظمها نتيجة غيرة وحسد، وقليل منها نتيجة اختلاف في الأساليب الإبداعية، والمفارقة في بعض الظروف الحياتية، وكانت حملات الهجوم تصل إلى حدود التشهير وتصوير نزار كعاشق بورجوازي للنساء البورجوازيات، ورحت أحلل هذه القصيدة عن دمشق بعيدا عن أية مواقف مسبقة، كنت أردد البيت فيبدو غريدا في فمي، وتنساب القصيدة شلال رؤى كطقس شعري مميز، ففيها من الصور الشعبية الحميمية ما يفرش ظلال الياسمين والنارنج في القلب، وفيها تمازج مع الوطن يشبه الحضرة الروحية والتماهي بتفاصيله ما يجعل الزمان منصتا بابتهال صادق، وفي صياغتها ابتكار مدهش ينعش الذائقة الجمالية موسيقى وصورا كحلوى «القطايف الدمشقية بالقشدة» وقد انساب فوقها القطر أو العسل ما يجعلها قريبة من أذواق الناس على اختلاف مشاربهم، ومضامينها وذكرياته فيها موغلة في الوجدان الإنساني وحياة الناس البسيطة الشعبية، فأين البورجوازية في هذا الشعر، (وأنا أتحدث الآن عن مرحلة تاريخية كان للمصطلحات السياسية فيها دور محوري كبير في حياة الناس قد يرفع حكومات أو يسقطها، وعن قصائده عن دمشق لا عن عشيقاته) هل هناك أعمق وأدل على العشق الأسطوري للوطن من أن تتمازج بساتينه بأمتعة الشاعر وتلوح أعنابه في خيطان قمصانه:

نزار قباني

> هذي البساتين كانت بين أمتعتي لما ارتحلت عن الفيحاء مغتر با
>
> فلا قميصا من القمصان ألبسه إلا وجدت على خيطانه عنبا [20]

وتساءلت، ثم أي ضير في أن يكون عاشقا للنساء؟ وكيف بشكل آخر إن لم يكن عاشقا للأنثى؟ هناك تجنٍّ حتما على نزار وغيرةٌ في مجتمع شرقي متخلف من شعبيته الكبيرة وخاصة بين النساء، وهو إن تمادى قليلا، ففي إطار محبب مقبول من البيئة الاجتماعية نسبيا ومرفوض من المتزمتين المحافظين، ناهيك عن كونه من أكبر دعاة تحرير المرأة بجرأة وتحد، تحريرها من مخلفات الجهل والتسلط والعبودية والمحاصرة الدينية المتشددة التي تفرضها التقاليد على المرأة من المهد إلى اللحد، ولهذا هاجمه المتطرفون المتدينون بشراسة واعتبروه زنديقا وإباحيا، واستشهدوا ببعض عباراته الرمزية وكأنه يقصدها بحرفيتها حتى جاء وصفه في بعض الكتب بأنه: « من عصابة المُجّان الكارهين لما انزل الله المحرضين على الفساد والفاحشة»[21]، في حين لم يكن نزار أبدا ضد الدين بل ضد التعصب الديني واستغلاله لمآرب سياسية وكسيف اجتماعي، بل كان أحيانا يتحدث عن المآذن بكثير من الحب والتقديس كما في قوله في قصيدة من مفكرة عاشق دمشقي:

> فكل صفصافة حولتها امرأة وكل مئذنة رصعتها ذ هبا
>
> أو قوله في قصيدة أخرى:
>
> وددت لو زرعوني فيك مئذنة أو علقوني على الأبواب قنديلا[22]

انطباعات تحول بعضها إلى بصمات

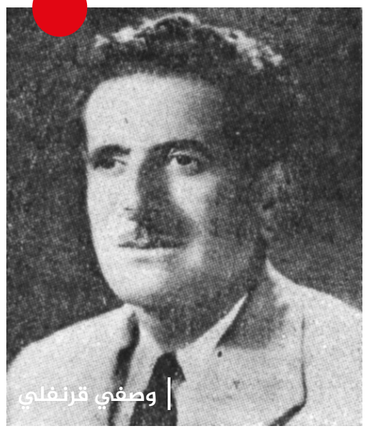
وصفي قرنفلي

كان اللقاء الثاني بداية عام 1972 وكان الشتاء قد توغل في أجواء سورية، حدث ذلك عندما توجهت إلى حمص لحضور حفل تأبين الشاعر وصفي القرنفلي الذي كان أحد أعمدة الثالوث الإبداعي المميز مع عبد السلام عيون السود وعبد الباسط الصوفي [23]الأمر الذي تنبه إليه جيدا نزار قباني سواء في كلمته التأبينية أو في حواري التلفزيوني معه.

أقيم حفل التأبين للشاعر وصفي القرنفلي في دار للسينما وسط مدينة حمص لم أعد أذكر اسمها للأسف، وكنت آنذاك أعد وأقدم برنامجا للتلفزيون حمل اسم مجلة الآداب والفنون، وقصدت أن أغطي حفل التأبين من جهة وأجري لقاء من جهة ثانية مع نزار قباني الذي كان في أوج شهرته نجما حقيقيا، وهو يدرك باعتداد يستحقه هذه الحقيقة، واكتشفت في تلك اللقاءات على قلتها بعض الجوانب التي تقربني من نزار روحيا وتركت أثرا جميلا وصورة مشرقة عنه خلافا لما كان سائدا عند عدد غير قليل من المثقفين اليساريين.

كانت إقامتي في نفس الفندق الذي نزل فيه نزار وبغرفة لا تبعد كثيرا عن غرفته (أعتقد إن لم تخني الذاكرة أنه فندق رغدان) وفي المساء نزلنا معا، وكان بصحبة نزار عدد من المرافقين من الشخصيات الاجتماعية والأدبية المرموقة، وكان الفندق غير بعيد عن دار السينما فمضينا إليه سيرا على الأقدام، وكان المثقفون من المارة يتوقفون أحيانا ويشيرون نحوه مشككين هل هو نزار قباني حقا، ويرجحون هذا الاحتمال لأن الخبر كان قد انتشر بشكل واسع في المدينة كما أن العديد من هؤلاء كان متوجها مثلنا إلى دار السينما، حين وصلنا كانت صالة السينما مكتظة بالناس المحبين لشعر وصفي قرنفلي لكن معظمهم جاء ليسمع نزار قباني.

نزار خطيبا

أول ما لفت نظري في نزار قباني أنه خطيب من الطراز الأول، يقف بقوة وثقة وإقناع وراء الميكرفون ويشد الجمهور بمهارة وألمعية، وكان نثره لا يقل إبداعا وجرأة عن شعره، لم يلق قصيدة رثاء كما كان يتوقع الجمهور لكنه ألقى كلمة مؤثرة وشجاعة حقا، وكان لا يترك فرصة إلا ويصب جام غضبه على التخلف والانهزامية والرجعية واستسلام بعض الأنظمة العربية، وقد شكلت هذه الكلمة رغم أنها لم تكن طويلة منظورا هاما دفعني إلى إعادة النظر في تقييم نزار الذي كان يتعرض كما ذكرت لموجات هجوم باستمرار تصوره زير نساء وبرجوازيا، لا يهمه الشعب، منغمسا في أجواء العطور والحرير، لكن هذا اللقاء جعلني أرى في نزار قباني جانبا آخر كشاعر وخطيب جماهيري تقدمي على وجه العموم، رأيت فيه متحديا شجاعا ومتفوها منبريا متميزا.

اتفقت مع نزار على إجراء اللقاء لبرنامجي التلفزيوني «مجلة الآداب والفنون» وكنت أعتبر ذلك مكسبا كبيرا -في حين كان أحد المسؤولين في التلفزيون يرى غير ذلك، أو ربما لم يكن يريد أن أجري أنا اللقاء- ، على أية حال أجريت في البداية حديثا تمهيدا للحوار الذي صورناه في صالون الفندق، وكان الحوار ممتعا تمنيت لو سجلته لكان أغنى كثيرا للقاء التلفزيوني الذي أجريناه بعد ذلك، ولكنه حتما لم يكن قابلا للنشر على أية حال، فقد انطلقت في استفساراتي عن مواقفه مما قاله في كلمته المعبرة، وخاصة ما

عبد الوهاب البياتي وأيمن أبو الشعر

رمز إليه في وصف الواقع العربي وما يمر به من تخاذل بعض الأنظمة.

كان يتحدث بجرأة دون أية مهادنة أو اختباء خلف الرموز، وكنت أقصد الاستفزاز»الصحفي» في مناقشته حول الصور المأساوية التي رسمها للشعراء العرب وموتهم الدرامي وكأنهم في حداد دائم ومآلهم دود الأرض، وكان يدافع عن وجهة نظره بموضوعية وأمثلة عملية، كان يعتقد أننا نصور حتى أنه تفاجأ بعد دقائق حين أشار المصور إلىّ أنه جاهز للبدء، كل ذلك يؤكد أنه لم يكن ذا وجهين كما تصوره بعض الانتقادات أو الحملات.

على أية حال من حسن الحظ أنني وجدت بعض ما جاء في كلمة نزار قباني تلك، واقتبس منها هذه السطور:

أيها الشاعر الصديق، لم أقطع مئات الأميال لأبكيك فلا أنا أجيد حرفة البكاء ولا أنت تقبل مذلة الدموع، ولكني أتيت لأهنئك لأن جهازك العصبي قد توقف عن الفعل والانفعال، واعصابك لم تعد كأعواد الكبريت قابلة للاشتعال في كل لحظة، يا صديقي وصفي لقد اتحد وجعك بوجعي وتداخل موتك بموتي حتى لم أعد أدري من يرثي من. [24]

من جهة ثانية يكشف هذا اللقاء التلفزيوني بشكل غير مباشر كيف يمكن أن يلعب بعض المسؤولين الصغار دورا سلبيا نتيجة ضعف نفوسهم، أو حقدهم أو غيرتهم فقد صُور اللقاء بحيث يُسمع صوتي ولا يظهر وجهي على الإطلاق مما يجعل اللقاء غير ناجح فنيا، وتبين لي أن هناك توجيهات أعطيت مسبقا للمصور بأن لا يصورني إطلاقا ربما بهدف التعلل بذلك بغية عدم بثه لكنني وجدت لقطة قصيرة جدا لي في التصوير الاحتياطي، فأدخلتها في المونتاج، وكانت تظهر طيلة الحوار على الشاشة يدي مع الميكرفون وحسب حين أطرح السؤال على نزار.

لقد أسر لي متأسفا بهذه التوجيهات المصور الموهوب « حازم» [25] وذكر لي من هو المسؤول الكبير في التلفزيون الذي أعطى تلك التوجيهات آنذاك لكن الآمر لا يستحق الآن أن نوليه اهتماما إذ لم يعد أحد يذكر اسمه ومن كان آنذاك.

بعض انطباعات من الآخرين

كتب عن نزار الكثير الكثير مدحا وقدحا، ولا شك أن هناك جوانب مضيئة رائعة في نتاجاته ومواقفه تستحق الإعجاب الشديد والتقدير ورفع القبعة، ولكن كثير من الآراء كانت ترى أن هناك نتاجات لا ترقى إلى المستوى الفني اللائق، وخاصة القصائد الشعبوية التي يبدو وكأنه يستدر بها مشاعر وتصفيق الجمهور، وينتقده في ذلك بعض المثقفين حتى المحبين لنزار، ينتقدون مباشريتها المفرطة وأنها ليست شعرا على الإطلاق بل مجرد خطاب سياسي محض:

« أيها الناس لقد أصبحتُ
سلطاناً عليكم
فاكسروا بعد الضلالةِ
أصنامكم... واعبدوني...
إنني لا اتجلّي دائما
فاجلسوا فوق رصيف الصبر
حتى تبصروني...
اتركوا أطفالكم من غير خبز
...
واتركوا نسوانكم من غير
بعل ... واتبعوني»[26]

وكان نزار كما يبدو يقصد أحيانا تقديم خطابات سياسية مباشرة، وكنت أقابل في كثير من الأحيان أدباء ومثقفين مؤيدين ورافضين لنزار عبر تقييمات تتجاوز أحيانا سقف المبالغة في مديحه، وانتقادات موغلة بالغيرة والتشفي والحقد أحيانا أخرى، ولكن ما يستوقفني أمران كنت أنطلق منهما في الدفاع عن نزار، وهما صدقه والطرح العفوي في اتكائه على الرموز الدينية بعيدا عن الشحن الطائفي، الأمر الذي رأى فيه البعض ازدواجية في الموقف، وأرى فيه أنا على العكس من ذلك انطلاقا مبدئيا من أرضية واعية تستخدم التاريخ ككل واحد، وكأن نزار كان يستشرف في اللاشعور ما ستؤول إليه الأمور مستقبلا في محاولة بث الفتنة الطائفية فينطلق من تكريس الاحترام للمذاهب، فهو يتحدث عن بني أمية بنوع من الفخر:

”

يا شام أين هما
عينا معاوية
وأين من زاحموا
بالمنكب
الشهبا[27]

وهو يقول أيضا
اتكاء على
التعاطف مع
الطرف الآخر:

فجراح الحسين
بعض جراحي
وبصدري من
الأسى كربلاء[28]

من جهة ثانية كانت هناك آراء ترى أنه سادي ويتعامل مع المرأة بفوقية ويصورها عبدة لرغباته الجنسية، وأنه يستخدم صورا مرفوضة تماما في التعبير عنها كما في الرسم بالكلمات:

”

لم يبق نهد
أبيض أو أسود
إلا زرعت بأرضه
راياتي

فصلت من جلد
النساء عبارة
وصنعت أهراما
من الحلمات

أين السبايا أين
ما ملكت يدي أين
البخور يضوع من
حجراتي[29]

والجانب الآخر الذي كان يستدعي الانتقاد الحاد هو ما اعتُبر تجاوزا وتشجيعا للشذوذ كما في قصيدته «الشريرة» عن السحاقيات:

”

مطر مطر
وصديقتها معها
ولتشرين نواح

شيء بينهما
يعرفه اثنان أنا
والمصباح

أشذوذ أختاه إذا
ما لثم التفاح
التفاح[30]

ورغم أن مثل هذه المواضيع أصبحت من حرية التعبير في المجتمعات الغربية عموما إلا أنه كان صعبا جدا علي، وعلى الآخرين تبرير مثل هذه التوجهات التي من البديهي أنها على نقيض التقاليد والأخلاق السائدة في مجتمع غالبيته محافظة، ولكني أسجل هنا الانطباع الاستثنائي الأهم الذي يشكل مفارقة حقيقية تشير إلى ازدواجية بين المضمر والظاهر في المجتمع نفسه، وهو أن مثل هذه القصائد كانت الأكثر رواجا والأكثر حفظا بين الناس، ربما لأنها تحمل راية خالف تعرف، فكيف إذا جاءت المخالفة صارخة ومن شاعر معروف حد الشهرة الكبرى.

ورغم معرفة نزار جيدا أن قسما غير قليل من المثقفين وخاصة التقدميين يعتبرونه برجوزايا وبعيدا عن الفكر التقدمي ويرون جولاته في الحب مغامرات شاعر بورجوازي أيضا، نراه في مجموعة سيبقى الحب سيدي التي صدرت عام 1987 يستخدم معظم المصطلحات السياسية التقدمية، ويفضل الصفات البورجوازية- وكأنما قصدا- حيث يتضح له أن لمسة من يدي فتاة قابلها أهم وأعمق وأبلغ من كل تلك المصطلحات الثورية يقول في قصيدة حوار مع يدين ارستقراطيتين:

> على الرغم من نزعتي الراديكالية
>
> وتعاطفي مع جميع الثورات الثقافية في العالم
>
> فإنني مضطر أن أرفع قبعتي
>
> ليديك البورجوازيتين
>
> المصنوعتين من الذهب الخالص
>
> يداك أرستقراطيتان بالوراثة
>
> وأنا ..
>
> لست ضد يديك المرفهتين المدللتين
>
> ولا أفكر حين أكون معهما
>
> بأي مشاعر طبقية [31]

نزار وفلسطين

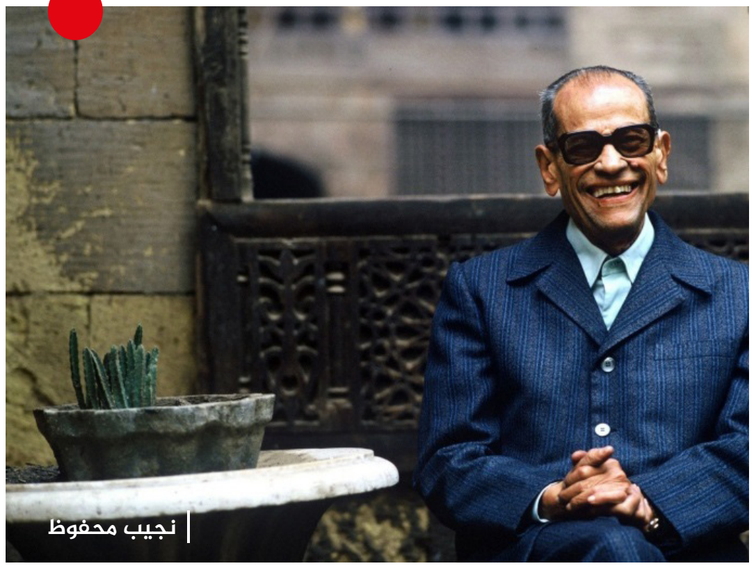
نجيب محفوظ

ويصل عمليا إلى صياغات ليس فيها من الشعر سوى شكل توزيع الكلمات فإن كتبنا هذه الأسطر اللاحقة وهي من نفس القصيدة متجاورة كنص دون تقطيع ستبدو مقطعا في مقالة صحفية:

فأنا لا أخلط أبدا بين ما اعتقد بأنه عادل، وبين ما أعتقد أنه جميل، بين الإيديولوجيات التي ألمسها بذهني، والأيديولوجيات التي تنقط حليبا وعسلا. [32]

أعود إلى لقاء قديم مع نزار بُعيد مهرجان دمشق حيث دعاني محي الدين صبحي إلى لقاء جديد مع نزار قباني في أحد مقاهي أبي رمانة، وكان يتقصد كما يبدو استفزازنا بتودد لطيف فقد كان محي الدين صديقا حميما وجارا لي في منطقة الجسر الأبيض، وكنا رغم صداقتنا المتينة مختلفين فكريا، فهو لا يخفي نزعته اليمينية ورفضه للواقعية الاشتراكية – حتى أنه أصدر فيما بعد كتابه «دراسات ضد الواقعية في الأدب العربي» وأنا لا أخفي توجهاتي اليسارية ، وفي ذاك اللقاء قدمني من جديد لنزار قباني قائلا عن قصد الشاعر الماركسي يلتقي مع الشاعر الذي يتهمه الماركسيون بأنه بورجوازي ضحكنا معا وقلت لمحي الدين لا تجوز المقارنة بين شاعر شاب وشاعر كبير، والتفت إلى نزار قائلا بما معناه: دعك مما يقوله محي الدين أنا لا أعتبرك بورجوازيا، بل شاعرا وطنيا قريبا جدا من الثورية وخاصة مواقفك تجاه القضية الفلسطينية.

لم يكن نزار «الكبير» وهو في أوج شهرته بحاجة إلى شهادة شاعر شاب مثلي آنذاك، لكنه كان دمثا من جهة وهو الدبلوماسي الخبير، وكان من جهة ثانية يرتاح نفسيا لشهادات إيجابية بحقه في مواجهة الهجوم الذي لا ينقطع، ولو استشرفنا بنقلة إلى التسعينات

موقـف نـزار مـن أوسـلو لاسـتوقفتنا معركـة محورهـا فلسـطين بينـه وبـين عميـد الروايـة العربيـة نجيـب محفـوظ حـول قصيـدة نـزار «المهرولـون» التـي يهاجـم فيهـا مصالحـة العـرب لإسرائيـل في أوسـلو 1993[33] فانتقدهـا نجيـب محفـوظ كونهـا لا تقـدم بديـلا معترفـا بقوتهـا الفنيـة لكنهـا تنـم عـن موقـف ضعيـف (لقـد أعجبتنـي رغـم اختـلافي السـياسي معهـا -كـما يـرى فيهـا محفـوظ- قنابـل تفرقـع في عمليـة السـلام مـن دون أن تقـدم بديـلا عنهـا).

وهالنـي بالفعـل أن نـزار قبـاني شـن هجومـا صارخـا عـلى نجيـب محفـوظ وهـو أمـر أراه غريبـا عـن دبلوماسـيته التـي عرفتهـا في بعـض اللقـاءات في دمشـق بدايـة السـبعينات، ولفـت نظـري بشـكل خـاص أن هجـوم نـزار قبـاني عـلى نجيـب محفـوظ رغـم أن رسـالته كانـت نثريـة وفيهـا لقطـات شـعرية- حسـب تصـوري- أكـثر مـن قصيـدة المهرولـين نفسـها. (الأسـتاذ نجيـب محفـوظ ، إنسـانٌ رقيـقٌ كنسـمة الصيـف ، وحريـريٌّ في صياغـة كلماتـه ، ورسـوليٌّ في سـلوكه عـلى الـورق ، وسـلوكه في الحيـاة، إنـه رجـل اللاعنـف الـذي يمسـك العصـا مـن منتصفهـا، ولا يسـمح لنفسـه بـأن يجـرح حمامـة، أو يـدوس عـلى نملـة، أو يغامـر، أو يسـافر، أو يغـادر زاويتـه التاريخيـة في حـي سـيدنا الحسـين، ربمـا جرحـت عذريـة كاتبنـا الكبـير وكسـرت زجـاج نفسـه الشـفافة ولكـن مـاذا أفعـل إذا كان قـدره أن يكـون مـن (حـزب الحمائـم) وقـدري أن أكـون مـن (حـزب النسـور)؟ [34]

أم كلثوم

الحقيقـة أننـي فكـرت وأنـا أتذكـر لقـاءاتي مـع نـزار عـلى قلتهـا أنـه كان لا ينـسى الحديـث عـن فلسـطين بتفاعـل حيـوي وكأنـه أحـد زعـماء المقاومـة ويعتبرهـا قضيتـه المركزيـة، وكان هـذا أيضـا يقربنـي منـه روحيـا، إلى جانـب النـزوع إلى المواجهـة والتعريـة والتحـدي في إطـار التوجهـات الشـعرية، فقـد ظهـرت في تلـك الآونـة مـع موجـة التطـرف في الحداثـة ظاهـرة غريبـة ترفـض كل شـعر يتنـاول أيـة قضيـة سياسـية، وبـات مصطلـح شـعر سـياسي لـدى عـدد غـير قليـل مـن المثقفـين بمـن فيهـم بعـض اليساريين وكأنـه شـتيمة، وتحـول أصحـاب هـذه النزعـة -ربمـا دون أن يـدروا- إلى أنصـار مذهـب الفـن للفـن، وهـذا التوجـه يخـدم أعـداء الوطـن بينـما نحـن في مرحلـة نضاليـة هامـة أحـد محاورهـا الرئيسـية فلسـطين.ذ مثـل هـذه الحـوارات عمقـت مـن قناعـاتي عـلى أقـل تقديـر بـأن توجهـاتي الشـعرية صحيحـة عـلى وجـه العمـوم، حتـى أننـي أذكـر إحـدى عباراتـه أو مـا يقاربهـا جـدا مـن حيـث المعنـى: « أسـتطيع القـول ليـس عربيـا حتـما مـن يجـافي ويهمـل القضيـة الفلسـطينية، بـل ليـس إنسـانا عـلى الإطـلاق»، كان لفلسـطين مكانـة خاصـة لـدى نـزار في شـعره وأحاديثـه، وإن كنـت أرى أنـه كان يبالـغ أحيانـا في اسـتخدام اللغـة البسـيطة المتداولـة المباشريـة التقريريـة لكـن خبرتـه الفنيـة مـع ذلـك تجعـل بعضهـا كالمـاء والهـواء والرغيـف بالنسـبة للمواطـن العـادي، وخاصـة عـبر إيقاعـات مميـزة ولغـة شـفيفة واسـتخدام صـور جميلـة في ثناياهـا أحيانـا، فهـو حتـما فـارس في مجـال الموسـيقى الشـعرية كـما في قصيدتـه «أصبـح عنـدي الآن بندقيـة» التـي غنتهـا أم كلثـوم:

عشق دمشق يجمعنا

نزار قباني

> إلى فلسـطين خذوني معكم
>
> إلى ربـى حزينة كوجه مجد لية
>
> إلـى القباب الخضر والحجـارة النبية[35]

بعـد حـين مـن الزمـن، كان نـزار في زيـارة لدمشـق والتقينـا مجـددا طبعـا بصحبـة محـي الديـن صبحـي، ولا أدري كيـف قادنـا الحديـث مـن جديـد إلى مـا يتعـرض لـه مـن اتهامـات وجحـود، وكان منزعجـا مـن عبـارة شـاعر النهـد والحريـر والعطـور والحلـي، لا أدري ايـن سـمع هـذه العبـارة أو قرأهـا، ويبـدو لي أنـه هجـوم في مقالـة بإحـدى الصحـف حيـث كان يناقـش الأمـر مـع محـي الديـن بانفعـال واضـح.

تأثـرت كثـيرا لانفعالـه وفكـرت «نعـم يمكـن للكبـار أن يتألمـوا بشـدة وخاصـة عندمـا يكـون الاتهـام افـتراء صارخـا» وبمـا أننـي لم أقـرأ هـذه المقالـة – التـي كان الحديـث يـدور حولهـا- ولكنـي أعـرف طابـع الهجـوم الـذي يتعـرض لـه، لـذا كنـت أبـدي تعاطفـي بشـكل عـام، ثـم تنفـس نـزار بعمـق وأصـدر فجـأة آهـة تعـبر عـن الكثـير مـن الألم

نتيجة هذه المواقف، وقال استمعا معا إليّ جيدا: هذا ليس دفاعا عن النفس فأنا لا أعتبر نفسي متهما أساسا، فما بالك بمن يعتبرني مذنبا ويرى في البورجوازية صفة مشبهة عالقة بي، أنت تعلم يا محي الدين جيدا، ولكن ربما صديقنا أيمن لا يعرف أنني من بيئة شعبية جدا، وأن والدي كان صاحب مصنع للحلوى، وكان يساهم بيديه في العمل مع الشغيلة هكذا كان معظم تجار دمشق، وليس بالصورة الباذخة التي ترسم اليوم حول التجار وكأنهم أغنياء حرب.

توغل نزار في غمرة انفعاله في الحديث عن تلك المرحلة من طفولته، (وقد كتب نزار في سيرته بتفصيل أكثر عن بيئته وبيته ووالده واصفا أباه حتى بالرجل المناضل الكادح)، استفاض قليلا في وصف حالة والده، وكيف كان يراه مشمرا عن يديه منغمسا في العمل، وروى كيف كان بيتهم مقصدا للمناضلين ضد الاستعمار الفرنسي، ووالده كان كغيره من تجار المدينة يمولون حركة المقاومة لنيل الاستقلال.

وفجأة صمت وسألني أنت من أين يا أيمن فقلت له: من الشاغور شماعين أي بجوار مئذنة الشحم، بيننا ربع قرن من الزمن في العمر، ولكننا من حي واحد وربما بين بيتينا القديمين خمسون مترا، نحن جيران.

ضحك نزار وقال لكي يخرج من حديثه عن بيئته الشعبية وأبيه: يصعب علينا دائما أن نتخيل آباءنا عندما كانوا أطفالا، ولكن بما أني أكبرك لربع قرن من الزمان لذا يمكن أن نقدر أن جدك كان يلعب مع أبي عندما كانا طفلين، فمئذنة الشحم والشاغور عمليا حي واحد، لاشك أن بيت أهلك القديم كان فيه أيضا باحة دار وفيه ياسمين ونارنج، فقال محي الدين لقد تركتماني بعيدا وغريبا، وبعد قليل يمكن أن تكتشفا وجود قرابة بالدم أو المصاهرة؟ ضحكنا جميعا وقلت له نحن أقرباء روحيا وليس مكانيا وحسب، ذاك أننا إلى جانب كوننا من الشام ومن حي واحد نحن رغم مفارقة العمر والتجربة عاشقان لدمشق وبها نتغزل بصدق مطلق.

عندها تذكر نزار بعض الأبيات الجميلة عن دمشق وحاراتها وبساتينها ما دفعني في نهاية المطاف إلى التجاوب بأن قرأت من قصيدتي رسائل عشق إلى دمشق: «إن كان هذا الكون قبلة عاشق فالشام

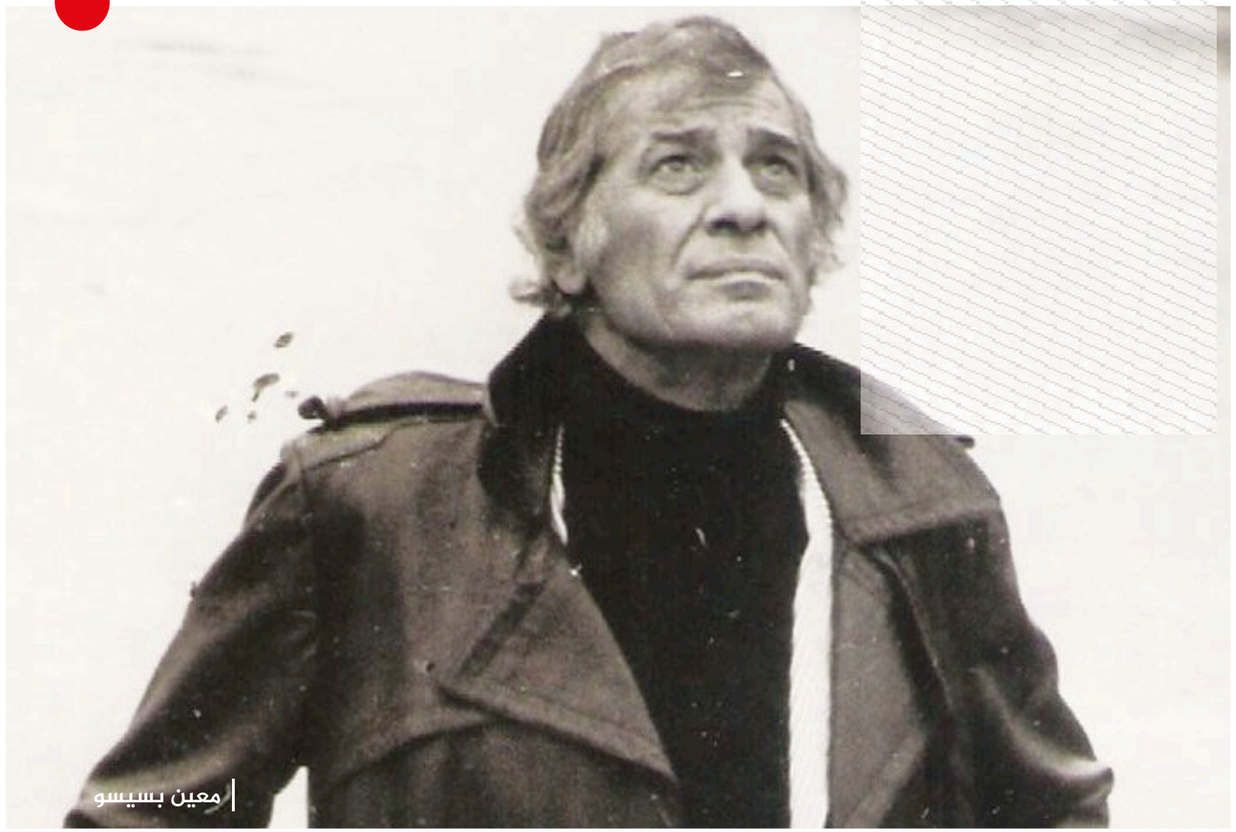
معين بسيسو

عند العاشقين شفاه» فابتسم نزار وقال يا سلام الشام شفاه عند العاشقين، ونظر إلى محي الدين صبحي الذي قال سجلاني معكما في سجل الحضور أنا أيضا في مدرسة عشاق دمشق حتى النخاع الشوكي.

وحين وقفنا لنتوادع قال نزار لمحي الدين تعالا أنت وأيمن لعندي بعد غد مساء، وأشار لي نحو شقته القريبة جدا من المقهى الذي كنا جالسين فيه.

أحب أن أسجل هنا ملاحظة شخصية هامة جدا وهي أن نزار قباني في الواقع يخفي تراجيدية حزينة في أعماقه، كنت أرى ذلك في شروده وإطراقه بين حين وآخر، وعدم تمكنه أحيانا من إخفاء آهة تغالبه فتغلبه، وأعتقد أنه كان صادقا جدا في وصف هذه التراجيدية المعششة في روحه وكأنها قدر في قصيدته قارئة الفنجان وأن «الحزن عليه هو المكتوب، وأنه سيعرف بعد رحيل العمر بأنه يبحث عن حبيبته الرمز كمن يطارد خيط دخان»، وقد نقلت تصوري هذا إلى محي الدين صبحي ونحن عائدان إلى المنزل، فصمت قليلا وقال: صدقت ملاحظة في محلها فعلا.

اليوم غدوت في عمر نزار قباني تقريبا عندما غادر دنيانا الفانية، وقريبا -إن كتب لي أن أعيش لسنوات أخرى- سأتجاوزه عمرا لكني واثق أن أحدا لن يستطيع أن يتجاوزه شهرة، حين كنت في زيارة للوطن ربما بعد رحيله بعشرين عاما مررت خصيصا إلى المقهى الذي كنا جالسين فيه قبل قرابة خمسين عاما، تغيرت ملامح المنطقة جديا، فقد تكاثرت في هذا المكان المقاهي والمطاعم، وجلستُ ربما إلى الطاولة المطلة على الشارع التي كنا نجلس حولها، ولكني كنت وحيدا هذه المرة، فقد رحل نزار ورحل محي الدين، وكنت أحتسي القهوة وأكاد أشرق بالذكريات، وأنا أتأمل الشارع الذي بات يحمل اسم نزار قباني قبل رحيله بفترة وجيزة.

المصادر:

[1]لقطة من مساهمتي في مهرجان الشعر العربي عام 1971 في مدرج جامعة دمشق

[2] بدوي الجبل هو محمد سليمان الأحمد1903- 1981- من أهم شعراء القرن العشرين يمتاز بلغة عذبة منتقاة بعناية وأسلوب سلس جذاب

[3] قصيدة خالقة بصوت فيروز

https://www.youtube.com/watch?v=ww479Ymhwnw

[4]محمد مهدي الجواهري 1899 – 1997 أحد أشهر الشعراء العرب في القرن العشرين يمتاز بلغة جزلة بما في ذلك القديمة الحوشية وعرف بمطولاته وبشعر المناسبات وكان قريبا من اليسار

[5] من قصيدته عن أبي العلاء المعري وقد ألقاها بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة الشاعر أبي العلاء المعري

[6] الجواهري يلقي مقاطع من شممت تربك عن دمشق

https://www.youtube.com/watch?v=TCfgCuquYKo

[7] في رثاء الجواهري مجموعة انتحار الدلفين صفحة 110-109

[8] معين بسيسو 1984-1928 أحد أبرز شعراء المقاومة الفلسطينية

[9] محي الدين صبحي 1935 – كاتب سوري أحد أشهر النقاد العرب نهاية القرن العشرين

[10] عبد الوهاب البياتي 1999-1926 شاعر عراقي من رواد الحداثة

[11] بدر شاكر السياب 1964-1926 شاعر عراقي يعتبر مؤسسا لمدرسة الشعر الحديث

[12] نازك الملائكة 2007-1923 شاعرة عراقية تتقاسم مع السياب ريادة الشعر الحديث

[13]نشرت قصيدة «الكوليرا» لنازك الملائكة عام 1947 وكذلك قصيدة «هل كان حبا» للسياب بنفس العام

[14]صورة أيمن والبياتي في الطريق إلى دمشق القديمة

[15]ناظم حكمت 1963-1902 شاعر تركي أممي اضطهد وسجن في بلاده واضطر للهروب إلى الاتحاد السوفييتي حيث بقي هناك حتى وفاته

[16]فريدريك نيتشة1900-1844- فيلسوف ألماني كان يؤمن بإمكانية وجود الإنسان المتفوق عبر التطور إلى نوع جديد من البشر ويسمى أحيانا بفيلسوف القوةوقد عانى من الجنون أواخر حياته

[17]الكتابة على الطين دار شروق الطبعة الثانية صفحة 43-42

[18]إشارة إلى بيت المتنبي: أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الحلق جراها ويختصم وهي من أشهر قصائده وقد قالها في عتاب سيف الدولة

[19]قصيدة من مفكرة عاشق دمشقي بصوت نزار قباني:

https://www.facebook.com/watch/?v=158979340831538

[20]المرجع السابق

[21]جاء ذلك في كتاب عودة الحجاب الجزء الأول للمؤلف محمد إسماعيل المقدم

[22]من قصيدة موال دمشقي لنزال قباني

[23]عاش وصفي القرنفلي عمرا مديدا لكنه مات نتيجة مرض عضال وكذلك عبد السلام عيون السود بعد مرض عضال وهو في ريعان الصبا، وانتحر عبد الباسط الصوفي وهو شاب أيضا في كناكري في غينيا، مما شكل هالة مأساوية تربط بين هؤلاء الشعراء الثلاثة، وتنعكس ظلالها في أشعارهم

[24]كتيب أصدرته الهيئة العامة السورية للكتاب في وزارة الثقافة عام 2018 عن وصفي القرنفليالمصور التلفزيوني حازم بياعة وقد غدا هذا المصور فيما بعد مخرجا مشهورا له عطاءات نوعية

[25]المصور التلفزيوني حازم بياعة وقد غدا هذا المصور فيما بعد مخرجا مشهورا له عطاءات نوعية

[26]قصيدة سيرة ذاتية لسياف عربي بصوت نزار قباني

https://www.facebook.com/watch/?v=1077690729359784

[27]من قصيدة من مفكرة عاشق دمشقي

[28] من قصيدة إفادة في محكمة الشعر

[29]من قصيدة الرسم بالكلمات

[30]من «القصيدة الشريرة»

[31]الأعمال الشعرية الكاملة منشورات نزار قباني بيروت لبنان صفحة 382-381

[32]المرجع السابق 382

[33]اتفاقية أوسلو اتفاقية سلام وقعته إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في واشنطن بحضور الرئيس الأمريكي بيل كلينتون حول ترتيب شؤون الحكم الذاتي الانتقالي وتسمى اتفاقية أوسلو كون المباحثات السرية قبل ذلك جرت في مدينة أوسلو النرويجية وقد أثبت الزمن أنها مجرد مناورة لتكريس الزمن الضائع وحصلت إسرائيل بموجبها على اعتراف من منظمة التحرير بحق دولة إسرائيل بالعيش بسلام

[34]يمكن متابعة هذه المعركة في ملف أعدته مجلة روز اليوسف العدد 3514 عام 1995

[35]أصبح عندي الآن بندقية ألحان عبد الوهاب غناء أم كلثوم

https://www.youtube.com/watch?v=muAVqYBypn4

الصوفية علمتني الإيقاع

لماذا أسجل هذه الانطباعات؟ نعم بكل بساطة كي لا تغادر معي، ومن بين البواعث أنني اصبت مؤخرا «بإنسولت» خفيف أثّر على أصابع يدي فافتقدت رفيقي العود، وكان هذا الحادث بمثابة جرس إنذار، وكأنه يقول لي احزم حقائبك للرحلة الأخيرة.

لم أجزع وتقبلت الأمر بهدوء، ولكني بدأت بجمع الحقائب لا لآخذها معي بل لكي أبقيها لكم، وما أكتبه هنا هو الحقيبة الأولى.

تذكرت وأنا أبدأ بهذه الكتابة كرسالة للأجيال القادمة، عنوان كتاب جميل للكاتب الأمريكي تود هنري[1]عنوانه «مت فارغا»، وهو يتحدث بأسلوب شيق عن ضرورة أن يعيش الإنسان حياته بشكل حيوي وفعال، ويتذكر أن الذي ألهمه لهذا العنوان هو حوار مع أحد المدراء في لقاء عمل حيث أكد هذا المدير أن أغنى مكان في الأرض ليس المكان الذي يحوي ثروات باطنية بل هو المقبرة لأنها تحوي في جوفها أفكارا رحلت مع من دفنوا ولم ولن تستفيد منها البشرية في شيء.

وأشار الكاتب إلى وجود أكثر من مئة نصب في مختلف أنحاء العالم تسجل فيه أمنيات ما يود الناس فعله قبل أن يموتوا.[2] ولنناقش الأمر سريعا: لو أنني استسلمت لبعض الأفكار الوجودية التي بالمناسبة أثرت ولو بنسبة قليلة في تكويني الفكري في البداية، أقول، لو استسلمت لما كتبت أي حرف، إذ لا جدوى من أي عمل أو كتابة أو إبداع بالنسبة للراحلين عن هذا العالم - ما يذكر بكتاب أسطورة سيزيف لألبير كامو[3] الذي يحاول فيه عمليا إثبات أن الحياة رغم عبثيتها يجب أن تعاش- وأقسى ما في الأمر كما يفسر كامو هو أن يكون جهد الإنسان بلا جدوى لأننا نطمح دائما لتحقيق ما قد يبدو لنا أفضل غدا.

لكن «غدا» هذا هو الذي يقربنا من الموت فتتدحرج الصخرة قبيل القمة، لست متشائما ولكن قد تبدو كل الكتابات والأعمال الفنية تساوي الصفر بالنسبة لجسد المبدع وهو يتحلل في جوف القبر لكنها ليست كذلك للأحياء والكلام هنا لي وليس

لكامو، وسيان إن صدر هذا الكتاب أو ذاك بطبعات ثلاث، أو بثلاثين ألف طبعة، أشدد هنا بأن عدم الأهمية هي بالنسبة للجسد المتفسخ هذه سنّة الكون في الحياة والموت.

ولكن هذه الكتابات ستكون مفيدة أو سلبية بالنسبة للأحياء، نعم لمن هم على قيد الحياة، وحتى إن تمكنتَ أن تكون إنسانا عظيما، وتكون اسما عملاقا، فإن الناس قد يتذكرون بضع عشرات من العظماء عبر التاريخ، أو فلنقل مئة من أسماء العظماء الذين هم بمئات الألوف حتما إذا أخذنا كل الأزمنه وكل الأمكنة بعين الاعتبار، فهل يطمح هذا المبدع أو ذاك أن يحتل الرقم مئة وواحد في ذاكرة الناس، وليس كلهم بل المثقفين وليس عامة الناس[4].

آمل أن أكون قد وضحت الفكرة دفعا للتوهم على أقل تقدير، فأنا أتخيل مواقف بعض الذين سيقرأون كتاباتي هنا وفق مواقف مسبقة، وقد عانيت كثيرا في هذا المجال فعذرا، وسأكون سعيدا – وأنا حي بعد لبضع سنين- إن قدمت بعض الفائدة للآخرين.

وأشير أخيرا في هذه التوطئة أنني سأنتقي بعض الملامح التي أعتقد أنها لعبت دورا أكثر من غيرها، وأغفل ملامح أخرى قد تكون أكثر أهمية في هذا الجانب أو ذاك سياسيا وإبداعيا لكني أختار ما يمكن أن يشكل سلسلة مترابطة متلاحقة زمانيا بحيث تعطي صورة عامة معقولة عن التجربة الحياتية الإبداعية، وسأغفل بالطبع محطات وملامح عديدة من هذه التجربة وقد أمر على بعضها مرورا سريعا بما في ذلك في إطار صداقاتي مع العديد من المبدعين، وأنا أدرك أيضا أنه لا يمكن إرضاء الجميع خاصة أنني لا أقصد إرضاء أحد ولا الإساءة لأحد.

على كل، هذه بعض المعطيات التي عشتها وأثرت في تكوين شخصيتي وعطاءاتي الإبداعية، أنقلها بصدق قبل أن أغادر، حيث يزداد شعوري بأنها أمانة لا بد من إيصالها لكم.

مفارقات الطفولة والمراهقة: «مقتل عنتر» أولى دروس القهر الطبقية

« يرى دافينشي أن أي قط هو تحفة أدبية، ويقال أن أرنست همنغواي رثى قطته كرازي وهو في الثانية عشرة من عمره»[5]

ولدت ونشأت في سنواتي الأولى في بيت طيني شعبي بسيط في حارة تسمى «زقاق الأولياء» في سفح جبل قاسيون[6] استأجره والدي من سمسار بديني أميّ اسمه «أبو رشيد» يملك العديد من البيوت والدكاكين، وكنت أنظر إلى كرشه الكبير وأخمن في نفسي: « لا شك أن زوجته أو أولاده يفكون له أزارا بنطاله حين يريد أن يتبول» إذ كان من المستحيل أن تصل يداه إلى تلك المنطقة نتيجة كرشه الكبير، وكنت أضحك أحيانا من فكرة كانت تراودني بأنه ربما يبول في سرواله إن لم يكن هناك من يساعده.

كان هذا السمسار الكرشيّ يثير حنقا وانزعاجا طفوليين عارمين عندما يأتي لقبض الأجرة، كان يخلع حذاءه قرب باب البيت من الداخل إمعانا في تمثيل دور الحريص على النظافة، وكان والدي يسدد له الأجار بالوقت المحدد مع الترحيب وتقديم الضيافة، ونحن في وضع اقتصادي سيء، وزاد إحساسي بالغبن لأنني كنت أرى والدي يعمل ليلا نهارا، ويُحضر معه أضابير المحكمة ـ حيث كان يعمل ـ إلى المنزل ويسهر على نسخها ومعالجتها، فيما كنت أرى من النافذة ذلك السمسار يطوف في الشارع على البيوت والدكاكين، ولا يعمل شيئا سوى أكل الفواكه والحلويات من المحلات مجانا وقبض المال منهم، حتى أنني سألت والدي ذات مرة وكنت ربما في الخامسة من عمري:

- لماذا تدفع له هذه النقود؟

- لأننا نسكن في بيته، وإن لم ندفع له سيخرجنا من البيت

اتسعت حدقتا عينيّ وقلت بلهجة حاسمة:

-ولكننا كثيرون، نهجم عليه ونطرده

فأجابني والدي وهو يبتسم:

- إنه سيُحضر الشرطة التي ستساعده في طردنا ونبقى في الشارع، ألا تذكر ما فعله بأسرة أبي ماجد؟

اغرورقت عيناي بالدموع، وأنا أتساءل بصوت باك لماذا؟ فأجاب والدي وهو يتنهد:

- لأنه غني ولديه بيوت ودكاكين كثيرة ورثها عن أبيه، ونحن نستأجر هذا البيت منه.

كنت أتخيل أن جميع الناس تملك البيوت التي تسكنها، وكنت حتى أنزعج لوجود مفارقات كبيرة في شكل البيوت وحجمها وتزييناها، والمفارقة بين بيوتنا الطينية الشعبية وهي نصف متهالكة وتلك العمارات الحجرية الفخمة غير بعيد عنا كبيت أبي رشيد نفسه، والذي عرف عنه أنه كان قاسي القلب، وقد طرد بالفعل بعض الأسر لأن الأجرة تراكمت عليها، وهذا ما جرى مع أسرة صديقي ماجد إبان مرض أبيه لأن مرضه طال، ولم ينتظر أبو رشيد حتى يُشفى أبو ماجد فطرده شر طردة.

كانت الناس تتوسل إليه ولا يستجيب، وحتى عندما جمع الناس مبلغا من المال يعادل تقريبا الأجرة المتراكمة

أخذه أبو رشيد قائلا: «هذا سيسدد قسما من الدين الذي تراكم مع فائدته» وطرد أبا ماجد وعائلته، ناهيك عن أنه تزوج من ابنة أحد المستأجرين كتعويض عن تراكم اجور لم يستطع سدادها، وهي أصغر من ابنته، وكان الجميع يتحاشون الصدام معه خاصة أن له صلات قوية مع المسؤولين المتنفذين ورئيس مخفر الشرطة.

أرقني هذا الهاجس كثيرا حتى أن الكوابيس زارتني في الحلم وتراءت لي مشاهد مؤلمة، بدا لي أن هذا السمسار قام بإحضار الشرطة بالفعل وطردنا من البيت، وغدونا في الشارع وكأننا متسولون، وأنا أحتضن قطي الذي كنا نسميه «عنتر» وأحدق في السمسار ورجال الشرطة بحقد، وكان قطي يموء أيضا باستعطاف فنهرته وقلت له:

- لماذا لا تنتفش وتكبر بسرعة وتزأر وتطردهم، لا يجوز المواء بسكينة أمام هؤلاء القساة يا عنتر.

وبالفعل راح عنتر يخرج صوتا فيه وعيد لا استكانة «خ خخ» وأنا أشجعه: أحسنت! أحسنت! هذه المفارقة أوضحت لي في تلك الكوابيس الحلمية الطفولية أننا فريقان: اسرة فقيرة كادحة مرمية في الشارع تحاول العودة إلى البيت الذي تسكنه، وعند باب البيت فريق آخر هو السمسار البدين الكسول المتسكع بطربوشه المائل يقف ساخرا، وقربه عدد من رجال الشرطة بالبنادق والعصي يمنعون هذه الأسرة من العودة إلى البيت.

منذ ذاك اليوم بت أكره الشرطة والرجال البدينين الذي يلبسون طرابيش بشكل مائل، وكأن جميع السماسرة والأغنياء الكسالى هم على هذه الشاكلة.

لم يكن راتب والدي ضئيلا جدا، فقد كان رئيسا لديون محكمة النقض كما فهمت لاحقا لكن أسرتنا كانت مؤلفة من أحد عشر شخصا، وهو المعيل الوحيد فيها: الأولاد سبعة إضافة للوالد والوالدة وجدتي وعمتي وقِطنا «عنتر» الذي كان يأكل معنا، وأحيانا أشتري له من مصروفي الصغير بعض الغضاريف وبعض الدرنات شبه اللحمية التي يبقيها اللحام تحديدا لكي يشتريها من لديهم قطط في بيوتهم أو يرميها آخر النهار. وكنت أعتبر أن ما أشاهده في المنام جزء من الواقع بهذا الشكل أو ذاك، وأقول «لعنتر» أن علينا أن نتذكر هذا الدرس، وحين نكبر عليه أن يصبح نمرا، وأن يساعدني في منع أصحاب الطرابيش المائلة البدينين الذين يتسكعون طوال النهار، نمنعهم من أخذ النقود ممن يعملون ويكدحون، وأن يكون لكل اسرة بيتها الذي لا تستطيع الشرطة إخراجها منه، وأن يكون لدى كل أسرة قط شهم مثل عنتر يحميهم.

كنت أتحدث يوميا إلى عنتر وأعتقد أنه يفهم عليَّ ولكن بطريقته الخاصة، وكان عنتر محبوبا جدا لدى كل أفراد الأسرة وحتى في الحارة كان الجميع حين يجول في أرجائها يتوددون إليه ويتحدثون عن لطفه ووداعته، وأحيانا يكون مواؤه منغما «نم نم، نيه نيه» فنبتهج جميعا ونطعمه. [7]

ذات يوم جاء السمسار في الموعد المحدد بداية الشهر وخلع حذاءه كالعادة قرب الباب الخارجي من الداخل، وجلس مع والدي في الغرفة، وبدأ يقضم أكبر تفاحة في الصحن أمامه، وكنت أجلس على الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي داخل المنزل وبجانبي عنتر وأنا أتنهد منزعجا، فجأة قفز عنتر من حضني وتوجه إلى حذاء السمسار وبال فيه وأنا أحاول في البداية منعه عن ذلك، ثم أعجبني صنيعه فصعدت إلى غرفة النوم لكيلا أُعاتَب لأنني لم أمنعه، ولكي أدعي أنني لم ألاحظ شيئا، ويبدو أن عنتر لم يكتف بالتبول فأتم عمله وأفرغ معدته، وأنا أسترق الرؤية من شق الباب من أعلى، فرحت لكني خشيت العاقبة، وسرعان ما جاء عنتر إلي وهو يموء بانتصار.

وبعد أن شرب السمسار فنجان القهوة وقبض الأجرة توجه إلى الباب وأدخل قدمه مباشرة بفردة حذائه الفضفاض وجمد قليلا، قال والدي: خير هل هناك مسمار، فقال السمسار وهو يدخل قدمه الأخرى في فردة الحذاء الثانية بسرعة ويعض على أسنانه: نعم يبدو ذلك وخرج بسرعة.

اختفى عنتر بعد أيام ورحت أسأل عنه الجيران، ثم أخبرني أصدقائي في الحارة أنهم شاهدوا أحد الصبيان الشريرين وقد أخذ قطي عنتر ووضعه في كيس وسلمه لقاء بضعة فرنكات للسمسار «أبي رشيد» الذي رمى الكيس في النهر القريب والقط يموء فيه، أي أنه قتله بعد تخطيط وتصميم، فقد كان واضحا له أن القط لن يتمكن من الخروج من الكيس.

كان هذا أول درس انحفر في ذاكرتي الطفولية عن الشريرين الظالمين الذين لا يتوانون عن القتل، وعن المفارقات الطبقية، بكيت ذلك اليوم حتى انتفخت عيناي، وأحسست أنه لا بد من معاقبة الظالمين مهما طال الزمن، ولكن تصرف القط عنتر أوحى لي بأن الحيوانات ربما تستنفر غريزيا ضد الظالمين عبر ما نسميه الشحنات السالبة.

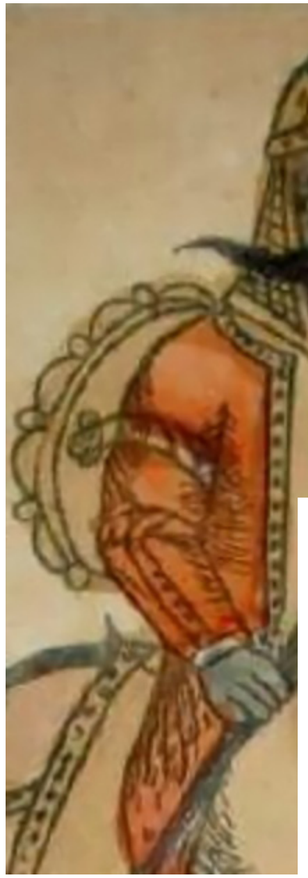

غالب الذي أصبح كلبا

« نشأ مفهوم المسخ منذ الأساطير اليونانية، وظل حيا وله تأثيره حتى الآن في عقول بعض الناس وخاصة في الأحياء الشعبية » [8]

في حارتنا الشعبية البسيطة هذه، وفي الأرياف تكثر الحكايات الغرائبية، [9] وخاصة أواسط القرن الفائت حيث كان القسم الأكبر من بيوت تلك الحارات دون كهرباء، وفي الظلمة ترتع مع الجهل والتخلف الأرواح والشياطين والجن بحثا عن المغامرات، ومشاكسة البشر والتدخل في حياتهم الأمر الذي نراه في العديد من الروايات الأجنبية والعربية كما في «العفاريت تحكم المدينة» لنجيب محفوظ [10].

وكان من البديهي أن يكون التنافس بين الأولاد -في سن نهاية مرحلة الطفولة وبداية المراهقة- على الشجاعة والتحدي والجرأة وكان من بين مباريات هذا التنافس مثلا أن أذهب أنا أو غيري ممن كنا، نتباهى بالشجاعة إلى المقبرة في الجبل بعد المغرب ونغرس في وسطها علامة ليتأكد الباقون نهارا من أننا فعلنا ذلك حقا بعد الغروب تحديدا، خاصة أن أقاصيص مرعبة جدا كانت تنتشر في هذه الأزقة الشعبية غير البعيدة عن المقابر بما في ذلك حول أن الجن تسكن هناك، وأن الأموات يخطفون الأحياء إن مروا قربهم ليلا ويسحبونهم إلى عالمهم، الأمر الذي تناوله بشكل مثير جدا الكاتب الروسي – الأوكراني الروسي العملاق نيقولاي غوغول في «الجنية» التي تنهض بعد موتها وتحاول السيطرة على الذي كان عليه أن يقرأ القداديس على روحها. [11]

كل ذلك، جعلني أبدأ رحلات خيالية إلى العالم الآخر عالم الموت والغيب و«الماورائيات»، وترابط ذلك أيضا مع حكايات الجن الذين كانوا بالفعل يشاركوننا «ذهنيا» حياتنا ويؤثرون عليها سلبا في معظم الأحيان، وقد عايشت حوادث مدهشة شكلت هزة حقيقية في حياتي الطفولية سأكتفي بذكر اثنتين منها فقط:

كان جارنا «أبو العز» يعمل في سوق «البذورية» [12] يبيع السكاكر والتمور، ويضطره عمله للبقاء طيلة النهار في الدكان حتى الليل، هذا الأمر لم يعجب زوجته بعد أن صبرت سنوات طويلة على هذه الحال، وقد تجاوزت سن الأربعين، وشعرت أيضا نتيجة كثرة الأولاد وكأن حياتها الخاصة قد انتهت، فجأة بدأت تظهر عليها أعراض نوبات غير مفهومة، تصرخ وتشد شعرها وتخرج أحيانا بثياب النوم إلى الحارة حتى يُرجِعها أولادها.

زار وجهاء الحارة مع المختار والشيخ عبد القادر «أبو العز»، وأقنعوه أن جنيّاً قد دخل جسد زوجته ولابد من إخراجه منه، تم الاتفاق، وأحضر أبو العز عن طريق الشيخ عبد القادر مجموعة من المشايخ والمرددين، وأقاموا حلقة ذكر مع إنشاد وقرع دفوف طبعا مع جميع لوازم الضيافة.

وكان ذلك لقاء مبلغ كبير للشيخ عبد القادر ليتولى الأمر بنفسه، وضعوا «أم عز» مغطاة تماما بشرشف سميك من رأسها حتى أخمص قدميها وسط باحة دارهم، وبدأت الدعاءات والإيقاعات الجميلة حتى أنها شدتني ولم أعد أهتم بالمشهد بل بالإيقاع والموسيقى.

لكني انتبهت إلى ضحك بعض الشباب المراهقين قربي، وكيف يصفون المشهد وكأنه ذو طابع جنسي، الأمر الذي لم أتنبه له مطلقا، وكان الشيخ عبد القادر مع صيحات محددة يطلب من الجني الخروج من جسد المرأة وأن يذهب إلى أهله في الهند، وراح يتحسس جسدها من فوق الشرشف وكأنه يريد أن يقبض على الجني، فيفلت الجني منه «ضاحكا» ويردد الجميع أعوذ بالله لقناعتهم بأن هذا الضحك هو صوت الجني فعلا، ويسارع الشيخ عبد القادر بضرب هذا المكان أو ذاك بالخيزرانة التي في يده والشابان يهتفان بصوت خفيض أيوه امسك ادعك، وينوهان بأن الشيخ عبد القادر بدأ يتعرق ويشفقان عليه.

بعد حين كنت مع عزة في دارهم، وسمعت «أم عزة» في الغرفة المجاورة تنصح ابنتها الكبرى «ذكية» بأن تسيطر على زوجها، وأن تكون مثلها موضحة لها أنها في الواقع تقوم بتمثيلية لا أكثر بالاتفاق مع أمها – جدة حليمة التي كانت أم عزة تلتقي بالشيخ عبد القادر عندها كي يعالجها «ويساعدها» في التخلص من الجني، وذكّرت ابنتها بضحكة الجني التي تشبه صهيل الحصان، وكررت نفس الضحكة مؤكدة انها كانت تقلد صوت الحصان كما قال لها الشيخ عبد القادر منوهة بأنهو من طلب منها تحضير الجلسة عندهم، وأن تقنع زوجها بتقديم مبلغ كبير من المال له.

شعرتُ أن نارا تكاد تخرج من وجهي، وأحسست أن الخداع أمر حقير جدا، والخيانة أسوأ ما في الوجود، نفر الدم من أنفي، وأحسست بحزن شديد على العم «أبو عزة» الطيب الذي كان يعطي أولاد الحارة بين الحين والآخر السكاكر. وبدأت أشكك بالقصص الخرافية عن الجن وقدراتهم الخارقة، وأتفكر أين يمكن أن يكونوا وسط حياتنا الواقعية لا شك أنهم يتقمصون البشر، وربما يكون الشيخ عبد القادر وأم عزة منهم.

الحادثة الثانية هزت كياني حقا، فقد جرت عندما كنت في التاسعة من العمر على الأرجح، حادثة جرت مع صديقنا في الحارة غالب الذي تحول إلى كلب، نعم إلى كلب! وقد كتبت عن تلك الحادثة قصة بعنوان «غالب الكلب الأخرس» سأوجز أهم خيوطها.

كان غالب يتيم الأم التي توفت بحمى النفاس بعد ولادته بأيام، وكان أبوه «أبو أحمد» كما يشاع «مُخاوِياً» أي أن له أخا من الجن، وانتشرت بقوة أقاصيص علاقاته معهم، وكان الأهالي «الجهلة» يرهِّبون أطفالهم بالجن، وأنهم سيسلطونهم عليهم إن لم يمتثلوا لأوامرهم، كان غالب أصغر أولاد «أبو أحمد» وهو شعلة حقيقية، وذكي جدا لكنه عنيد أرهق والده بعناده هذا، ورفض الذهاب إلى الدكان الصغيرة التي كان والده يصنع فيها الزميرات والنايات من القصب وبعض السلال والحاجيات التي تصلح للبدو، ويرفو العباءات، ومثل هذا العمل يحتاج إلى صبر مديد لم يقو عليه غالب.

كان أبو أحمد فقيرا جدا، ويحتاج إلى مساعدة أولاده الذين لا تكاد تتسع الدكان الصغيرة لهم، وكان غالب يهرب من الدكان وينتظر خروجنا من المدرسة ليتابع بشغف كبير ما تعلمناه، ويتأمل دفاترنا بألم،

كان يتمنى بكل جوارحه أن يكون زميلنا في المدرسة، والمذهل أنه كان يحفظ الدروس بإتقان كبير فقط من خلال قراءتها أمامه، ويسأل عن كل شاردة وواردة، لقد كان موهوبا جدا وله قدرة غير عادية على الحفظ، وكان يحس بغصة كبيرة لأن المدرسة سرقت منه أصدقاءه.

لم يكن والده بخيلا ، لكنه الفقر، حتى أن أولاده وهو أيضا كانوا يطوون مؤخرة الأحذية لكونها باتت صغيرة على أقدامهم فيلبسونها كالنعال بلا مسند خلفي، كان أبو أحمد يحب أولاده بطريقته هو حتى أنه وضع حصالة نقود «مطمورة» لكل طفل منهم، وكان يقول عندما أموت افتحوا هذه الحصالات، وستجدون فيها مبالغ متساوية تماما قد تساعدكم، حيث كان يضع كل أسبوع ربع ليرة أي خمسة فرنكات [13] لكل واحد منهم.

كان ما يهم والده هو الحصول على يد غالب العاملة المجانية، وحين تشجعتْ ذات يوم ورجوت «أبا أحمد» أن يسمح لغالب بالذهاب معنا إلى المدرسة نهرني وقال: « هل ستترك المدرسة أنت لتساعدني» فصرت أبحث بنفسي عن غالب لألقنه الدروس، وبما أن الدكان صغيرة جدا أعد أبو أحمد كرسيا من القش وصندوقا صغيرا من الخشب، ووضع فوقه بعض الأغراض لكي يقوم غالب ببيعها وخاصة إبان خروج التلاميذ من المدرسة، وكان غالب يهرب غير آبه بتهديدات والده بأنه سيسلط عليه الجن، كان يهرب يوميا تقريبا كلما سنحت له الفرصة وانشغل أبوه لدقائق مع أحد الزبائن إلى أن ضاق به ذرعا.

كان بيت أبو أحمد طينيا متهالكا وهو عبارة عن باحة دار فيها شجرة ليمون وغرفة ومطبخ بداخلة الحمام. وبعد أن فشلت التهديدات والعقوبات بما فيها الحرمان من الطعام والضرب حسم أبو أحمد أمره، وربط إلى الشجرة غالب الذي راح يصرخ بقوة ما دفعنا إلى الصعود إلى سطح بناية «الأكابر» التي تطل على بيت أبو أحمد، وصعد حتى بعض الجيران الكبار لمتابعة المشهد، ولم يتجرأ أحد أن يطرق الباب على بيت أبي أحمد ليتشفع لغالب خوفا من الجن ولاحظنا غياب أخويه، ربما أجبرهما على البقاء في الغرفة.

وكان ما شاهدناه رهيبا بالفعل، فقد أعد أبو أحمد وعاء نحاسيا قديما للجمر « المنقل» [14] وراح يرمي فوق الجمر بين حين وآخر مسحوقا يتحول إلى دخان ملون، قال أحد الكبار وكنا نناديه «عمّو الدكتور» ربما الأفضل أن نستدعي الشرطة فنهرته زوجته وقالت هل سنقول لهم أن عليهم أن يعتقلوا الرجل لأنه يعاقب ابنه على عناده.

وصلت بعض كلمات أبي أحمد إلى مسامعنا مع هبات من الدخان حيث كان يطلب من ابن ملك الجن الأزرق بلهجة طقسية مفخمة أن يحوّل غالب إلى كلب مطيع لكيلا يتابع الهرب من الدكان، وكانت أعصابنا مشدودة كأوتار تكاد أن تنقطع، ثم صرخ أبو أحمدتماما كما في الأفلام: احضر وبان عليك الأمان.

فجأة انهار حائط طيني صغير كان يفصل باحة البيت عن المطبخ وعلا الغبار وأحدث الانهيار هديرا مرعبا، فهرعنا جميعا صغارا وكبارا هاربين وقلوبنا تطرق بشدة، وكنا على قناعة بأن ابن ملك الجن الأزرق قد حضر، ولم نعد نسمع حتى أنين غالب، هربنا نتيجة إحساس داخلي بأن ابن ملك الجن الأزرق له قدرات خارقة، ويمكن أن يكتشف مكاننا ويؤذينا حتى أن أحد الهاربين فقد فردة نعليه على الدرج ولم يتوقف لتناولها.

باتت هذه الواقعة حديث الحارة كلها، ثم الحي وانتقلت إلى مختلف أرجاء المدينة، ولكن نقل الحادثة كان يتم همسا مع عبارة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ودستور من خاطركم يا أسياد.[15]

في اليوم التالي، توجهنا نحن أصحاب غالب فور خروجنا من المدرسة إلى دكان أبي أحمد، فرأينا غالب يجلس بخنوع على كرسي القش خلف الصندوق الخشبي ذاهلا شارد العينين، وتسابق الأولاد لشراء حتى ما لم يكن يلزمهم طامحين لسماع كلمة من غالب ، وازدادت أسئلة الأولاد: بكم هذا، وبكم ذاك، رغم أنهم يعرفون ثمن كل قطعة، وكان غالب يرد عليهم: عوعوعوعو ويشير بعدد أصابعه إلى السعر، وراح بعضهم يضحك ظنا منهم أنه يمزح معهم، لكني نهرتهم بقوة، وصرخت بحرقة فجأة وانهمرت دموعي حين رأيت سلسلة حقيقية موصولة بطوق جلدي في عنقه يستخدم للكلاب عادة مربوط في حلقة حديدية في الجدار.

انتبه جميع الأولاد إلى السلسلة، و بدأوا يغادرون مشدوهين دامعي الأعين، هززت كتفي غالب وصحت فيه هل تذكرني أنا صديقك، صديقك وجارك في الحارة، نظر بعينين بائستين غائمتين، ثم صدر عنه انين يشبه أنين الكلاب الحنونة حين تلتقي بإنسان عزيز عليها بعد فراق، كان ذلك أواسط الخمسينات.

ظل غالب حيا، لكنه شرد عن دكان أبيه ولم يعد إليها ثانية قط، يقال أنه ذهب مشيا على الأقدام إلى حلب أي أكثر من ثلاثمئة وخمسين كيلومترا، ثم عاد بعد سنوات وقد بات شابا، بعض أهالي الحارة شاهدوه بعد ذلك في سوق الخضار يساعد الناس في حمل حوائجهم لقاء إكرامية بسيطة، وقد صمت نهائيا لكيلا ينبح إذ لم يعد لسانه يجيد نطق الكلمات والعبارات، من الواضح أن ذلك كان نتيجة الصدمة النفسية الهائلة، في البداية لقبوه بالكلب الأخرس، لكن الناس أحبوه لطيبته وذكائه وأمانته، واحتراما له باتوا يقولون غالب الأخرس، وينهرون من يلقبه بالكلب الأخرس! وأدركت بعد هاتين التجربتين القاسيتين أن الجن والعفاريت والشياطين تكمن في عقول الناس لا حولهم.

الصوفية علمتني الإيقاع

> «يا صديقي الوديع ألا ترى
> أن كل ما يُرى من قِبَلنا
> ليس إلا التماعا
> ليس إلا ظلا لما لا يرى بالحُدق» [16]

يبدو أن الولع بالشعر والقصّ التاريخي والظلال الصوفية أوغل في روحي، ففي المرحلة الابتدائية كنت لا أزال شغوفا باللعب في الحارة، ولم أكن أحب الدراسة، وكثيرا ما كنت أهرب من المدرسة، لكني كنت أهتم كثيرا بدروس «الاستظهار» ففيها أناشيد طفولية عذبة كنا نؤديها غناء، وبعض القصائد البسيطة، وكذلك دروس القراءة والتاريخ التي كنت أتقبلها كقصص مثيرة، ونتيجة ولعي هذا كنت أحفظ هذه الأناشيد والقصائد ودروس القراءة والتاريخ غيبا، ونحن بعد في المدرسة بعد ترددها لمرة أو مرتين في الصف، وكان الوالد والوالدة يعنفاني لأنني لا أدرس مثل شقيقتي فأؤكد أنني أحفظ الدروس ويمتحنانني ويسقط الأمر في أيديهما.

قد يكون طريفا أن أذكر أن أول مرة وقفت لألقي الشعر كنت ربما في الصف الثالث أو الرابع الابتدائي، تعرقت كثيرا عندها وأذكر أن ذلك كان بمناسبة عيد الجلاء، وقد ألقيت أبياتا حسب ما دربوني لأحمد شوقي بإيقاع أداء محدد أعجبني، وكنت أعتقد أن حركة اليدين وتعبير الوجه جزء أساسي من الإبداع الشعري، لكنني مررت بتجربة حساسة في ذاك العمر أحدثت انعطافا في كينونتي الشعرية وخاصة الإيقاع.

كنت أثناء العطلة الصيفية – ربما بعد امتحانات الصف السادس- أذهب إلى مقر «المخترة» في الشاغور لأساعد عمي خالد «أبو رفعة» الذي كان مختارا لحي الشاغور،وكنت أحبه كثيرا حتى أن الأهل باتوا ينادونني أبو خالد منذ ذاك السن، وكان يُحفّظني الكثير من القصائد، ويبارك محاولاتي الطفولية الشعرية ويشجعها، وكان ينقر على الطاولة لترتيب الإيقاع وهو يلقنني هذه القصيدة أو تلك.

كنت أحيانا اسمع إيقاع نقر دفوف من المسجد غير البعيد، وكان العم أبو رفعة ينهض واقفا باحترام حين يسمع الآذان ويقول «مرحبا بذكر الله»، وإن سمع أصداء الأناشيد الدينية وإيقاعها يقول «مرحبا بذكر حبيب الله»، ويترنم مع الإيقاع مثلي، ويقول هؤلاء فرقة صوفية- المولوية أو الدراويش[17] يرتلون الأناشيد الدينية ويقومون بسياحة روحية «سمعتها سباحة» فاستغربت واستفسرت: -سباحة؟ قال ضاحكا هي نوع من السباحة بالفعل، لم أفهم ما يقصد بالصوفية لكنني كنت أرتاح للنغم.

كنت أساعده في كتابة بعض الوثائق كقيد نفوس، أو طلب شرح فقر حال، أو تعريف أو وثيقة لعقد الزواج، خاصة أنني كنت متفوقا في اللغة العربية تحديدا، وأذكر أنني ذات مرة أوقعت عمي في ورطة كبيرة حين كتبت في وثيقة للزواج مهرا كبيرا دون أن يُطلب مني ذلك، وقد دفعني إلى هذا التصرف أن الرجل الذي حضر للحصول على الوثيقة جاء مع فتاة ظننتها حفيدته أو ابنته على الأقل، ووضع عمي كالعادة ختم المخترة على الوثيقة مما سبب له مشاكل جدية بعد ساعات وحسب مع ذاك الرجل الذي اشتكى إلى الشرطة فحضَرَت معه، وتم إثر ذاك تمزيق الوثيقة وكتابة نسخة جديدة، وذلك بمطالبة ورجاء من الفتاة نفسها التي تعاطفت معها في حين راحت تلومني بقسوة.

لم يوبخني عمي معتبرا أنه مجرد خطأ كتابي، وبعد أن غادروا وتمت معالجة الوضع نظر إلي بعينين متألمتين وقال: « انتبه يا أيمن يا «أبو خالد» هذه قضايا فيها مسؤولية كبيرة»، فاعترفت له بأنني كتبت ذلك عن قصد لأنني أحسست بتعاطف مع الفتاة، وكنت أتمنى ألا تتزوج من هذا الكهل، تابع عمي «أبو رفعة» حديثي مشدوها تماما واصطحبني بعدها إلى المسجد وهو يقول لي: «لا يمكن رفع الظلم عن

الناس بهذه الطريقة هذا اسمه تزوير، عدني ألا تفعل ذلك مرة ثانية، ادخل وصل واستغفر ربك واقرأ جزء «عم يتساءلون» بالكامل، واقسم عند المحراب أنك لن تفعل ذلك ثانية» لم يكن عمي متدينا جدا لكنه كان ورِعا، تركني عند باب المسجد وذهب إلى المقهى القريب حيث كانت له نرجيلته الخاصة، وطلب مني أن أمر إليه بعد المسجد.

فعلت كما طلب مني عمي بإخلاص، وقبل أن أخرج لفت نظري تجمع في أقصى زاوية المسجد غير الكبير أساسا، وسمعت قرع الدفوف الذي كان يتهادى إلى مسامعي وأنا في المخترة، فاقتربت بحماس وتطاولت بعنقي بين حشد الناس الذين أحاطوا بأولئك المنشدين، وكان هناك شخص يلبس ثوبا أبيض فضفاضا وطربوشا طويلا يدور باستمرار دون أن يسقط، وهو يحرك أحيانا يديه فيضمها إلى صدره أو يفردها إلى الجانبين أو يرفعها إلى الأعلى بحركات جميلة، وكان ايقاع الدف رائعا إلى درجة أمتعتني تماما، وعندما بدأوا بالإنشاد لم أتمالك نفسي، وبت أنشد معهم إذ سرعان ما حفظت كلمات ذاك النشيد الذي كان يتكرر بأداء جماعي يتخلله أداء فردي بأصوات جميلة جدا، وكنت بنفس الوقت أتابع تعابير وجوههم وخاصة وجه الذي يرقص بدوران مستمر حول نفسه، فينتفخ الثوب كمظلة وارفة.

احتلني الإيقاع تماما، ودخلت إلى الساحة الصغيرة كالمأخوذ او المنوم مغناطيسيا، ورحت أدور إلى جانب الرجل حاول البعض إبعادي فمنعهم العازفون والمنشدون الذين اشتد حماسهم وعلت أصواتهم وقرعهم على الطبول، رحت أدور وأدور حول نفسي وأرفع يدي كذلك وأضمهما إلى صدري ثم أغمضت عينيَّ مثله، وبقيت أدور ربما لدقيقة أو دقيقتين وشعرت بالفعل أنني أسبح في الفضاء، وتجاوزت الغيوم وارتسمت في الأفق مشاهد أسطورية ساحرة تتلاحق كما الأمواه في الأمواج الطويلة المترادفة وراء بعضها في البحر، وشعرت بخدر في جسدي، وأنني أسبح حقا في قوس قزح،

وبدا لي وكأن طيفا نورانيا لفتاة ملائكية يشير لي أن أتبعه، وفجأة انتابني الهلع لأنني بت أعلى من الغيوم، فقررت الهبوط بسرعة، وإذ بي أسقط عمليا مغشيا علي.

كان عمي قد تنبه لتأخري فجاء إلى المسجد ودخل باحثا عني فلفت نظره الصخب، وأفسح الناس الطريق للمختار فانحنى عليَّ حتى سقط طربوشه، وكان أحد الشباب قد احضر ابريق ماء فسكب عمي قليلا من الماء في يده ومسح وجهي وعانقني والدموع تكاد تنهمر من عينيه، ثم خرج بي وهو يقول «ليش هيك يا «أبو خالد!» حدثته عما شاهدته وأنا أدور في تلك الحضرة واسترسلت مستعيدا تلك الحالة وأنا أحدثه عن شلالات الأضواء الملونة والفراشات الهلامية، ونفحات العطر بملمس النسمات، وأصوات الملائكة التي تشبه تغريدة البلابل، وسباحتي في قوس قزح وطيف الفتاة النوراني الذي راح يشير إلي كي أتبعه، وقلت له فجأة هذا لا يوصف يا عم بل يعاشّ وحسب، إنه لا يرى بالعين بل بالروح، هالته هذه العبارة فتوقف وقال حاول أن تكتب ذلك، إن لك روحا صوفية.

منذ ذاك الوقت بات الإيقاع والموسيقا في الحياة والشعر هاجسي المحبب إلى جانب تأمل فلسفي في عمر مبكر جدا، فكتبت، ولكن بدا أن الموضوع غير مناسب على الإطلاق لأحلام وأفكار مراهق في الثالثة عشرة من عمره، بعد بضعة سنوات شذبت القصيدة قليلا بل ربما كثيرا، وحذفت عددا من أبياتها وصورها الغيبية، وقربتها من الطابع التأملي الفلسفي وبت أستخدمها في الحوارات المشهدية إبان نشاطات رحلات الشباب الديمقراطي، ثم نشرتها في مجموعتي الأولى، لكنها في الواقع كانت نتاج تلك المرحلة المبكرة جدا، وكانت مخالفة تماما وربما كان الأفضل لو لم أجر هذه التعديلات، فقد كانت بهذا الشكل أو ذاك تجربة قريبة من النشوة الصوفية رغم طابعها الطفولي الساذج، وتحولت بعد تعديلها إلى فلسفية شبه وجودية:

”

إنّي أرى في كلِّ يوم ما
ترى يا صاحبي فأنا وأنتَ
من الورى

عندي حواسٌ فيك أنت
مثيلُها إلا شُعوري عن
شُعورِك غُيرا

فأرى على وجهِ العجوزِ
مواعظاً وترى التجعُّدَ في
الجبينِ مُقدرا

لولا الحواسُ لقلت أنيِ
واهمٌ أو ما نرى إلا الخيال
مُصورا[18]

ظل تأثير تلك الشطحات الصوفية العابرة موغل في روحي، ولكنه تشذب وتعمق باتجاه الشعر الحياتي وفلسفة الوجود والصراع الطبقي، ولو أجرينا قفزة إلى الأمام بدل فلاش باك لتبين أن تأثير الظلال الصوفية كان عميقا بالفعل، ولكنه تخلص من الطابع الديني أو المشيخي، ولعل أفضل تعبير عن ذلك أن يكون في الثلاثيات في مرحلة النضج الفني:

”

قال صمتا لي تعالْ وجهُها
خلفَ الظِلالْ

جئتُه يبكي عليّ مُدركاً
سرَّ المآلْ

أنَّ حُبي لن يكونْ غيرَ
آهاتِ ابتهالْ

جُنَّ قلبي واضطربْ لمَّا
بضدِّيهِ احتربْ

بالندى صرتِ احتمالاً
واكتمالاً باللّهبْ

كم أتى لم تظهري بل
جئتِهِ لمّا ذهَبْ[19]

طبعا حين كتبت الثلاثيات لم تخطر ببالي تلك الحادثة إطلاقا، فالعمل شمولي فلسفي إنساني طبقي رغم أنه يتكأ على الصوفية في البداية كرحلة لمريد مع شيخه في الكون ثم الهبوط إلى الأرض، كرحلة معاكسة لرحلات الصوفيين من الأرض للسماء حيث يطوف دانتي مثلا في الكوميديا الإلهية في الجحيم والمطهر والجنة. [20]

ولكن ترى ألا يمكن أن يكون المقصود»بالوجه الذي قال لي بالصمت تعال» في اللاشعور هو وجه تلك الفتاة من الملائكة، وجه الفتاة النوراني التي تجلت لي وأنا أرقص وأدور مع الدراويش الصوفيين وسط قوس قزح قبل عشرات السنين، وحين جاءتني وأشارت إليَّ بأن أتبعها سقطت إلى أرض الواقع مغشيا علي؟

> ما يشبه الحب
> «من شفة أولى روتني
> جبروت الحب
> عاشرت الأحمق والقاسي
> ما كنت لهم إذ أحضنهم
> لكن بهم أو عبرهمو
> عانقت الحب»[21]

الوضع الاقتصادي الصعب في العائلة وما يعتمل من طموحات وتصورات غير واقعية في ذهن الشاب بداية مرحلة المراهقة دفعاني إلى ترك المنزل والسفر إلى لبنان بحثا عن عمل، وكنت قد بدأت بكتابة الشعر بشكل أفضل كلغة وإيقاع لكنه كان ساذجا بالطبع، وكان دفتري الشعري رفيقي.

ذهبت بصحبة صديق لي في الحارة اسمه تيسير يعمل في البناء «باطنجي» لم نفلح بإيجاد عمل في بيروت لكن أحدهم وجهنا إلى قريبه «خطار» في منطقة رويسات صوفر القريبة من عاليه، عملنا عنده وهو متعهد بناء، واستأجرنا غرفة في بلدته الصغيرة واسمها على ما أذكر «مجدل بعنا» في رويسات صوفر عملنا صيفا في مقاولات بناء صغيرة لصالح «خطار» قرب فيلا جميلة تسكنها أسرة لطيفة أبدت اهتماما بنا، ونشأت صداقة ودية مع ابنتهم (ص) تصاعد الود بيننا، وبتنا نتبادل النظرات والابتسامات التي تحكي الكثير، وبدأت كما تفعل المراهقات تكتب لي الرسائل الحارَّة وتدسها في جيبي إن لم يكن أحد بقربنا، أو تضعها بالقرب مني دون أن يلاحظ أحد فأسارع بأخذها أيضا قبل أن ينتبه أحد، وكنت كمراهق أجيب بأحر منها، وأزين الرسائل بأبيات شعرية آنيّة، كانت هي ربما في الثالثة عشرة من عمرها، وقد بدأت تنضج ويشمخ نهداها بكبرياء نحو الأعلى، وكانت كما يبدو فخورة بهما، وتحاول أن تفهمني باعتزاز أنها بدأت تلبس منهدة، وكنت في الرابعة عشرة من عمري، ولكني كنت مكتمل النضوج البدني بقامة طويلة.

في البداية، كنت أخجل كثيرا ويحمر وجهي وأخشى أن تنتبه الأم أو الأب فتحدث مشكلة، وفي الخريف غادر المصطافون المنطقة وقال لي والد «ص» أنه يتعاطف مع وضعي كثيرا وقرر أن يترك لي الفيلا لأعيش فيها بدل أن استمر في دفع أجرة الغرفة البعيدة أساسا في مجدل بعنا، وأضاف هذه الفيلا بيتك إلى الصيف القادم طالما تعمل في هذه المنطقة، وافقت على الفور ورحت أشكره بشكل هائل خاصة أن «ص» أفهمتني أنهم يأتون أيام العطل في بداية فصل الشتاء ونهايته حين لا يكون عليها وعلى أخوتها الذهاب إلى المدرسة، ودَّعت «ص» وأهلها وبقيت في الفيلا التي أُغلقت أبواب جميع غرفها عدا الغرفة التي بقيت فيها وباب المطبخ، وغادر تيسير إلى دمشق وحذرني من أن البرد سيكون شديدا هنا.

استمر العمل في البناء قرابة ثلاثة أسابيع، وكنت أقنن وأقتصد احتياطا للأيام القادمة، ثم بدأ ينقطع العمل لعدة أيام، وبعد بضعة أسابيع أخرى توقف تماما فقد اقتحم الشتاء اقتحاما، قبل ذلك جاءت «ص» مرتين أو ثلاث مع أهلها الذين كانوا طيبين جدا، وكنت ازداد اشتياقا وهي تتأجج كذلك، وكانت أحيانا عندما نصعد إلى السطح تبكي فآخذ رأسها وأضمه إلى صدري، فتهدأ ما دفعني إلى كتابة قصيدة من القصائد الطفولية التي مع ذلك اخترتها من تلك المخطوطة ونشرتها في مجموعتي الأولى بعد سنوات:

> أدمعُ العينِ
> منسابا بروضِ
> الخدِّ أطيابَا
> أدمعُ ذاك يا حُبي
> أم الريحانُ ذوّابا
> سقى الوجناتِ
> أكساها من الأزهارِ
> أثوابَا
> أتيت الطيرُ
> ساقتني إلى
> عينيك أسرابا[22]

نفذ ما ادخرته، وكان فصل شتاء قاسيا وقارسا جدا وما من عمل، وحين لا تعمل لن يكون معك ثمن الطعام، أدركت فجأة أن الحب لا يعوض عن الطعام، والرومانسية مهما تعاظمت فإنها لن تتحول إلى رغيف خبز، وفهمت مدى قساوة هذا الواقع حيث كنت في كثير من الأحيان أنام ومعدتي خاوية، وكنت أضطر أن أطوف على من تبقى في المنطقة من السكان المقيمين، وأسأل إن كانوا بحاجة لمساعدة لقاء مبالغ ضئيلة، وكان بعض هذه الأسر يكلفني بعمل بسيط من الأرجح أنهم اخترعوه لمساعدتي إذ رفضت بشكل حاسم أن آخذ أية مساعدة، أذكر إن لم تخني الذاكرة من هذه العائلات عائلة فياض أو اسم من هذا القبيل على الأرجح، وكان خطار يعطيني بعض النقود على الحساب اللاحق، ولكنه كان يسكن في مجدل بعنا.

ورغم أن المسافة بين رويسات صوفر ومجدل بعنا كانت قصيرة إلى أن الطريق المنحدر إليها كثيرا ما كان يغلق بسبب الثلوج وكنت أستدين من الدكان في ساحة البلدة ما يسد الرمق لأنني أدرك أنني لن أتمكن من تسديد الدين قبل الربيع وبدء العمل، ذات أسبوع نفد الزيتون والشاي وحتى الخبز اليابس، وكانت البلدة مغلقة تماما والثلج متراكم بشكل هائل، ولم يكن بإمكاني الذهاب حتى إلى الدكان التي كانت مغلقة على الأرجح، وبقيت دون طعام ثلاثة أيام، وفجأة لاح لي من النافذة عنقود عنب كبير لم يقطف

كان متدليا في الطرف العلوي من سقالة الدالية بعيدا، ربما لم ينتبهوا إليه نهاية الخريف، وربما تركته « ص» خصيصا، وبالقرب منه عنقود أخر أصغر قليلا، ركضت نحوهما دون تفكير رغم أن قواي كانت ضعيفة جدا، وحاولت التسلق لكني لم أستطع فالعنقود على ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف تقريبا، وكنت أنزلق على العمود الحديدي كلما حاولت التسلق مدفوعا بالجوع إلى أن بدأت أفكر، فأحضرت سلم الحديقة الممدد تحت البلكون الداخلي، وصعدت وأنا أرتجف، وأحضرت العنقودين حيث كانت بعض الحبات قد تغضنت لكن أكثرها بحالة جيدة، أكلت النصف تقريبا دفعة واحدة، وأبقيت النصف الثاني لليومين القادمين ريثما تخف وطأة الثلج وأستطيع الذهاب إلى الدكان وأستدين من جديد بكفالة خطار للتسديد.

ارتفعت حرارتي في تلك الليلة وما من دواء وما من طبيب، وكان هذا الوضع تعميقا لدرس الجوع، فمن لا يملك مالا ليس له في مجتمعاتنا علاج ولا دواء، وضعت إبريق ماء على النار مدركا أنني بحاجة أن أدفئ نفسي وجوفي، أفرغت نصف الماء الساخن في زجاجة كبيرة أغلقتها بإحكام ووضعتها عند قدمي المرتجفتين، ووضعت بضعة حبات من العنب فيما تبقى من الماء لكي تكون هناك نكهة ولا يكون مجرد ماء ساخن، وضعت كمية كبيرة من الحطب فوق الجمر، وكان الموقد أهم صديق في ليالي الشتاء هذه، وأنقذني عمليا رجل شهم من بيت «فياض» لا أذكر بدقة فقد مر على هذه الحادثة ستون عاما، مر ليتفقد أحوالي في هذه العاصفة الثلجية التي انتهت ولكنها كانت مريرة.

شعر بسوء حالي، ومن حسن حظي أنه كان يعرف قليلا بالطب الشعبي، أو أن الحياة في الجبال علمته، فذهب من جديد وعاد وبصحبته زوجته ومعهما بطانيتان إضافيتان ووعاء به حساء ورغيف خبز كبير ومجموعة من الأعشاب الطبية، لم يكن لدي أية رغبة في تناول الطعام رغم جوعي، وكنت أتصبب عرقا، اهتم بي الرجل وزوجته ثلاثة أو أربعة أيام إلى أن بدأت صحتي تتحسن، فزارني الرجل الطيب وارتاح لأن وضعي بات جيدا، وأضاف: «ذكرت لي أنك جئت بهدف العمل لتساعد أسرتك، وحين أسمعتني بعض الأشعار الجميلة وأنت في هذا العمر أدركت أن لديك قابلية جيدة للدراسة، هناك يا بني المستقبل إن كنت تريد مساعدة أهلك حقا، إنني أنصحك بأن تغادر مع بداية الربيع الذي سيحل قريبا وحين تفتح جميع الطرقات، فعمل الناطور لا يليق بك مهما كان الأجر» تساءلت أي عمل ناطور وأي أجر؟ سأل بدهشة: « ألا يعطيك أبو «...» - يقصد والد «ص» أجرا لقاء حراسة الفيلا ؟» قلت باستغراب: «حراسة؟ إنه أكرمني بأن تركني أعيش في الفيلا وبدون أن أدفع أجرا عنها « فنهض وقال بصوت عال: «إنه يعطي مبلغا كبيرا من المال لمن يوافق على حراستها طوال الشتاء بهذه الظروف المناخية».

وقعت كلماته كالصاعقة على رأسي، ورحت أتذكر كيف كنت أشكره بنوع من الابتهال والعرفان بالجميل، وبت أستعرض شريط الحالات التي مرت أمامي وكانت تدفع إلى الشك في تعامله مع الشركاء والزبائن، فهو في نهاية المطاف رجل أعمال وصاحب مقاولات واستثمارات، وشعرت أن الدرس الطبقي قد أوغل في روحي.

بعد بضعة أسابيع، بدأ الربيع وبدأ العمل من جديد والعمل في الربيع غالبا يكون ذا أجر مرتفع كونه يجب أن يتم بسرعة قبل موسم الاصطياف، ورغم أنني قررت العودة إلى دمشق، لكنني تابعت العمل مع خطار الطيب المخلص حتى سددت جميع ديوني، وجمعت مبلغا بسيطا من المال، فذهبت إلى عالية واشتريت بطانية جميلة وقدمتها

إحدى أمسيات أيمن أبو الشعر

للرجل الشهم وزوجته اللذين اهتما بي أثناء الحمى، واشتريت ألبوم صور فيه لوحات جميلة لإهدائه «لحبيبتي» حيث كانت «ص» مولعة بالرسم، وانتظرت بفارغ الصبر قدوم أسرة «ص» لكن قدومهم تأخر إلى أن انتهت الامتحانات المدرسية وبدأ الصيف عمليا.

كانت «ص» فرحة إلى درجة غير عادية فهي قد نجحت «لم أعد أذكر ربما إلى الصف السابع» وهي ستلاقي حبيبها بعد انقطاع طويل، لم أشأ أن أفسد فرحتها هذه، ولكني شعرت بحيرة هائلة وبت مشتتا بين أفكار عديدة، فهذه الطعنة الغادر الاستغلالية التي وجهها لي والدها لا علاقة لها بها نهائيا، بل والأغلب أن لا علاقة لأسرتها الطيبة بها، ولكن استمراري بات مستحيلا، والعلاقة لا مستقبل لها حتما كما أنني شعرت بأنني ضيعت عاما من حياتي الدراسية نتيجة شطحة مغامرة في حلم تحسين الوضع الاقتصادي للعائلة، وكانت نصيحة الرجل من آل فياض صحيحة تماما.

فوجئت بأن شقيقة «ص» الكبرى تقول لي همسا اصعد إلى السطح هناك تنتظرك «ص» انشدهت وقلت أنت تعرفين. قالت بابتسامة الكل ما عدا الوالد يعرفون، صعدت بسرعة وقدمت ألبوم صور اللوحات لها وقلت بشكل احتفالي خصيصا»: إليك

هذا الألبوم الصغير يا عزيزتي هدية متواضعة لنجاحك الجميل»، أخذت الألبوم ضمته إلى صدرها للحظات ثم وضعته جانبا واستندت إلى الجدار أغمضت عينيها وقالت: قبّلني، كان ثغرها أحمر فاقعا وكلثوما شهيا إلى درجة غير عادية، كان مكتنزا يشبه حبة كرز كبيرة، ترددتُ فكررت طلبها، قبّلني، قلت لها:خايف، ثم فتحت عينيها قليلا وقالت: جبان يا حبيبي، وشدتني من ذراعي وعانقتني، وكانت تلك أول قبلة حقيقية في حياتي، لم أكن أتخيل أن القبلة يمكن أن تُشعر المرء بالخدر، لكنني تخدرت فعلا وتلاشى وزني للحظات كادت تدخلني في قوس قزح لكنني تماسكت.

في تلك الليلة لم أنم وكتبت قصيدة رغم بساطتها لكنني نشرتها بعد سنوات في مجموعتي الشعرية الأولى «خواطر من الشرق» بعنوان شوق وقبلة كونها من القصائد الأولى التي انبثقت عن تجربة حقيقية نعم هي بسيطة، ولكنني كتبتها وأنا في الرابعة عشر من عمري! وإذا لاحظتم فإن بنيانها العروضي يمر على تخوم بين الكلاسيك وشعر التفعيلة:

”

جبانُ حبيبي
أما قد وعدتَّ بِضمّي حنيناً
إذا البعدُ ولّى... وكانَ اللقاءْ
أما قلتَ تلثمُ ثغري بشوق
أما قلتَ تلهبُ منّي الدماءْ
وجئتَ حبيبي فأينَ الوعودُ وأينَ الوفاءْ
أتيتَ تُحمْلِقُ في ناظريّ
وتنفخُ حولي دخانَ اللفائفْ
وتسرحُ في الصمتِ والشوقُ يحكي
يقول اعتصرني وقبِّل شفاهاً
تكادُ تنامُ عليها السوالفْ
أتبدو حييـاً كطفلٍ بريءٍ
يحارُ ويرنو يعضُّ أناملَ كفيهِ خائفْ
أيغدو حبيبي من اللثمِ خائفْ
فأقبلُ والدمعُ شوقاً
على الخدِّ جارفْ
أطوِّقُ خصراً نحيلاً بزندي
فتلوي بغصنٍ من القدِّهايفْ
أقبِّلُ منها الجبينَ حنواً
ويهمسُ وداً من القلبِ هاتفْ
أخافُ إذا ما لثمتُكِ شوقاً
فلابدَّ ثغري يُذيبُ الشفايفْ[23]

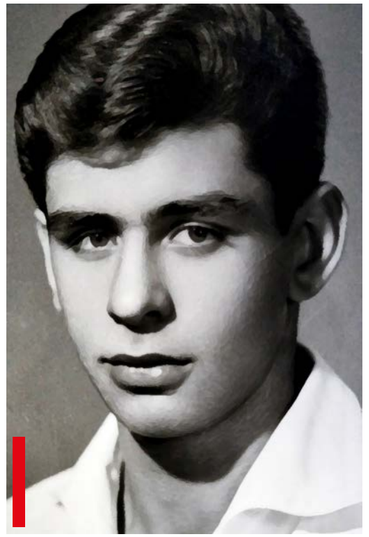

ورغم أن فورة الحب هذه كانت مجرد عاصفة مشاعرية سرعان ما طواها النسيان مع بداية نضج الشخصية فكريا بالدرجة الرئيسية، إلا أن بروقها ظلت تشع بين حين وآخر، ولهذا كما يبدو انعكست أصداء هذه القبلة في العديد من قصائدي لاحقا حتى أنني وظفت هذا الإحساس غير العادي في قصيدة وطنية، ولكن من منظور رمزي تماما آخر يحمل معنى التلاقي مع الحبيبة الوطن بعد سنوات عديدة من الفراق القسري والقهر، وأدركت فيما بعد – وهذا كما أعتقد هام جدا- أن التجارب المشاعرية يمكن أن تنبت فجأة في صور شعرية جميلة لكنها مغايرة تماما لمنشأ وظروف الحالة المحددة التي ولدت تلك الصور، ولنقفز إلى الأمام مرة أخرى لبضع عشرات من السنين،ألا يمكن أن يكون هذا المقطع انبثاق عفوي عن تلك التجربة ولكن بتوظيف آخر،حيث يبدو اللقاء مع الوطن قبلة لا يمكن لأية شفاه مهما أتقنوا رسمها أن تكون بديلا عنه:

”

لأوَّلِ قبلةٍ أشتاقْ
لقد شدوكِ عن صَدري
وشالوني عن الشفتينِ محمولا
وغطّوا بالأهازيجِ ارتعاشاتيَ
وحبرُ زائفُ الأنباءِ قد رشوهُ معسولا
وكم رسموا شِفاهاً كي تشا غِلني
وحسّي كانَ مغلولا
لثمتُ لثمتُ من ألمي
وما زالتْ بثغري نكهةُ الإشراقْ
طعمُ القبلةِ الأولى[24]

المصادر:

[1]تود الفرد هنري 1854-1925 كاتب أمريكي يكتب بظلال فلسفية أدبية اجتماعية من مؤلفاته فن اللامبالاة وكتاب سحر الترتيب

[2]كتاب مت فارغا – تود هنري-ترجمة عمر فايد صفحة 8

[3]البير كامو روائي وفيلسوف فرنسي مولود في الجزائر ومن أشهر كتبه أسطورة سيزيف التي تتناول عذابات سيزيف في تنفيذ عقوبة كبير الآلهة بأن يرفع الصخرة من سفح الجبل إلى قمته ومن ثم تتدحرج إلى الأسفل كرمز لعبثية الحياة ولكن كامو يتناول الأسطورة في انعكاسها على حياة الناس الذي يتحولون إلى أبطال في الصراع رغم معرفة وإدراك المصير.

[4]انظر المثال بتفصيل أوسع في الصفحة 240 في كتاب مت فارغا

[5]للتوسع انظر: «القطط في الأدب كل قط تحفة فنية – جريدة الصباح الجديد»

[6]بيتنا الطيني في زقاق الأولياء والصورة الأولى مأخوذة من منتصف الحارة (صورة)

[7]»نم نم، نيهنيه» بلهجة الأطفال الصغيرين جدا تعني أريد أن آكل...

[8]في الإرث الميثيولوجيوالإسطوري عموما شواهد عديدة على تأصل هذه القناعات لدى البشر:

أ-ففي الأساطير اليونانية كثيرا ما تقوم الآلهة بمسخ الكائنات كما فعل زيوس بامرأة من البشر اسمها ايو أحبها فحولها إلى بقرة لكي يتملص من مراقبة زوجته هيرا التي اكتشفت ذلك فأبعدتها...

ب-وفي الأوديسة تقوم الساحرة تسيرس بمسخ رفاق أوليس – «أوديسيوس» البحارة إلى خنازير وتجعل أوليس عشيقا لها

ج-اتظر معنى مسخ في مختلف القواميس العربية فهو يشير إلى التحول من هيئة إلى أدنى منها وغالبا من هيئة إنسان إلى هيئة حيوان

د-وفي القرآن الكريم هناك آيات تشير إلى ان الله عندما غضب من بني إسرائيل مسخهم إلى قردة وخنازير كعقوبة لهم على معصيتهم «انظر سورة المائدة «60-59»

[9]حارة زقاق الأولياء الشعبية وقد تجدد عدد من بيوتها (صورة)

[10]العفاريت تحكم المدينة نجيب محفوظ

[11]الجنية لغوغول رائد الواقعية الروسية

[12]سوق قديم عريق في دمشق القديمة وهو مشهور ببيع البذور والتوابل والسكاكر بمختلف أنواعها وهو عقدة الوصل بين عدد من أسواق دمشق القديمة

[13]كان الفرنك أواسط الخمسينات ذا قيمة شرائية جيدة نسبيا وبإمكان المرء أن يشتري بربع ليرة كيلو بندورة وكيلو بطاطا معا...الليرة عشرون فرنكا

[14]وعاء للرماد والجمر كان يستخدم في الشتاء للتدفئة وقد استمر استخدامه بشكل خاص لدى الأسر الشعبية الفقيرة ويستخدم كذلك للشواء (صورة)

[15]عبارات يرددها الناس البسطاء عادة لكي يحتاط الجن ولا يؤذونهم وخاصة حين يسكبون ماء حارا في البلاليع حيث كانت هناك قناعات بأن الجن تعيش في الحفر والبلاليع

[16]أنطولوجيا الشعر السوفييتي- أيمن أبو الشعر صفحة 155والمقطع للشاعر الفيلسوف الصوفي الروسي فلاديمير سولافيوف رائد المدرسة الرمزية1900-1853

[17]المولوية إحدى الطرق الصوفية ويطلق على أصحابها لقب الدراويش، وقد أسسها الشيخ جلال الدين الرومي 1273-1207 وهو شاعر مبدع يؤكد على المحبة والتسامح طريقا للحياة وتعتمد المولوية على الدوران في الرقص الذي يترافق مع الإنشاد وتهدف إلى الوصول إلى الصفاء الروحي
https://www.youtube.com/watch?v=nTiKFgy8s3w

[18]مجموعة خواطر من الشرق شعر أيمن أبو الشعر صفحة 17

[19]مجموعة الثلاثيات شعر أيمن أبو الشعر صفحة 53

[20]الشاعر الإيطالي دانتي أليغييري1321-1265 وتتألف للكوميديا الإلهية من مئة أنشودة في 14233 بيتا من الشعر تصف رحلة الشاعر المتخيلة لمدة أسبوع في ممالك الآخرة الثلث الجحيم والمطهر والجنة وتعتبر من أروع الأعمال الملحمية الإبداعية

[21]شعر ريما كازاكوفا أنطولوجيا الشعر السوفييتي- ترجمة ودراسات أيمن أبو الشعر صفحة 531-530

[22]مجموعة خواطر من الشرق صفحة 52 - (الصحيح منساب وفي البيت الثاني ذواب ويبدو أنني نصبت على تقدير فعل محذوف «أرى» وبالتالي تكون «أدمعَ العين» وحالة الرفع هي الأصح ولكن خبرتي القواعدية كانت بسيطة آنذاك)

[23]خواطر من الشرق صفحة 50

[24]الحب في طريق المجرة شعر أيمن أبو الشعر صفحة 100-99

الحاجة أم الاختراع

الانغماس بالنضال وسيلة للنسيان

«كل إنسان يحلم بتغيير العالم، لكن ما من أحد يفكر بتغيير نفسه «ليف تولستوي»

عدت إلى دمشق وتابعت الدراسة، واستعدت اهتماماتي الشعرية والموسيقية من خلال تعلمي العزف على العود، وبدأت أولى الخطوات في النشاط السياسي عبر اتحاد الشباب الديمقراطي، وفشلت علاقة حب جديدة وليدة،ورغم أنها كانت أكثر جموحا من الأولى، ولكن فشلها هذه المرة يعود إلى المفارقات الفكرية الصارخة، فقد كانت «ف» ألمعية جميلة حيوية ومناسبة إلى حد كبير، ولكنها كانت من أسرة متدينة، وهي مطواعة للأسرة في حين كنت قد انغمست في النضال والفكر اليساري، وحاولت مرارا أن أشدها إلى دربي وفكري، وكتبت لها العديد من القصائد ثم مزقت معظمها، ونشرت القليل من هذه القصائد في مجموعتي الأولى، ويبدو أن موقفها آلمني بشكل حقيقي ما يفسر تحول الغزل السابق إلى هجوم وهجاء قاس لا يمكن أن أقدم عليه بعد سن النضوج:

”

يا لوحةً أفنيتُ عمري
حائراً متسائلاً عن لونها
ا لمُتقلِّبِ

من أنتِ يا حمقاءُ لولا آيتي
أنتِ الإطارُ ببُرده المتخشِّب

أنتِ البلاهةُ والغرورُ وفكرةٌ
جوفاء تحيا دونَ فهم
المذهبِ

هذا فُراقٌ لا تلاقيَ بعدَهُ
فالهجرُ دربي والتباعُدُ
مَطلبي [1]

عندما عدت بعد سنوات إلى تلك القصائد شعرت بالأسى طبعا فمثل هذا الهجوم الشنيع على فتاة كانت تبادلني الحب لكنها انكفأت بتأثير واقعها الاجتماعي المتدين يعني أنها ضحية وليست مذنبة.

أنقذني من الغوص في هذه المعاناة أو الوصول إلى حالة الاكتئاب أنني بت أشارك في نشاطات عديدة، وكنت أبدو منغمسا ومهموما، وأذكر أن أحد الرفاق المخضرمين قال لي: «أن كل إنسان يحلم بتغيير العالم لكن أحدا لا يفكر بتغيير نفسه»، فسألته عن قائل هذه العبارة فقال: «العظيم تولستوي» لم أكن قد قرأت تولستوي في تلك العمر المبكرة، لكن اسمه انحفر في ذاكرتي، وفكرت في أن تغيير العالم يبدأ فعلا بتغيير الإنسان لنفسه، ومن الواضح أن الانغماس في العمل النضالي ساعدني كثيرا في تجاوز الهموم الوجدانية العاطفية، وخاصة إبان إقامة دورات تثقيفية للشباب في الأحياء الشعبية، حيث كنا بحاجة إلى هذه التحضيرات لنوسع من ثقافتنا الفكرية، فكنا نقرأ هذا الكتاب أو ذاك ونلخص أهم أفكاره، ومن ثم نطرحه ونناقشه في تجمعات شبابية صغيرة، وكنا نهتم بشكل خاص بالفئات العمالية التي كان معظمها في الواقع من «الصنايعية» الذين يعملون لدى الحرفيين.

لفت نظري في الاحتفالات أثناء المناسبات النضالية المختلفة كعيد الجلاء وثورة أكتوبر وعيد العمال العالمي ناهيك عن النشاطات الاجتماعية التي تكون الرحلات جزءا منها، أن المشاركين وخاصة في الرحلات كانوا يرددون أثناء الطريق إلى المكان المقصود بضع أغان وأناشيد وطنية محدودة ويكررونها أكثر من مرة، ويضطرون أحيانا إلى تغيير بعض الكلمات في الأغاني من ذلك أغنية جديدة آنذاك لوديع الصافي خضرا يا بلادي خضرا حيث كنا نغنيها حمرا يا بلادي حمرا، ونغير في صياغتها بما يناسب طموحاتنا.

شعرت أن هناك ضرورة لإغناء هذا الجانب، وكان أول نشيد لحنته وأديته على العود هو ثائرون، وكان ذلك على الأرجح بداية النصف الثاني من الستينات حيث كان نضال الشعب الفيتنامي على أشده حسب كلمات النشيد نفسه، وأسعدني أنه انتشر كالنار في الهشيم، وبات يتردد في الرحلات والمناسبات كثيرا. [2]

كان ذلك أول عمل نوعي يؤكد لي أن على المناضل ابتكار وتطوير أساليب النضال حتى فنيا، فبت أكتب مقاطع شعرية توجيهية في إطار حوار عفوي، أو أستخدم بعض قصائدي الأولى التي تقترب كثيرا من الأحاديث البسيطة،ولم تكن قد تجلت فيها روح يسارية واضحة فكانت تفيد في طرح مضامين متباينة وخاصة القصائد التي كتبتها عن تجارب شخصية مبكرة، ولكنني بت أستخدمها بتوظيف جديد كمقاطع للحواريات، وأكلف بعض الشباب بتأديتها وكأنها ارتجال في الطريق، مثلا يقف شاب في مكانه ويطرح أشعارا غرامية يبحث فيها عن حبيبة وطنية تتحمل شظف العيش والفقر، فتظهر فتاة بعد بضعة صفوف من المقاعد، وترد عليه بأنه إن كان يبحث عن حبيبة حقيقية، فعليه أن يكون هو مناضلا كي تحبه فتاة مناضلة، ولكي يكون هدفهما ليس مجرد الزواج والسعادة الشخصية بل النهوض

بالمجتمع ككل، فيقف رفيق آخر في عمق الباص ويرشدهما بمقطع شعري إلى طريق السعادة عبر مزج الحب بالنضال .

تكاثرت مثل هذه القصائد التي صيغت خصيصا لتكون جانبا من حوار، ثم تطورت لتغدو مشاهد تقدم في أماكن الاحتفالات، أو منصة نشاطات بعض تلك الرحلات، وتطور ذلك ليغدو اتجاها رئيسيا دفعني لكتابة بعض الأعمال المسرحية البسيطة من فصل واحد ومن ثم من فصلين، وكانت المحاولات ضعيفة فنيا في البداية، وتحمل طابعا تحريضيا توجيهيا وتثقيفيا لكنها حيوية جدا.

للأسف ضاع معظم تلك النصوص، ومن حسن الحظ أنني نشرت بعضا مما تبقى عندي من تلك الحواريات الشعرية والقصائد بداية السبعينات في مجموعتين هما خواطر من الشرق والمجد للصمود ومعظم القصائد في هاتين المجموعتين بالطبع لها طبيعة مباشرية وخطابية رغم أن بعضها كان على مستوى معقول فنيا.

تجربة صمود التعذيب وابتكار حجر اليافطة المعلقة

> «حسبوه سيساوم عندما يدنو المصير وجدوا حرا يقاوم وهو في النزع الأخير»
>
> من أغاني الشيوعيين عن شهداء التعذيب في السجون

كان علينا أن نجرب كل شيء بما في ذلك امتحانات الصمود تجاه التعذيب، هو أمر أشعر ببعض الإحراج في تناوله لطبيعته الصبيانيته، ولكني سأطرحه لأنه رغم الطابع الساذج في مجمل أجوائه يشير إلى أننا كنا منتمين بكل خلايانا إلى الفكر اليساري، وكأن أرواحنا ولدت في قارورة مارد اسمه النضال في سبيل غد أفضل، وما إن فتح وعينا الطفولي-المراهق سدادة هذه القارورة حتى غدونا نحن مردتها.

كنا في بعض الأحايين، «وكنا بعد في الخامسة عشر أو السادسة عشر من عمرنا» نقرأ ونناقش، ونخطط للنشاطات، ثم خطر ببالنا تجريب مدى صمود كل واحد منا، تخيلوا ! بمعنى إن اعتقلوك وعذبوك في السجن كم ستصمد، وكنا نوزع الأدوار متقمصين بالتسلسل دور الجلاد السادي ثم دور السجين بحيث يمر الدور علينا جميعا، «ضاربين ومضروبين» ونبدأ بضرب الذي يمثل السجين اليساري ونمثل دور الجلادين ونطلب منه أن يعترف بأسماء الرفاق أو مكان المطبعة.

والحقيقة أن جميع رفاق هذه المجموعة أثبتوا صمودا حقيقيا، لكن أهالينا انتبهوا إلى الكدمات وظنوا أننا نتعارك مع الآخرين في الشارع، فأنهينا هذه التمثيليات غير المنطقية، لكننا مثلناها بصدق حقا، هي «صبيانية» طبعا ولكنها تعبر عن جوهر آخر.

من الذكريات النوعية المثيرة أيضا أننا كنا نستغرب جدا موقف السلطات التي تتحدث عن التقدم والاشتراكية ونصفها بالوطنية التقدمية وهي تعتقل الشيوعيين، ولهذا استخدمنا تكتيك المظاهرات الطيارة، وكان منظمو هذه المظاهرات من الرفاق ذوي الخبرة يشيرون علينا بأن المظاهرة يجب أن تستمر خمس أو ست دقائق فقط حسب المكان وابتعاده عن مراكز المخابرات حيث يقيسون المسافة بدقة مقدرين كم تحتاج القوى الأمنية للوصول إليه بعد وصل معلومة عنها من أحد المخبرين.

وقد ابتكرنا أمرا مثيرا بالفعل حيث أعددنا يافطات قماشية طوالية صغيرة يكتب عليها شعار من بضعة كلمات وحسب من مثل «عاشت الطبقة العاملة» أو «الشيوعيون بناة المستقبل»أو «انتزع حقك انتزاعا بالنضال»، وكنا نربط هذه اليافطة القماشية الصغيرة بحبل، ونربط الحبل بحجر وعند بداية المظاهرة الطيارة نقذف هذه اليافطات إلى أسلاك الكهرباء فوق الشارع فيلتف الحبل بقوة الدفع مع الحجر على الكابل الكهربائي وتتدلى اليافطة، «كان الأمر يحتاج إلى مهارة حقيقية في قذف الحجر مع اليافطة».

وبعد دقائق، حيث يكون عدد المشاركين لا يتجاوز الخمسين وقد انضم بضع عشرات من الناس البسطاء إلينا، نعلن بصافرة تشبه صافرة شرطي المرور انتهاء المظاهرة، ولن أنسى ذات يوم أن سيارة الأمن وصلت قبل انفضاض المظاهرة بقليل واعتقل العناصر بضعة رفاق ووضعوهم في سيارة جيب كبيرة بلا أبواب خلفية حيث كان المكان الخلفي معدا لعنصري أمن مع سلاحهم، انفض الرفاق وتفرقوا وإذ بالرفيق «ياسر» يركض وراء السيارة وهو يصرخ:»أنا معهم أنا شاركت بالمظاهرة معهم»، كان يطمح حقا لأن يعتقلوه كي يرفع الرفاق رأسهم بصموده، هذا ليس فلما سينمائيا لقد عشنا هذه المشاعر بكل معنى الكلمة.

ومن المفارقات الجميلة في تلك المرحلة، أنني في الصف الأول الثانوي قدمت لأستاذي محمد الحريري وهو شاعر معروف آنذاك قصيدة كلاسيكية عن عيد الجلاء راجيا أن يقيمها وانتظرت ملاحظاته بتشوق وفي اليوم الثاني حدث ما لم أكن أتوقعه أبدا حيث جاء الأستاذ محمد بوجهه البشوش وكتب على السبورة بضعة أبيات من قصيدتي تلك وراح يوغل في شرحها وتوقف عند بعض الأبيات مليا وخاصة:

> ينسى التغزُّلَ بالمفاتنِ شاعرٌ
> ويطلُّ من فكرِ الصبابةِ غولُ
> متباعدَ الأنيابِ نهمَ مخالبِ
> يحدوهُ نحوَ النابضاتِ غليلُ

إحدى أمسيات أيمن أبو الشعر

حيث أوغل في شرحها مذكرا بدروس البلاغة وتفاصيل الصور وأنا صامت أتعرق ثم سأل الطلاب هل تعرفون لمن هذه الأبيات فراحوا يخمنون وفق الشعراء الكلاسيكيين الذين درسناهم وهو يهز رأسه بالنفي إلى أن قال بكثير من الود هذه القصيدة للشاعر « ايمن أبو الشعر»، لم يقل لزميلكم، لم يقل محاولة من تلميذ في الصف الأول الثانوي، بل قال الشاعر، لقد وضعني بتشجيعه غير العادي هذا دفعة واحدة أمام مسؤولية كبرى.[3]

مضت عدة سنوات في أجواء النضال والنشاطات، كبرنا وكبرت همومنا ومسؤولياتنا، وتوسعت منذ بداية السبعينات نشاطاتي الإبداعية وتواصلي مع الجماهير وتلاحقت قصائدي الثورية، وذات يوم كان علي أن أواجه جمهورا ضخما من مختلف القوى السياسية التقدمية، فقد زارني الرفيق مراد اليوسف «أبو سامي» وكان على ما أذكر عضوا في المكتب السياسي ربما كان ذلك بداية السبعينات، وقال لي أن قيادة الحزب رشحتني لألقي قصيدة في التجمع الجماهيري الذي سيقام في حي القصاع وسيلقي فيها الرفيق خالد بكداش كلمة بمناسبة خوضه انتخابات مجلس الشعب.

كنت متوجسا بعض الشيء، ولكن بعد دقائق بت ألقي ما اخترته مسبقا مع تقديم ببضعة أسطر عن ضرورة دعم مرشح اليسار لمجلس الشعب، ويبدو لي أنها كانت موفقة بشكل عام حتى أن الرفيق خالد بكداش بعد انتهاء المهرجان صافحني بحرارة وقال أحسنت يا رفيق، واقترب مني الممثل هاني الروماني، وكان مرشحا أيضا على ما أذكر وقال لم أسمع قبل الآن شاعرا يلقي بهذه الطريقة المسرحية الرائعة.

سررت كثيرا بالطبع لكن ذلك كان في الواقع تنبيه لي لأطور باستمرار خطابي الشعري، وكأنما التقطت

خيطا هاما جديدا للتواصل مع الجمهور الواسع عبر تقديم الأفكار من خلال الصور، وبناء دراما تصاعدية في القصيدة ومقاطعها، وكأنها عمل درامي حقيقي. وأدركت أن عليّ أن أوسع جانب القص والحبكة والتصاعد للوصول إلى الذروة بمعنى أن العمل الشعري الجماهيري يجب أن يكون له سمات خاصة عبر التصاعد وأن تكون ذروة كل مقطع متجهة نحو التحول النوعي في النهاية أي الخاتمة التي تعطي الزبدة أو الشعار، نعم بحيث يؤدي التراكم الكمي إلى تغير نوعي، الموضوع حساس فعلا وليس بسيطا فالجمهور يود أن يسمع ما يثلج صدره وما يتناسب ونضاله وتطلعاته، وما ألقيته في ذاك الحفل هذا المقطع الذي أشرت في نهايته بيدي إلى الرفيق خالد بكداش ومن ثم ضمنته فيما بعد في قصيدة أصوات من التاريخ مسجلة دون ترتيب:

لاتسألْ أينَ المرفأْ
فبحارُ الجرحِ بلا مرفأْ
لا .. لا تتعللْ بالأشباحْ
من ناموا تحتَ رداءِ الملجأْ
لا تُطلِقْ ألفاظاً جوفاءْ
فشعارُ في غيرِ أوانٍ يصدأْ
إن كنتَ تريدُ السيرَ إلى الشطآنْ
بنفسِكْ إبدأْ
ما بينَ الحرفِ وبينَ الموقفْ
رجلُ المبدأْ[4]

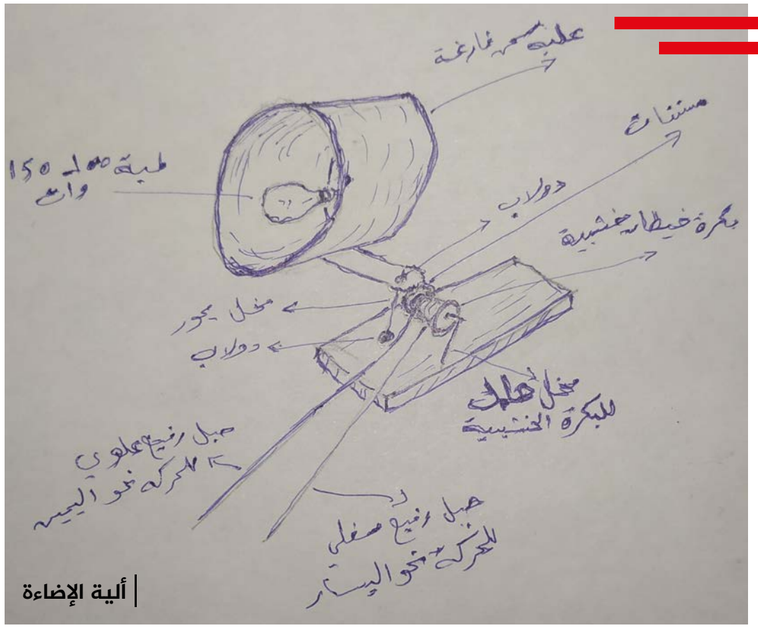

ألية الإضاءة

بيت الأشرفية - بصحة علبة السمن الفارغة: "الحاجة أم الاختراع"

نضجت هذه التجربة بالتدريج، وكان فيها شيء نوعي وجميل ومبتكر، وله خصوصيته الريادية كما أعتقد وخاصة من حيث بساطتها وعفويتها، فقد بدأت في دمشق بتأسيس فرقة فنية من الشباب الديمقراطي، وتابعت هذا المسار حين كنت أعمل في ثانويات حلب كمدرس للغة العربية، فقد تشكل عندي فريق إبداعي واعد جدا من الشباب والفتيات.

في أواسط السبعينات، استأجرت بيتا نهاية حي الأشرفية كان آخر بيت تماما، وبعده برية وصخور، تحول بيتي الذي كانت غرفه كبيرة إلى خلية نحل حقيقية موسيقيا ومسرحيا وسياسيا، وكنا نقيم بعض المسرحيات في البيوت العربية القديمة التي لها ساحاتها الكبيرة وسط الدار ومنصة مرتفعة في آخرها (الليوان) وبجانبها غرفتان، وكانت المنصة تصلح كمسرح تماما، وكنت أقوم بمساعدة الشباب الموهوبين بتأمين جميع اللوازم الفنية بإمكانياتنا المحدودة جدا: بطانيات وحبال وصناديق خشبية، وقطع أثاث بسيطة وورق مقوى وألوان لاستكمال الديكور بلوحات تعبيرية.

كنا نشد البطانيات كستارة، وخطرت ببالي فكرة جميلة وهي استخدام علب السمن الاسطوانية الفارغة كإضاءة موجهة، إذ قمت بتركيب ثلاث علب اثنتان ثابتتان، وعلبة في المقدمة تستطيع التحرك يمنة ويسرة لتتابع حركة البطل ، فقد ركبت في كل تلك العلب الفارغة لمبات -100 أو- 150 شمعة لأن المسافة قريبة، أما العلبة التي في المقدمة فكانت انتصارا حقيقيا لنا، فقد وصلتها بآلية بسيطة لا أدري كيف خطرت ببالي إذ ثبتتها على رقعة معدنية نهايتها نصف دائرية، ألصقتها مثنية بعلبة السمن الفارغة بحيث يبرز نصفها وينزل منها محور قصير وسط دولاب خردق صغير، وبالطَرْق على طرف القطعة المعدنية وبالمبرد وبصبر

سبارتاكوس ينشد معنا

كانت القصيدة الأغنية أهم ظاهرة في سنوات الحرب ضد النازية وكانت فرقة الجيش الموسيقية تعزفها في محطة القطارات أثناء توديع الجنود الذاهبين إلى الجبهة «قصيدة الحرب المقدسة للشاعر كوماتش وألحان الكساندروف»

كبير شكلت مسننا –كان الطَرْقُ يذكّر بسوق النحاسين- وألصقتها مشدودة ببكرة خشبية تلك التي تستخدم للف الخيطان عليها بعد أن حفرت بمنشار رفيع جدا مسننا كذلك في البكرة الخشبية يوازي بحجمه مسنن الدائرة المعدنية، ولفيت عليها لفة واحدة حبل رفيع بات طرفاه عندي على الطاولة التي أقوم من خلالها بإخراج المسرحية، وجعلت نهايته الأولى زرقاء والثانية حمراء.

وحين أشد الحبل من هذا الطرف الأزرق مثلا، تدور البكرة وتدير بتشابكها مع مسنن القطعة المعدنية تدير العلبة إلى اليمين، وإن شددت الأحمر تدور إلى اليسار بالمسافة التي أريدها وقام رفيق نجار خبير بتثبيت كل هذه الآلية وسط العارضة الخشبية الأمامية تماما تلك التي تحمل الستارة.

قد يبدو هذا الأمر بسيطا جدا وعابرا لكنه كان حينها انتصارا كبيرا فرحنا به فرحا مذهلا، ورفعنا نخبا بصحة علبة السمن المضيئة المتحركة[5]، ناهيك عن استخدام الطناجر المعدنية لمقاربة الصدى وتقليد المؤثرات الصوتية وتسجيلها ومن بينها تلك التي تأتي من مظاهر الطبيعة كالرياح والأمطار والشلال وغيرها.

أطلقت على الفرقة التي تشكلت عندي اسم سبارتاكوس تيمنا بقائد ثورة العبيد في روما القديمة، وكان معظم أعضاء هذه الفرقة من الشباب والفتيات الذين كانوا في بداية طريقهم الدراسي في الجامعة. شخصيا لم أدرس الموسيقى، لكني كنت أعرف المقامات والتنقل بينها بشكل معقول نسبيا، وكنت أعتمد على الأذن الموسيقية يساعدني في ذلك وجود فنانين مبدعين رائعين معي كعازف الكمان الموهوب مروان غريبة، والمطرب المبدع فهد يغن، وكنا مقتنعين تماما بأن للأغنية السياسية دورا هاما في شحذ الهمم للنضال متذكرين بأن الفرق الموسيقية كانت ترافق الجنود في معاركهم.

كتبت ولحنت عددا كبيرا من الأناشيد والقصائد ضاع للأسف معظمها أيضا عبر عشرات السنين، ولم يبق إلا ما حفظ في شريط تسجيل وهي: ثائرون الذي بدأت به رحلتي الفنية النضالية، أوديب ثائرا وقد لحنتها على مراحل مع استكمال كتابتها وهي أقرب ما تكون إلى مشهد مسرحي غنائي وقد أبدع في أدائها الفنان فهد يغن، وقصيدة الأممية العاشقة، وقصيدة المجد للصمود في رثاء عبد الخالق محجوب، وقصيدة تل الزعتر، ونشيد الشباب الديمقراطي، ونشيد الشيوعيين، ونشيد الطلائع، ونشيد السلام ثم نشيد تمر المواكب نحو الربيع وأغنية فلنغن يا رفيقة وقد لحنهما الرفيق الفنان المبدع حسن عبد الدين.

ورغم ضياع الكثير منها، أذكر بعضها مثل أغنية درب النصال التي كان مطلعها: «درب النصال المرِّيا قلبي تسير كم حرر الآفاق من سجن أسير» وأغنية عيناك والرايات، وأغنية من كوة الخراب والدمار سيصمد البشر،وأناشيد وأغان كثيرة انتشرت في السهرات العادية مثل نشيد الفلاحين[6].

ومن المثير والطريف، أننا كنا نجتمع أحيانا في الصيف للتسجيل بعد التدريب فنتحلق في دائرة صغيرة ونحيط هذه الدائرة ببطانيات صوفية نربطها بحبال لكي تمتص الأصوات الشائبة وتنقي الأداء، وكثيرا ما كنا نضطر إلى إعادة التسجيل نتيجة التعرق الشديد الذي يصل أحيانا إلى إعاقة الأداء خاصة أن آلة التسجيل كانت بسيطة، وكنا نضطر أن نقترب برؤوسنا منها ما يجعل رؤوسنا تصطدم أحيانا وتسبب الضحك أو الإرباك، فنكرر التسجيل أحيانا خمسة أو ستة مرات، وإن كنت في طوافي مع آلة العود على القرى والأحياء الشعبية أقدم الأناشيد والقصائد البسيطة الملحنة بنفسي منذ سنوات سابقة في تجربة متواضعة (تقترب من التروبادورية)[7]، إلا أنني كنت في نشاطات بيت الأشرفية أعتمد اعتمادا كبيرا على المبدعين والمبدعات الرائعين والرائعات في فرقة اسبارتاكوس المتجددة تلك، وكان نجاح هذه النشاطات الثقافية الفنية مرهونا تحديدا بالجهود الجماعية.

فرحان بلبل

تعرفت في تلك الفترة إلى الكاتب المسرحي المبدع فرحان بلبل، وتوغلت في أجواء المسرح بعمق أكثر، ثم تعرفت إلى الكاتب سعد الله ونوس والمخرج فواز الساجر وكانت حواراتي مع هؤلاء مفيدة جدا لتجربتي، وخاصة أن صداقة حميمية قوية نشأت مع فرحان بلبل المسرحي المبدع العريق، وبت أتابع عروض أعماله المسرحية والبروفات التي تعقبها نقاشات حيوية، كما تواصلت أثناء خدمتي العسكرية في المنطقة الوسطى «حمص حماة» مع نادي الفارابي الفني حيث تعرفت إلى الممثل الفنان المخرج سمير الحكيم، وكنت قد بدأت بكتابة مسرحية الأرنب الذئبي التي راقت له كثيرا، وطلب أن يخرجها بنفسه، وقد أخرجها بشكل جميل وأدى فيها دور البطل الثاني «الذات الشريرة»،

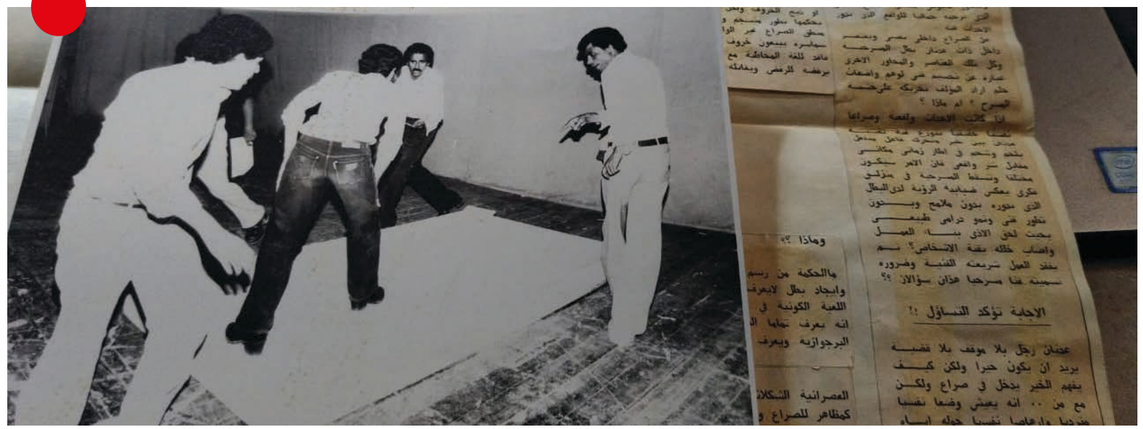

وأدى الفنان التلفزيوني المسرحي عادل شكري دور البطل الرئيسي.

لا بد من الإشارة هنا، إلى أن موجة الهجوم ومحاربة أيمن أبو الشعر في هذه المرحلة كانت على أشدها والاتهامات جاهزة: «مباشري، خطابي، سياسي، شيوعي» وكان المهاجمون يعتمدون على تلك القصائد والحواريات التوجيهية والأناشيد التي بدأت بها نشاطاتي قبل سنوات وهي بسيطة بالطبع فهي مخصصة للرحلات والاحتفالات ومن البديهي أن تكون مباشرية، فالنشيد يجب أن يكون بسيطا وتحريضيا ومباشريا، ولكنهم كانوا يغفلون نتاجاتي الأخرى التي كانت موغلة في الصياغة الفنية الإبداعية كقارع الطبل الزندي وإلى حبيبة تدعى الوطن والصدى وكثير غيرها.

هذا الواقع، شكّل عندي ردة فعل معاكسة، فكتبت مسرحية الأرنب الذئبي التي تفضح الفساد وسماسرة المال والسياسة، ولكن بأسلوب رمزي حيث تجري نصف أحداث المسرحية داخل شخصية البطل عبر صراع نفسي مرير بين منشئه الطبقي الشعبي وواقعه كمستغل بعد أن غدا مسؤولا، وقد أخرجها الفنان سمير الحكيم ولعب فيها دور الجانب الشرير في شخصية المسؤول ولعب دور البطل المصاب بانفصام الشخصية الممثل التلفزيوني عادل شكري بأداء مميز.[8]

ومع ذلك هوجمت المسرحية بشدة، ولكن هذه المرة لكونها ذات طابع سوريالي كما قيل، وبحجة أنه سيكون صعبا على الجمهور استيعابها رغم أنها لا تمت للسوريالية بصلة، ونتاجات الصراع النفسي معروفة حول ازدواجية الشخصية في علم النفس والأدب والنماذج في هذا المجال عديدة منذ القدم وقبل فرويد بكثير، بدءا حتى من أوديب لسوفوكليس[9] الذي يعيش صراعا نفسيا مريرا ويظهر هذا الصراع النفسي بشكل أوضح لدى هاملت لشكسبير،[10] لكنه يتجلى بسطوع في شخصية راسكولينكوف لدوستويفسكي،[11] ولكن من يستطيع أن يقترب من هذه الأسماء العملاقة منتقدا؟

بعد سنوات عديدة، ذكر لي محمود درويش في موسكو بوجود السفير الفلسطيني آنذاك رامي الشاعر أنه كان يواجَه بحدة حين كان يذكر اسمي، واعترف الكاتب المسرحي رياض عصمت[12]، بأنه بالغ في هجومه العنيف على المسرحية (حدث ذلك حين قدم لي إحدى مسرحياته راغبا في أن أترجمها إلى اللغة الروسية وكان آنذاك وزيرا للثقافة)، حينها كرر أن موقفه سلبي من المسرحية لكنه بالغ فعلا في الهجوم مضيفا بأنّ الشيوعي يجب أن يهاجم، قلت هذا اعتراف أم اعتذار؟ فقال مازحا بين بين، فقلت إذن هو اعتذار أو اعتراف.

ضحكنا معا وأردف، نعم تلك حقيقة كان هناك توجيه غير معلن لمحاربة أيمن أبو الشعر، ولكن ليس من الجهات العليا، وكان أروعهم الشاعر النقي الكبير علي كنعان الذي كتب علنا حول ذلك الأمر معبرا عن أسفه لتلك الحقيقة [13].

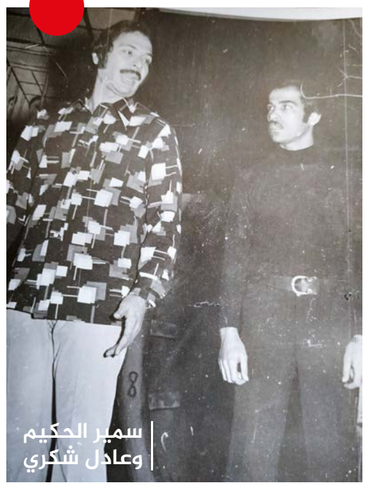

سمير الحكيم
وعادل شكري

التجديد العملي

تابعت تواصلي مع الناس في القرى، البلدات، والأحياء الشعبية قدر الامكان للاقتراب من تجربة «التروبادور» بالفعل كما قال شوقي بغدادي، وكان من البديهي أن تكون هذه النشاطات خارج إطار الإعلام الرسمي لكنها شكلت زخما جماهيريا راح يتزايد باستمرار، وحاولت تطوير تجربتي الفنية بعيدا عن الإبهام بل باعتماد نمط خاص مع الحفاظ على التواصل مع الجماهير وألخص هنا باختصار أهم ملامح هذا التجديد الذي اعتمدته بما يلي:

استخدام المصطلحات العلمية

وفي هذا المجال استخدمت -بتوظيف خاص ظل قريبا من ذهن الناس- المصطلحات الرياضية والفيزيائية والكيميائية وحتى الفلسفية:

”

معادلة للأرض والثورة

س= الحب مرة

ع= الموت مرة

ص= النصر ثورة

(س ع)ص= الأرض حرة

[14]

واستخدمت كذلك المخترعات والمعطيات الفيزيائية والكيميائية لتفسير كنه لوجود أو توضيح المفارقات بين أطراف الصراع كما في قصيدة غازان كهربة فماء، وفيها استخدام لنظرية «الخطان المتوازيان لا يلتقيان»كتعبير عن المفارقة الهائلة بين الخيانة والوطنية:

خطّان يا حبي
ولا يوما هما
يتلاقيان
حتى ولا
يتقاطعان
خطٌّ توهَّج جامحا
نحو البداية
ليُعيد تنقيط
الحكاية
والأخر الفضي
نحو اللانهاية
ليضيف فصلا
بعد فصل في
الرواية[15]

وكذلك تداخل المعطيات الفيزيائية والكيميائية في رصد الألوان فحين يتمازج اللونان الأصفر والأزرق (كيمياء) نحصل على الأخضر، واستخدم هنا الرفيف لعملية المزج والظهور الجديد عبر الضوء (فيزياء):

ريشها الأصفر
غطى طيرها
الأزرق أغرق
وهو غطّاهارفيفاً
عاشقاً حتى تألّق
فبدا في العشِّ
طيرُ أخضرُ لا غير
يعبَق[16]

ناهيك عن استخدام بعض المصطلحات الفلسفية بما في ذلك في إطار المادية التاريخية سواء في عناوين بعض القصائد القصيرة أو في النسيج الشعري الذي يستفيد من بنيتها كقصيدة علاقة جدلية أو قصيدة ديالكتيك في مجموعة صندوق الدنيا [17] أو حتى معطيات الكون، الأمر الذي كان يحيرني منذ الطفولة حول المعاني الواقعية للانهاية أو اللابداية وحقيقة كنه الزمان وماهية ما بعد الكون فكل التفسيرات في هذا المجال لا تخلو من تقدير وافتراض.

من هنا، عمدت إلى ابتكار بعض الكلمات عبر مزج المصطلحات من مثل «البدنهاية» أي تواصل البداية والنهاية في الثلاثيات [18]، أو ككلمة «مزمان» في قصيدة ناول شقيقك يا عمر في مجموعة انتحار الدلفين، كما استخدم في القصيدة التي تحمل اسم المجموعة كلمة مبتكرة تماما « غرشمجنوق» كتعبير عن الفوضوية واختلاط مسارات الاتجاهات الأربعة وكذلك كلمة «الزمكنة» كمزيج للمكان والزمان :

غربا... شمالا... أو جنوبا للشروق
غرشمجنوقُ طلاسمُ بين الحروفِ
مُلوَّنة
غرشمجنوقُ مسافةُ ما بين أنبلِ
نبضةٍ
في القلب تندى والتحولِ خائنة
غرشمجنوق وحين بوصلةُ الوفاءْ
تتخطّى الزمكَنة
فالمسافةُ مُمكِنة[19]

وفي قصيدة الدخول في مرآة الزمن نجد كلمات ومصطلحات علمية تدخل عمليا في صلب النسيج الشعري (الجهد، الطاقة، التيار، السلك المشحون، الوشيعة) كما في رصد عملية إعدام العاملين المناضلين ساكو وفانزيتي بالكرسي الكهربائي في أمريكا:

”

حين الجهدُ الطاقةُ للرجلِ الحُرْ
تسري صعقاً في تيارِ العُمرْ
والسلكُ الشعبُ المشحونُ
يُغذي المصباحَ المُعتِمَ باسمِ الصبرْ
تحترقُ وشيعةُ ثغرِ الفجرْ
وتصيرُ القيمُ جميعُ القيَمِ
تساوي الصفر[20]

ولا بد من الإشارة إلى ثلاث قصائد نوعية تماما تجسد بشكل أوسع عملية التجديد التي اختطيتها أشير إلى أهم تقنياتها باختصار، ففي قصيدة الصدى قصة رحلة متخيلة لحبيبة داخل جمجمة حبيبها الشهيد، تدخل كرغبة أو أمنية من العين المقلوعة في محاولة لمعرفة ماذا كان يود أن يقول قبل مماته، وكأن القصيدة تستخدم تقنيات النانو منذ ذاك الوقت، حيث تدخل الحبيبة مع «طيف» حبيبها في هذه الجمجمة عبر الشرايين وتنزلق على الأعصاب، وتختبئ من «قوى الشر والظلم»- الجراثيم والفيروسات في الكريات البيضاء- «القوى المحبة للسلام التي تناضل ضد قوى الشر».

هذه الفكرة ولكن بعيدا عن التوظيف السياسي، تمت مقاربتها سينمائيا في فيلم الرحلة العجيبة لريتشارد فليشر حيث تدخل غواصة متناهية الصغر في جسم عالم ذرة لمعالجته [21] وقد عرض الفيلم بعد 14 عاما من كتابتي لقصيدة الصدى التي تعتمد على جهاز إيكو الذي يردد نهايات الكلمات فتظهر كلمات جديدة غير موجودة في النص في تقنية مميزة لم يسبقني إليها أحد كما أعتقد، وهي مبتكرة لتجاوز مقص الرقابة بحيث تعطي مضامين جديدة لم تكن موجودة في نص القصيدة، وهي ترتبط ارتباطا عضويا في مسار القصيدة التي تتحدث عن حرب تشرين ومدى التضحيات وقسوة الخيانات:

”

تلمح فيروساً يكتبُ تقريراً
وتسارعُ جرثوماتٌ تحملُ فَلَقاً
وهراواتٍ نحوَهما
ومذكرةً للتوقيفِ بحقِهما
باسمِ الأمنِ المُخيِّ بتهمةِ نبشِ الماضي
ومسلسلةً حسبَ أصولِ القانونِ بختمِ المختارِ
وحتى توقيعِ القاضي
يختبئانِ بإحدى ثنياتِ المُخِّ
وينحدرانِ سِراعاً
متخفينِ بثوبِ كرياتٍ بيضاءَ تُشرنِقُ حولَهما[22]

أما في قصيدة الحلم في الزنزانة السابعة والتي تتحدث عن نضالات اليساريين وصمودهم في السجون، فقد جاءت كتمجيد لتلك البطولات ورصدها في ملحمة شعرية تتحدث عن الأحلام التي ترواد سجين يساري يتعرض لكل أنواع التعذيب ويبقى صامدا، وأستخدم فيها الإسقاطات والفلاش باك والمشاهد شبه السينمائية في إطار حلمي ورؤى تتمازج بين الحلم والواقع بما في ذلك بنية وطبيعة الصورمع تصاعد دراماتيكي يصل مداه في التعبير عن مواقف هذا الجيلكتجلٍّ لمواقف فكره ومناداته بوحدة جميع القوى التقدمية وبين حين وآخر أستخدم اللغة الحلمية والكلمات الموحية المبتكرة وحتى الصفير:

> بابُ الزنزانةِ تاريخٌ حفرتْهُ أصابعُ مخضو بةْ
> والأرضُ جليدٌ مسعورُ
> والسقفُ نزيزٌ ورطوبةْ
> لا وقتَ الآن لغيرِ النوم
> حذارِ ستصحو أيامي
> نامي... نامي
> هويا ... هويا...
> هيا افتَرشي صدري نامي
> غيبي تحتَ الجلدِ ومُرِّي خدَراً بينَ عظا مي
> لكن نامي... هويا هوفي ... نامي
> «صفير على إيقاع هوفي»[23]

محاولة الاغتيال

أما قصيدة قارع الطبل الزنجي، فقد اعتمدت في بنائها كقصة شعرية رمزية تمثل اضطهاد الفرد والمجتمعات طبقيا وعنصريا عبر استخدام خاص للإيقاعات التي تعبر عن الحالات النفسية، فتكون عادية أو بطيئة لدى التأمل والتذكر والسرد، وتغدو متلاحقة كوقع الطبول إبان النوبة القلبية التي تقضي على قارع الطبل الزنجي [24].

عموما يمكن القول، أن انتمائي الفكري أنقذني من الغرق في الغموض لأني أؤمن أن للأدب دوره النضالي وهو الذي حفزني للتجديد، ولكن دون ضياع.

> وعرفت أنني قتلت
> وبحثوا عن جثتي في المقاهي والمدافن والكنائس
> فتحوا البراميل والخزائن
> سرقوا ثلاث جثث ونزعوا أسنانها الذ هبية
> ولكنهم لم يجدوني قط
> لوركا يتوقع إعدامه في إحدى قصائده وبالفعل لم يعثر على جثما نه

لم يجف الشاعر شوقي بغدادي الحقيقة حين قال عن تجربتي وخاصة في السبعينات والثمانيات أنني جئت في زمن غير مناسب وأن العالم كله كان يقف ضدي وأنه كان علي أيمن أبو الشعر أن يشق طريقه متحديا الظروف المعقدة عبر الصراعات السياسية والاجتماعية والثقافية شبه وحيد[25]، ذاك أن الهجوم والتهميش والانتقادات المتلاحقة كانت الأقل شرا عليّ، وكانت أحيانا مفيدة حيث تدفعني لتطوير تجربتي الفنية أكثر، أما القوى الرجعية فقد كانت خطرة جدا كونها متوارية كالأشباح، وكانت تتربص بي، وقد ساءها هذا التفاعل الجماهيري مع ما أطرحه، وخاصة تجاوب الناس مع تحريضي لهم على نبذ التخلف، وكانت ترسل أحيانا أشخاصا لإفساد الأمسيات تعليقات أو هتافات غريبة لكن الجمهور سرعان ما يكشفهم ويسخر منهم.

بعد ذاك، بدأت التهديدات المباشرة التي لم أعرها اهتماما في البداية حيث كانت عبر اتصالات سريعة بالهاتف تحمل صيغة الشتائم والوعيد، وخاصة قبيل الأمسيات ما يعني أن ممثلي هذه القوى باتوا يتابعون يرصدون تحركاتي وحدث قبل أمسية الاعتداء علي أن تجاسروا على المجيء إلى بيتنا، ورمي رسالة تهديد من تحت الباب وليس في صندوق البريد كتبوا فيها ما معناه «أنهم سيسحقونني كوني نصير الشيطان وعدو الله»، فتقرر أن يمضي بعض الأصدقاء معي إلى الأمسية كحماية، وسار معي عمران منصور ومحمد كيكي وبرهان عكو، ولم يحدث شيء أثناء الطريق، ولكن عند درجات المدخل الخارجي للقاعة تقدمني عمران وبرهان وصعدوا بضعة درجات ليضمنوا دخولي فقد كان المكان مكتظا بشكل مذهل، وتوقف على بعد حوالي عشرة أمتار محمد كيكي ليدخن ويراقب.

وفي هذه الأثناء، وأنا بصدد الصعود على الدرجة الأولى أو الثانية، وقفت سيارة ونزل منها شخص وظل زميله في المقعد الخلفي فاتحا باب السيارة ركض نحوي وضربني من الخلف بقضيب حديدي ثخين على رأسي وكنت قد التفت ورفعت يدي للتو مع صرخات بعض الناس القريبين كي آخذ حذري وهرع مجددا إلى السيارة التي انطلقت، كان محمد كيكي يمشي مبتعدا قليلا عن المدخل يدخن ولم ينتبه بضعة ثوان لوقوف السيارة حيث كان ظهره للمدخل لكنه انتبه للضجيج وركض نحوي وركض عمران وبرهان ورفعوني عن الأرض وتجمهر بعض الناس الذين كانوا بالقرب من المكان حيث وصفوا ما حدث.

كان رأسي ينزف ويدي متورمة، فقد أصاب قضيب الحديد يدي ورأسي معا، نقلوني إلى المشفى الجامعي القريب حيث ضمدوا رأسي ويدي التي خفّفت من قوة الضربة وإلا لكنت منذ ذاك الوقت عند الرفيق الأعلى.

بعد قرابة ساعة، -وكان الشاعر

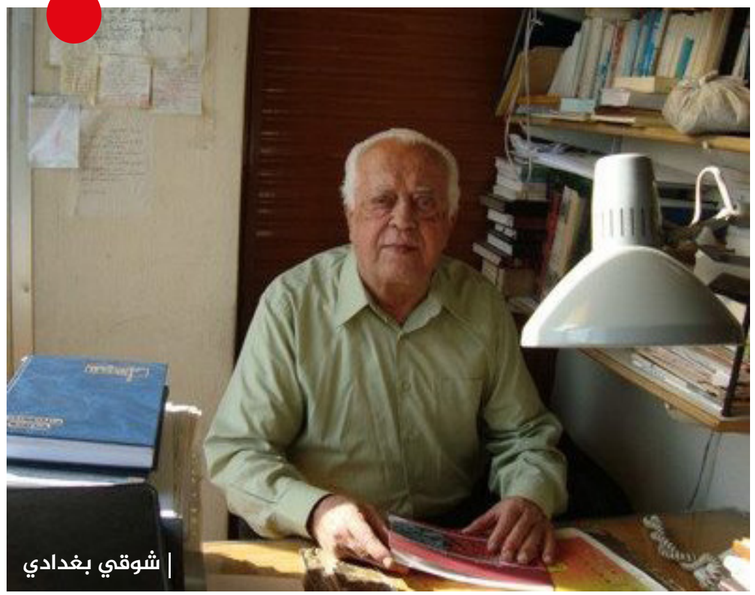
| شوقي بغدادي

| نبيه رشيدات

الصديق عبد القادر الحصني قد غطى بعض الوقت من فترة غيابي- صعدت إلى الميكرفون، وأخبرت الجمهور عن هجوم الكلاب فانتشرت تلك العبارات في مختلف الأوساط الثقافية والجماهيرية عموما [26]، أحدث الاعتداء استياء جماهيريا واسعا خاصة أن الشهود تناقلوا ما شاهدوه، كان الأمر شبيها نسبيا بعملية اغتيال نائب يساري في البرلمان اليوناني بحادث اعتداء مقارب أيضا بضربه على رأسه وأمام الناس وقد تم إخراج فلم عن هذه الحادثة حمل اسم «z» زد.[27]

في غضون ذلك، كانت الأوضاع في الحزب الشيوعي السوري غير سارة، فقد بدأت التشظيات تتسع إثر انشقاق «رياض الترك» فيما سمي آنذاك بالمكتب السياسي، وبدأ يتخمر انقسام جديد، وقد زارني آنذاك بعد خروجي من المشفى الأمين العام للحزب خالد بكداش ويوسف فيصل الأمين العام المساعد ونبيه رشيدات عضو المكتب السياسي مع زوجاتهم، وربما كانت تلك الزيارة آخر لقاء ودي مشترك لهم.

على أية حال، لن أدخل في تفاصيل هذه الجراح لكني أشير إلى أنني كنت ضد هذا التمزق بشدة، وذات يوم عندما استفحلت الأمور كثيرا زرت الرفيق «أبو عمار- خالد بكداش» في بيته في ركن الدين، وفي الطريق فكرت في أن ما يجري يشابه رنين أجراس وداع مأتمي دون تفجير جسر الخصم الخارجي كما في هدف بطل لمن تقرع الأجراس، بل معظم من يساهمون في قرع الأجراس لا يعرفون معنى هذا الرنين بل لا يسمعونه مثل كازيمودو[28].

وبالفعل، قلت للرفيق خالد لمن تقرع الأجراس هذه المرة يارفيق؟فالتقط الفكرة فورا وقال:»آمل ألا تقرع الأجراس فنحن لسنا في إسبانيا حيث كان الصراع جوهريا، لكن الصراع الآن هو على إرث خالد بكداش، -وأضاف- ولكن خالد بكداش ما زال حيا»، والحقيقة أنني سررت كثيرا لإجابته، فهذا يعني أنه مطلع بشكل جيد على رائعة همنغواي، ويبدو لي الآن أنه محق تماما، فمعظم هذه الصراعات كانت بهذه الدرجة أو تلك على الزعامات للأسف، مع خلافات بسيطة في الاستراتيجية، وخلافات كبيرة في التكتيك.

هافانا يا حبي

ارنست همنغواي

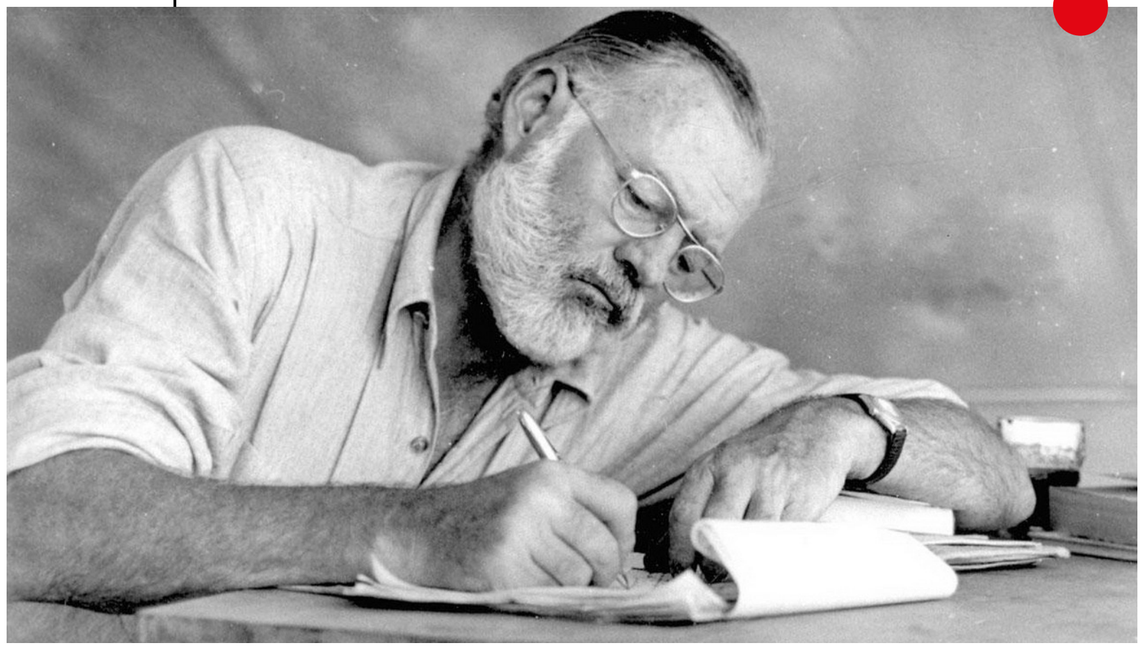

«وصلت الثقافة العربية إلى كوبا مع سفن كريستوفر كولومبوس أواخر القرن الخامس عشر، وفي القرن العشرين عاش همنغواي فيها وكتب أجمل رواياته لمن تقرع الأجراس والشيخ والبحر».[29]

كوبا بلد جميل إلى حد كبير، وشعبها طيب جدا، وليس صدفة أن تستهوي كبار المبدعين بمن فيهم ارنست همنغواي الذي عاش فيها واحدا وعشرين عاما وكذلك ماركيز[30] فيما بعد في ثمانينات القرن الفائت حيث غدا صديقا شخصيا لكاسترو، لكن الثقافة العربية كانت قد وصلت إلى كوبا مع سفن كريستوفر كولومبوس من إسبانيا حيث كانت الثقافة العربية الإسلامية منتشرة بقوة، وظل تعاطف الكوبيين مع العرب مستمرا حتى الآن حتى أن خوسيه مارتي[31] شاعر كوبا الأكبر كان يمجد العرب ويشيد بهم ولديه مجموعة شعرية تحمل عنوان إسماعيلو ومسرحية تحمل عنوان عبد الله وقد قتله المحتلون الإسبان ثم قتل أحفادهم الفاشيست الإسبان الشاعر لوركا[.32]

كان الطريق طويلا جدا من دمشق إلى كازابلانكا قرابة ست ساعات ومنها إلى هافانا قرابة عشر ساعات لقطع المحيط «أقل أو أكثر قليلا على ما أذكر»، كنا وفدا شبابيا يمثل شباب سوريا من مختلف القوى السياسية كان عدد المشاركين بالآلاف، وكانت كوبا في طليعة الدول المناضلة ضد الامبريالية وشعلة الحرية والأممية في ذاك الوقت.

كانت نشاطاتنا هناك مثيرة جدا وممتعة جدا وغنية جدا، فإلى جانب الاحتفالات الاستعراضية الفنية الكبرى كانت هناك المحاضرات واللقاءات التعارفية وتبادل الهدايا التذكارية والصور والحوارات ويقوم كل وفد بالتعريف ببلده، وكل ذلك كان يترجم للعديد من اللغات العالمية.

باختصار، كانت مشاركتنا في مهرجان الشباب العالمي في كوبا درسا أمميا رائعا بكل المقاييس إنه شعب يستحق الاحترام، ولكن يبدو أن في كل مجال رائع لا بد من منغصات، فقد كان الكوبيون يتحملون غلاظات البعض حتى تلك التي لا تحتمل، فما عدا النشاطات الجماعية الجميلة المعطاءة كان على الكوبيين القيام بتنظيم دقيق لضبط الأمور مع هذا العدد الهائل، وأذكر أن الشباب الكوبيين كانوا يشرفون على تنظيم الرحلات، وتأمين وجبات الطعام في قاعات كبرى، والفتيات الكوبيات وهن تلميذات في المدارس الثانوية أو الجامعات يقمن بتنظيف مهاجع السكن وترتيب الأسرّة.

كانت الملاحظات السلبية على قلتها مؤلمة، أذكر منها ملاحظتين مع التنويه بأن الشباب اليساريين عموما كانوا منضبطين حقا ولكن هناك بضعة آلاف ممن هم قريبون من اليسار ولكن يبدو أنهم لم يتعودوا على «الدسبلين» ولم تكن لديهم كما يبدوا تصورات حقيقية عن المجتمع الاشتراكي، فقد حدث أن تعامل بعض الشباب بخشونة مع الفتيات اللواتي ينظفن الأرض وعاملوهن كخادمات، وأحيانا لم يخل الأمر من محاولات تحرش.

كان المسؤولون يعالجون مثل هذه الظواهر بهدوء، ويقومون بشرح تفصيلي بأن اللواتي يخدمننا هن طالبات جامعيات أو تلميذات ثانوي ويقومون عادة بتبديل من تمت الإساءة لهن ونقلهن إلى مكان آخر كي لا تتطور الأمور، وفي اليومين الأولين حدث إشكال حقيقي من أحد رؤساء الوفود، ويبدو أنه مسؤول كبير في بلده، فقد كنا ننزل من مهاجعنا إلى قاعات الطعام ونقف طابورا حتى نتمكن من الدخول بالترتيب لكي يقوم العاملون والعاملات بوضع الطعام في صحوننا وهذا أمر يأخذ وقتا بين عشرة دقائق إلى ربع ساعة لمن جاء مثلا بعد نصف ساعة من التوقيت، حضر هذا «المسؤول- في بلده» وحوله أربعة أو خمسة من المتملقين، ويبدو أنه استيقظ متأخرا قليلا وبدل أن يقفوا في الطابور كالآخرين تجاوزوا الجميع، ومضوا للمقدمة فمنعهما الشابان الكوبيان اللذان يقفان عند الباب من الدخول وطلبا بكل أدب باللغتين الإنكليزية والفرنسية أن يقفوا في الطابور حتى يأتي دورهم، لم يتحمل «المسؤول» أن يقال له قف كالآخرين في الطابور وهو يشعر أنه فوق الآخرين وأهم من الآخرين، وانتصر له من كان حوله ودفعوا الشابين ودخلوا عنوة، فما كان من الذين يقفون في الطابور متذمرين من «المسؤول» وحاشيته إلا أن اندفعوا هم أيضا إلى القاعة ليؤكدوا لهذا المسؤول ورفاقه أنهم ليسوا من الدرجة الثانية،كانت هذه القاعة تتسع لبضعة مئات، وحدثت فوضى حقيقية اضطر المسؤولون على تنظيم المهرجان إلى توجيه تأنيب وربما إبلاغ سفارة هذا البلد بالحادث مع مذكرة عتب حقيقي.

لم أستطع أنا ورفاقي أن نفعل شيئا، ولكننا انسحبنا وامتنعنا عن تناول الإفطار وطلبنا من الآخرين الانسحاب كاحتجاج على هذا التصرف وتعاطفا مع الشابين الكوبيين، وبالفعل انضم إلينا الكثيرون، وتناول «المسؤول» ورفاقه الطعام لكن العيون كانت تنظر إليهم شذرا، وتتردد من حولهم كلمات الاستياء بمختلف اللغات، وهم يشعرون حتما بأنهم منبوذون.

حتى لا أنهي هذه الذكريات بهذه الخاتمة المزعجة أشير إلى أمر محبب بالنسبة لي، فقد رافقتني في هذه النشاطات طيلة فترة المهرجان فتاة كوبية جميلة اسمها ماريانا، ورغم الفترة الزمنية القصيرة إلا أن صداقة جميلة قد نشأت بيننا، وكتبت من وحيها قصيدة هافانا يا حبي، ووضعت صورتها إلى جانب صورة غيفارا وصورتي على غلاف تلك المجموعة التي كان عنوانها الحب في طريق المجرة[33]

المصادر:

[1]خواطر من الشرق صفحة 71

[2] نشيد ثائرون

https://www.youtube.com/watch?v=Tu5aEQ4s9Lc

[3]صحيفة الثورة أون لاين الملحق الثقافي محمد الحريري أيقونة الطيبة والنقاء

http://thawra.sy/index.php/thakafi/277801-2021-06-01-09-46-21

[4]بطاقات تبرير للحب الضائع صفحة 30

[5] فيما بعد تم تطوير هذه الألية بحيث تدار قرابة 60 درجة إلى اليمين و60 درجة إلى اليسار وكذلك للأعلى الأسفل ...صورة تقريبية لرسم جهاز الإضاءة من علب السمن الفارغة

[6]نشيد الفلاحين

https://www.youtube.com/watch?v=VC3LrMwIO0E

[7]تقديم شوقي بغدادي

https://www.youtube.com/watch?v=DlHnfPFYdoA

[8] المخرج سمير الحكيم والممثل عادل شكري أثناء عرض مسرحية الأرنب الذئبي

[9]في الثلاثية المسرحية أوديب ملكا لسوفوكليس قبل أكثر من ألفين وأربعمئة عام يعاني من صراع نفسي مذهل نتيجة أمور قدرية تجعله قاتلا لأبيه وزوجا لأمه لكن حالات الانفصام هذه تظهر نتيجة المعاناة كلما ازدادت الشكوك.

[10]يعيش هاملت شكسبير صراعا نفسيا مقاربا لمعاناة أوديب الذي تحققت رغباته الدفينة في قتل أبيه والاقتران بأمه فيما ظلت رغبات هاملت مكبوتة وهي قتل قاتل أبيه وحقده على خيانة أمه لذكرى أبيه بزواجها من قاتله، والصراع ينشأ في أدراك مباشر أو غير مباشر لمخالفة القوانين السائدة

[11]يعيش راسكولنيكوف «في الجريمة والعقاب لدورستويفسكي» أيضا حالة صراع نفسي مرير لارتكابه الجريمة التي يكون عقابها طيلة العمل قبل الاعتراف في معاناته الداخلية حتى أن اسم راسكولنيكوف مشتق من الانشطار والتمزق والانقسام ناهيك عن أنه لقب للمنشقين عن الكنيسة

[12]رياض عصمت 1947 –2020 كاتب وناقد مسرحي كان عميدا للمعهد العالي للفنون المسرحية ثم سفيرا لسوريا في باكستان ثم وزيرا للثقافة. من أعماله المسرحية لعبة الحب والثورة، ليالي شهريار، جمهورية الموز

[13] علي كنعان 1936 شاعر ومترجم وصحفي من المؤسسين لاتحاد الكتاب العرب عمل مدرسا للغة العربية في اليابان صدرت أعماله الشعرية في مجلدين

https://www.facebook.com/aymankac/posts/2177693575655366

[14]مجموعة صندوق الدنيا صفحة 72

[15] ما الذي قالته في الليل الفراشة صفحة 95

[16]الثلاثيات صفحة 50

[17]صندوق الدنيا صفحة -71-70

[18]»كل سمت في مسار الكون حد البدنهاية» الثلاثيات ص42

[19]انتحار الدلفين صفحة 32

[20]مجموعة الصدى صفحة 98

[21]فيلم الرحلة العجائبية إخراج ريتشارد فليشر وقد عرض عام 1987 في حين كتبت قصيدة الصدى أواخر عام 1973

[22]مجموعة الصدى صفحة 23-22

[23]- الحلم في الزنزانة رقم 7 الصفحة 9

[24]مجموعة الصدى صفحة 49 – 60

[25]انظر الشاهد رقم 7 تقديم شوقي بغدادي

[26]أمسية الاعتداء

https://www.facebook.com/AimanAbuShaar/videos/470137773598645

[27]فلم زد (وهو حرف يرمز باللغة اليونانية إلى أنه ما زال حيا) تم عرضه أواخر الستينات عن هيمنة الحكم العسكري في اليونان واغتيال أحد المناضلين اليساريين عام 1963 على يد المرتزقة من إخراج كوستا غافراس وقد حصل الفلم على جائزة اوسكار

[28]الإشارة إلى روايتين -1لمن تقرع الأجراس لأرنست همنغواي-2 أحدب نوتردام لفيكتور هوغو، وقصدت لمن يوجه هذا الصخب ومن سيكون المقصود في هذا الصراع غير المبرر، حيث الرنين والطنين لا يصل في الواقع إلى أسماع من يقومون بقرع الأجراس كما كانت الحال بالنسبة لكازيمودو بطل أحدب نوتردام الذي كان يقرع الأجراس من أجل حبيبته ازميرالدا لكنه هو نفسه كان أصم

[29]انظر للتوسع الإمارات اليوم https://www.emaratalyoum.com/life/culture/2019-04-01-1.1197966

[30]غابريلغارثيا ماركيز 1926-2014 روائي كولومبي من اعماله مئة عام من العزلة وخريف البطريك والحب زمن الكوليرا، حائز على جائزة نوبل للآداب 1982

[31]خوسيه مارتي شاعر وفيلسوف كوبي من أصل اسباني 1853-1995

[32]فريدريكوغارثيا لوركا 1898 1936- من أهم الشعراء الكتاب المسرحيين في إسبانيا أعدمه الفاشيون

[33]صورة ديوان الحب في طريق المجرة

لو عدنا إلى التاريخ المعاصر لسورية، لوجدنا أن هناك تحالفا ضمنيا جوهريا في البدايات المسرحية للفن عموما والمسرح خصوصا مع الفكر التقدمي وحتى الاشتراكي ، فقد كان المسرح مرفوضا من الرجعيين والمحافظين، ولهذا كانت سمة التقدمية مرافقة للعاملين في مجال المسرح حيث كان مجرد تقديم عمل مسرحي «أيا كان» هو عمل تقدمي نسبي.

كانت بوادر الفكر الاشتراكي قد وصلت ظلالها بتأثير الثورة الروسية الأولى 1905-1907 ومن خلال التواصل مع أوربا، حتى أنّ اول صحيفة حملت اسم «الاشتراكية» صدرت في سورية عام 1912 أي قبل الثورة الاشتراكية الروسية بخمس سنوات [1]، وظل الأول من أيار في زماننا رمزا قويا له شعبيته المميزة حيث كان يضم شرائح اجتماعية واسعة لا تقتصر على اليساريين، ما دفعنا إلى جعل الاحتفالات بالأول من أيار ساحة نضالية متشعبة، وكنا أحيانا نضع خططا مرحلية وتفصيلية، ونحدد مسبقا كل حسب حيِّه أو مجاله العملي أو الدراسي أسماء الذين يجب أن يتم العمل على تثقيفهم وشدهم ليصبحوا مناضلين يساريين.

هذا الأمر، انعكس جوهريا على نشاطاتي في المسرح والأغنية السياسية والأناشيد، والرائع في الأمران بعض الشباب سرعان ما تألقوا فنيا وباتوا فنانين حقيقيين ومبدعين رائعين، وكان ينخرط معنا في العمل النضالي بعد حين قصير أولئك الذين لعبوا أدوارا محورية في فرقة اسبارتاكوس وفي الفرقة المسرحية الرديفة، وكان لابد أن تنعكس أجواء طباعنا ومشاعرنا أحيانا حتى على جوهر العمل النضالي سلبا أو إيجابا في الممارسة العملية.

في جامعة الصداقة

كيف يمكن أن أطرد ملاكا كهذا؟

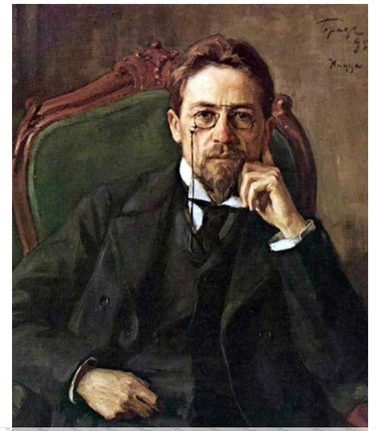

«إنك تعيس لأنك تشعر بالوحدة، أنت بحاجة إلى وجود شخص بجانبك كي تحبه، بحاجة إلى شخص يفهمك جيدا» أنطون تشيخوف

قبيل مغادرتي حلب للتوجه إلى موسكو، كانت هناك بعض المشاهد المؤثرة،وهي ذات دلالات عميقة أكتفي بذكر مشهدين منها، طبعا لن أدخل في التفاصيل ولعلي لا أتذكر الأسماء بعد مضي كل هذا الزمن، فقد ساهمت بعض نشاطاتنا المسرحية فعلا بتعميق الود وتجارب الحب بين بعض الشباب والشابات، لاحظت ذات حين أن بعض الشباب يتذمرون حين أختار أدوارا لهم وفق رؤيتي لطبيعة شخصية هذا الشاب أو ذاك، وكذلك هذه الفتاة أو تلك مما جعلني أدقق في خلفيات هذا التذمر، وكانت الأسباب التي اكتشفتها مثيرة وجميلة حقا، فالبعض كان لا يريد أن يأخذ دورا شريرا ولا بأي حال من الأحوال لأنه مبدئيا ضد الشر والظلم رغم المناقشات والتوضيح بأن ما نقوم به هو تمثيل دور الأشرار لنفضحهم ، وكثيرا ما كنت أضطر إلى بذل جهود كبيرة ليمر العرض والاحتفال، وكنت أحيانا أضطر للرضوخ.

ومن ألطف الذكريات التي مرت بي في هذه التجربة، أن شابا هو «أحمد النجار»أسندت إليه دور السيد «نادر» الذي ورث المصنع عن أبيه الرأسمالي الشرير ، وهو متغطرس وغليظ ووقح، ويظلم العاملين والعاملات في المصنع، وذلك في إحدى المسرحيات الصغيرة التي هي في الواقع تمثيلية ارتجالية أعددتها للاحتفال بالأول من أيار.

في آخر بروفة، لعب «أحمد» الدور بشكل معقول لكنه كان يتعرق ويتلعثم أحيانا ونضطر لإعادة المشهد في كل مرة عندما تدخل العاملة سمر إلى مكتبه، في هذا المشهد يكون عليه أن يُظهر اضطهاده العنيف لها، وأن يشتمها ويُحقِّرها لأنها رفضت أن تكون خليلته، وأن يطردها بفوقية، وأن يقول لها ظلما ومكرا أنه لم يتبق من راتبها شيء لأنها أخطأت في كذا وكذا وكسرت آلة (كانت في الواقع معطلة لكنه يتبلاها خصيصا)، وبالتالي تم حسم مبالغ من راتبها ولم يبق منه شيء هذا عدا عن أنها تسبب خسارة كبيرة للمعمل كما يدَّعي، ومن ثم عليه أن يعطيها قرار فصلها من العمل وأن يطردها.

وهنا، على العاملة سمر أن تصرخ مطالبة بنجدة نقابة العمال، وأن تحكي قصة مشاكسته الطويلة لها، وأن تظهر رسائله وأن تنادي زوجته وهي محاسبة الشركة وتفضحه أمام الجميع، الذي حدث أنه دخل في حومة التمثيل بالفعل وأتقن الدور اثناء البروفة لكنه لم ينطق بعبارة أنت مفصولة ومطرودة، ونظر إليَّ مرة أو مرتين يستطلع انطباعي لكني أشرت له بأن يتابع، ورفعت يدي مضمومة وإصبع الابهام نحو الأعلى أي «أحسنت»، ورحت أهز برأسي مؤيدا تأديته الجيدة للدور.

نادت سمر مسؤول نقابة العمال والمحاسبة زوجة مدير المعمل فحضرا مع خطيبها العامل «عامر»، ومدت يدها مشيرة نحو المدير نادر قائلة: «أتعرفون ماذا يريد مني الأستاذ نادر» هنا يجب أن تفضحه ببضع كلمات واضحة وتخرج الرسائل فيتدخل خطيبها، ويأخذ الرسائل من يدها ويرميها في وجه نادر، ويركع على ركبتيه أمامها ويقدم مناجاة شاعرية جميلة يؤكد فيها أنه بات يحبها عشرات أضعاف ما كان يحبها سابقا ويهتف: « كم أنت قديسة يا حبيبتي كم أنت طاهرة سنغادر هذا المصنع ويغادر معنا العمال الشرفاء وسنجد عملا لائقا «، هذا ما كان يجب أن يفعله عامر وفق النص.

ولكن الذي حدث، أنّ الشاب «أحمد» الذي يمثل دور نادر المدير «الشرير» شد بسرعة الشاب الذي يمثل دور عامر خطيب سمر، وجعله في مكانه، وسحب الرسائل من يد سمر ورماها في وجه الشاب الآخر «عامر» الذي صمت من الدهشة بل صمتنا جميعا مشدوهين عندها ركع على ركبتيه وأخذ دور الخطيب عامر ولم يعد يمثل بل قدم مناجاة قلبية حقيقية مذهلة، وهو يقبل يد سمر ويقول أيتها القديسة الطاهرة لن أسمح لأحد أن يقترب منك لا أريد المصنع سنغادره معا، كم أنا تعس من دونك، أنا بحاجة أن تكوني إلى جانبي أنت التي تفهميني ولا أحد سواك، ثم ابتسم وقال علينا أن ننهي مرحلة الخطوبة بالزواج، التفت إليَّ وهو يضحك وأضاف: «كيف يمكن يا رفيقي أن أطرد ملاكا كهذه، صفَّقنا جميعا، وبالفعل بات واضحا أن هناك علاقة حب بينهما وكانا يكتمانها.

صاحب الخيمة الزرقاء

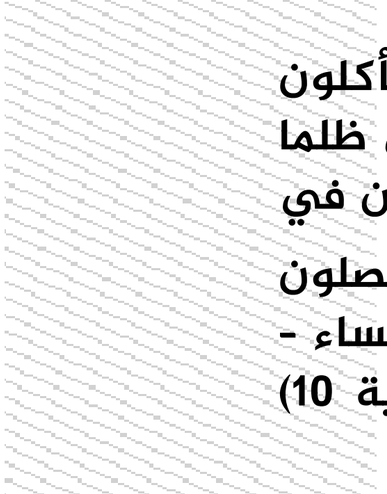

«إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا» (سورة النساء - الآية 10)

اضطررت إلى تقديم استقالتي بعد أن شعرت بأن المضايقات تزايدت إلى حد كبير في حلب، فقد تم كسر زجاج الباب الخارجي الذي خلف الحديد المزخرف مرتين، ووضع مجهولون القمامة أكثر من مرة على الدرج العلوي المؤدي إلى بيتي فأنا أسكن في الطابق الأخير، وجرت محاولة خبيثة لحرق البيت بسكب البنزين من تحت الباب وإشعاله لكن الكمية لم تكن كافية للوصول إلى الغرف، ولم يكن لدي أي أثاث خلف الباب مباشرة، واقترح أحد الأصدقاء تأمين مسدس لي لكني رفضت الفكرة لأن وجود المسدس قد يدفع إلى تحريات نحن في غنى عنها، لم يقتصر الأمر على القوى الرجعية حيث تم اعتقال رفيق كان يزورني باستمرار «وأذكر أن اسمه عمران» ، ثم نقل لي فيما بعد أنه قال لهم أنتم تعتقلوني لأني أزور الشاعر أيمن أبو الشعر لماذا لا تعتقلونه هو؟ فهز العنصر رأسه وقال له ساخرا: «تريد أن تورطنا أيها الذكي».

إلى جانب كل ذلك، نُشرت شائعات مدروسة بين الجيران بما يشوه سمعة البيت الذي أسكنه أخلاقيا، ووصلني بشكل مؤكد أن صاحب المكتب العقاري الذي استأجرت البيت عن طريقه كان من بين مروجي الإشاعات عني وعن البيت، وذكر في أحاديثه أكثر من مرة «أن الأستاذ أيمن يسمم عقلية الشباب في الثانوية أثناء دروسه ويحرفهم ويبعدهم عن الدين»، وأكد كدليل على كوني مُخرِّبا فكريا بأنه لم يرني أبدا في صلاة الجمعة.

إحدى أمسيات أيمن أبو الشعر

كانت المنطقة التي أسكنها، منطقة شعبية بسيطة غالبيتها من المتدينين، وبالتالي بدأ الكثير من الأهالي يتذمرون من زيارات الفتيات لبيتي خاصة أنني في تلك المرحلة كنت قد انفصلت عن زوجتي، وبما أن هناك شباب وفتيات إذن لا بد أن يكون «الشيطان ثالثهم»، للأسف معظم البيئات الشعبية تفكر بهذه الطريقة، ساهم في ذلك تعمُّقُ الخلافات داخل الحزب الشيوعي بحيث توضح اتجاهان متنافران.

ورغم رفضي لمنطق الانقسام، إلى أن الشرخ بدأ عمليا من المكتب السياسي ثم إلى اللجنة المركزية، وبالتالي إلى المنطقيات والفرعيات، وباتت الاتهامات بكل الآثام لا توفر أحدا، وطالتني شخصيا، وأحيانا بشكل شنيع جدا، فحين أساهم في نشاط لهذا الفريق المحسوب على «خالد بكداش» تنتشر الإشاعات بأنني معه ضد الفريق الآخر، وحين أساهم بنشاط مع الفريق المحسوب على «يوسف فيصل» أحسب عليه وكأنني ضد الفريق الأول، وحين أعلن بصراحة ووضوح أنني لست ضد هذا الفريق ولا ضد ذاك، -وأنني لست مع وحدة الحزب وحسب بل مع وحدة التقدميين عموما والوطنيين الشرفاء- تبدأ الاتهامات بأنني وصولي وانتهازي.

كان الوضع أليما جدا ومريعا جدا، وكان كتيار هائل يجرف كل من يحاول أن يقف في طريقه، ولا يبقي مجالا لاتخاذ موقف مبدئي ومحايد في الوقت ذاته، في تلك الأجواء، وبعد أن فقدت عملي أيضا وانفصلت عن زوجتي وتصاعدت التهديدات أكثر مما كانت في دمشق، اتخذت قرارا سليما ومناسبا آنذاك في القيادة، وهو أن أسافر للدراسة العليا إلى موسكو.

كان بيتي كبيرا نسبيا وبأجرة زهيدة وزعت معظم أغراض البيت على الأصدقاء والجيران وتركت بعضها بما في ذلك البراد وهو قديم على أية حال، واتصلت بصاحبة البيت وهي أرملة ولديها ثلاثة أولاد، وطلبت منها المجيء لأنني سأغادر.

جاءني ابن صاحب المكتب العقاري وقال: «يرجوك والدي أن تنتظره ريثما ينتهي من صلاة الجمعة وسيأتي لزيارتك، هناك أمر ضروري يريد أن يتحدث بشأنه معك»، جاء صاحب المكتب العقاري فعلا بعد الصلاة مباشرة وطلب مني ألا أسلم البيت حتى وإن كنت سأسافر، وأنه مستعد للإشراف عليه، طالما لدي عقد آجار واستئجار، وأن بإمكاننا قانونيا أن نؤجره بمبلغ كبير ندفع منه لصاحبة البيت الأجرة الزهيدة وفق العقد والباقي مناصفة بيننا، موضحا أن وجود عقد آجار استئجار يعني أن البيت تقريبا بات لي، قلت له: « صاحبة البيت أرملة وتحتاج هي لأن تؤجره بمبلغ أكبر لكي تعيل أطفالها»، وبعد أن شاهد إصراري على تسليم البيت قال: «إذن اترك لي الأمر وسأحصّل لك مبلغا كبيرا كفروغ (تعويض إخلاء العقار، وكان ذلك شائعا) وآخذ منه ثلاثين بالمئة فقط ».

في هذه الأثناء، جاءت صاحبة البيت الأرملة مع قريب لها وطفلين صغيرين، كان الجو حارا فذهبت إلى المطبخ لأحضر شرابا باردا وعدت بعد دقائق فقال لي قريب الأرملة: «أليس كثيرا هذا المبلغ يا أستاذ؟» قلت: «أي مبلغ؟» قال: « الفروغ الذي تطلبه، كثير جدا، فليكن ألفي ليرة، لديها صغار عليها رعايتهم» [2]، فهمت على الفور أن صاحب المكتب العقاري طرح موضوع الفروغ، فابتسمت وناولتها مفاتيح البيت وقلت: «أنا لم أدفع فروغا لأحد عندما سكنت، ولن آخذ فروغا عندما أغادر، هذه مفاتيح البيت وقد حرصت على أن أسلمه نظيفا، لن آخذ حتى ولا قرشا واحدا، لقد أحب صاحب المكتب العقاري أن يمازحكم بعد أن جاء من صلاة الجمعة، فهو إنسان ورع يخاف الله».

وتبين أن قريب الأرملة متدين أيضا، ولكنه كما بدا متدين صادق ونقي، فشكرني وقال: «الرسول الأعظم اعتبر أنّ «أكل مال اليتيم من الموبقات، وجعله موازيا لقتل النفس والإشراك بالله» [3]. أحرج صاحب المكتب العقاري ووقف مودعا، وهنا علا صوت الأرملة بالدعاء وبلهجة شعبية حلبية محببة : «أبو الخيمة الزرقاء يوفّقك أين ما سرت، وفي كل خطوة، ويخرب بيت أولاد الحرام» [4]، وراحت تنظر إليه شذرا.

شكرتهم وأخذت حقيبتي مودعا ومضيت مع صاحب المكتب العقاري قلت له ونحن على الدرج: «أما زلت ترغب في أن تراني في صلاة الجمعة؟ لعلنا نقول للناس هناك أن الذي يخرِّب عقول الشباب في دروسه رفض أن يأخذ فروغا طلبته أنت من مال الأيتام»، ففهم أن تشهيره بي قد وصلني، خرجنا من المبنى فسألني على الفور: «من أين طريقك يا أستاذ؟» قلت: « إلى اليسار» قال: « أما أنا فإلى اليمين مع السلامة».

موسكو الحلم وأولى المفاجآت

«يكون الشتاء باردا على من لا يملكون الذكريات الدافئة» دوستويفسكي

«عندما تنام مع الكلاب تصحو مع البراغيث» مثل شعبي روسي

كانت زيارة موسكو حلما جميلا لأي يساري فما بالكم بفرصة العيش في موسكو لعدة سنوات، وموسكو الحلم اجتماعيا وسياسيا هي في الوقت ذاته مدينة جميلة تقع في أحضان غابات فسيحة جدا وسيبدو هذا واضحا لمجرد اقتراب الطائرة من المجال الجوي للعاصمة الروسية.

بعد أيام من الحجر الصحي المعتاد، فُرزت إلى مبنى سكن طلاب الدراسات العليا في منطقة بديعة، وكان لا بد من مرحلة تأقلم واستقراء وتأمل لهذا الواقع الجديد الذي يحتضن عوالم شتى في مبنى الطلبة حيث يقطن مئات طلاب الدراسات العليا من مختلف أنحاء العالم ومن مختلف الثقافات والعادات، وكان من البديهي أن أبحث عن الطلاب العرب والسوريين بشكل رئيسي، فأنا لم أكن أعرف اللغة الروسية، ولغتي الأجنبية الثانية – الإنجليزية- ضعيفة عموما. عايشت مشاهد نوعية عديدة جدا سلبا وإيجابا سأشير إلى بعضها فقط بحيث يمكن ربط دلالاتها في بوتقة واحدة كمرجل للمتناقضات.

كان من بين أوائل الذين تعرفت إليهم الطلبة السوريون، وتكرست صداقات قوية مع بعضهم، وبدأت بإقامة بعض النشاطات وبشكل خاص في سهرات تُذكّر بأجواء نشاطاتي في المدن السورية، وأقمت بعض الأمسيات في مبنى جامعة الصداقة، وكان من بين المفاجآت أن بعض الطلبة من السودان واليمن أبلغوني أن أشرطة أمسياتي تنتشر بشكل كبير في بلدانهم، وأن قصيدة الحلم في الزنزانة رقم سبعة كان يرددها السجناء السياسيون اليساريون، وكانت تعطيهم مع قصائد محمود درويش الأمل وتحفزهم على الصمود [5].

تعمقت المفاجأة الأولى الجميلة، من خلال دعوتي لحضور مناقشة أطروحة تخرج جامعي لطالب اسمه محمد عبد السلام ولم يذكر لي الموضوع إمعانا في تعميق المفاجأة، وقد حضرت رغبة في تعميق معرفتي باللغة الروسية، واستغربت أن اسمي كان يتردد أثناء المناقشة وإذ أفاجأ في النهاية بأن قسما كبيرا من الأطروحة يتحدث عن أيمن أبو الشعر كممثل للواقعية الاشتراكية.

وبعد اختتام الجلسة، منح الطالب اللقب وعرّفني على المشرفين قائلا لهم هذا هو الشاعر الذي تحدثت عنه طويلا في أطروحتي، وأذكر أن معظمهم استغرب قائلا « ظننا أنك عجوز أو كهل على أقل تقدير»، ثم دعيت بعد اشهر إلى فارونج حيث دافع طالب الدراسات العليا «أحمد خليل» عن أطروحة دكتوراه تدرس ملامح التقارب بين أيمن أبو الشعر ومایاکوفسکي، كل ذلك وأنا نفسي بعد طالب في المرحلة الأولى من الدراسات العليا، أذكر ذلك لأن مثل هذه المفاجآت كانت تزيد إحساسي بالمسؤولية إلى درجة كبيرة، وتدفعني لا إلى الغرور بل إلى متابعة الطريق النضالي، وبذل جهود مضاعفة في تعلم اللغة الروسية، والتحضير لأطروحتي التي كانت حول تأثير المدارس والاتجاهات الغربية على الشعر العربي الحديث، وتعميق تجربتي في الاتحاد السوفييتي.

يذكر من عاش أو درس في الاتحاد السوفييتي في تلك الفترة «أقصد قبل مرحلة غورباتشوف»، أنّ الشعب الروسي على وجه الخصوص شعب طيب صبور معطاء، ويرى العديد من الباحثين أن من بين أسباب تفكك الاتحاد السوفييتي هو تلك المساعدات الكبيرة التي قدمها إلى شعوب العالم المغلوبة على أمرها والفقيرة عموما، أو التي تمر بظروف اقتصادية صعبة لا تستطيع سداد ما تقدمه موسكو بما في ذلك السلاح والذي تحولت أثمانه التي بالكاد تغطي التكاليف أساسا إلى ديون طويلة الأجل، ومن ثم تم شطب معظمها، في حين كان ذلك يشكل عبئا على الشعب السوفييتي- الذي كان يمكن أن يعيش في رفاه وبحبوحة إن لم يقدم هذه العطاءات فهو أغنى بلد بالثروات الباطنية، - ما أدى إلى صعوبات اقتصادية كان من أحد مظاهرها الطوابير.

الشعب الروسي بشكل خاص شعب مثقف قارئ بنهم، تراهم يقرأون في كل مكان في الحدائق وحافلات الترام والباصات والميترو حتى لكأن وسائل النقل قاعات مطالعة، وكانت ظاهرة الطوابير التي قد تستمر لساعتين أو ثلاث نتيجة الظروف الاقتصادية أمرا عاديا تماما – سأعود إلى تناول المسألة الاقتصادية وأرجو أن تتذكروا المشهد القادم حيث سأتحدث لاحقا عن حادثة بالغة الحساسية حول العجائز المثقفات.

ذات يوم وقفت في طابور على سلعة معينة، ولفت نظري أن جميع من يقف في الطابور صغارا وكبارا كانوا يقرأون إما في كتاب أو صحيفة أو مجلة لكن امرأتين كهلتين على

بعد أمتار كانتا تتجادلان حول أمر ما بصوت خفيض حتى لا تزعجا الذين يقرأون، استغربت لأنهما كانتا نشازا في المشهد الرتيب، ودفعني فضولي للاقتراب منهما بعد أن أشرت للذي يقف ورائي أنني سأعود بعد قليل، توقفت غير بعيد بحيث أستطيع أن أسمع ما تقولان، ولا ألفت انتباههما، وهالني أنهما كانا يتحدثان عن آخر الكتب التي اقتنتها كل واحدة منهن، وكم كيلو غراما قدمت من الورق المستعمل كالجرائد والمجلات لكي تحصل على دَور وحق لشراء هذا الكتاب أو ذاك للمبدعين المشهورين [6]، حيث تبين أن بعض الكتب موجودة عند إحداهما وترغب الأخرى بقراءتها، وكذلك الأمر بالنسبة للعجوز الثانية، وفهمت من حوارهما أنهما اتفقتا على استعارة الكتب بالتناوب من بعضهما.

كان واضحا للعيان أن الأطفال والمبدعين يشكلون ديكتاتورية حقيقية بالمعنى المجازي في الاتحاد السوفييتي، فالذي لاحظته من خلال تجربتي المباشرة أن المبدعين عموما فنانين وشعراء وكتّاب وممثلين وموسيقيين ورسامين كانت لهم أولوية كبرى في الاتحاد السوفييتي وكانوا يحظون بمكانة مقدسة – سأتحدث عن الاستثناءات والأخطاء لاحقا- وكانت تقدم لهم امتيازات كبيرة حقا سواء من خلال النشاطات التي تنفق عليها الدولة وترعاها أو من خلال تأمين نشاطاتهم ونفقات سفرهم وإقاماتهم ومعارضهم ومهرجاناتهم والتي كانت تتحول حقا إلى كرنفالات مذهلة.

وقد حالفني الحظ، بأن تفاعلت

منذ البداية تقريبا مع اتحاد الكتاب السوفييت ونسقت معه حتى في اللقاءات مع العديد من الأدباء العرب والأجانب، وخلال السنوات الأولى ساهمت في العديد من الأمسيات والندوات والمؤتمرات في مختلف الجمهوريات السوفييتية، وكان الاحتفال بالأدباء شعبيا ورسميا يفوق الوصف فعلا.

وأذكر أن أضخم ندوة شعرية شاركت فيها في روسيا، كانت في مهرجان بوشكين في بلدة ميخائلوفسكي فقد أعلن عن ذاك اللقاء قبل بضعة أيام وتدفق الناس بالفعل من مختلف المناطق بما في ذلك من مناطق بعيدة، وأقيم اللقاء في فسحة هائلة تقارب عدة أضعاف مساحة ملعب كرة قدم وامتلأت هذه الساحة عن بكرة أبيها بالذواقة من مختلف الأعمار، عدد هائل لا يصدق، كان الذين جاؤوا لسماع الشعر أكثر من خمسين ألفا، وقد ألقيت آنذاك قصيدة قارع الطبل الزنجي بالروسية وبعض المقاطع بالعربية، والصيف في روسيا متقلب الأهواء حيث حدث أن هطلت زخات من المطر وأنا ألقي القصيدة فتوجست، وخفت أن ينسحب الناس إلى الغابات القريبة وينقطع اتساق إلقاء القصيدة لكن الذي

حدث أذهلني فعلا، فالناس هنا يعرفون طقس بلادهم وخلال ثوان معدودات فتحت عشرات آلاف المظلات متعددة الألوان، وكان مشهدا شاعريا حقيقيا حيث تشكلت لوحة سوريالية ملونة بديعة على مدى النظر، وتابع الجمهور الاستماع بانسجام وتفاعل وكانت الطبيعة ذاتها تشارك في المهرجان بقصيدتها المطرية [7].

الجانب الآخر من هذه الديكتاتورية هم الأطفال، لا يمكن أن تتخيل اهتمام الاتحاد السوفييتي ومؤسساته وقوانينه بالأطفال منذ اليوم الأول لولادتهم ومن ثم مراحل تطورهم اللاحق. حدث أن أنزلت الشراشف وأغطية السرير والمخدات إلى مسؤولة الغسيل فرجّتني أن أؤجل ذلك إلى ما بعد الظهر، استغربت فهذا غير وارد عادة، فقلت لها عسى خيرا، قالت طبعا خير كل ما هنالك أنني لم أنجز تحضير شؤون ولدي «أندريوشا» [8] الذي سيسافر إلى معسكر الطلائع السنوي وهو يقام أثناء العطلة الصيفية (كان أندريوشا يأتي معها أحيانا إلى العمل، تذكروا اسمه فأذكره لاحقا).

وصفت لي المعسكرات بطريقة تبدو وكأنها مبالغة إعلامية لكنها أكدت أن ذلك حقيقة، فهناك يقيم الأطفال آكلين شاربين معززين مكرمين، ولديهم برامج تحفيزية عديدة يشرف عليهم اختصاصيون في جميع أنواع الفنون والثقافة لتطوير الأطفال وتنمية إمكانياتهم ، ومن ثم فرز المتفوقين وإبداء اهتمام أوسع بهم، وتكريس برامج خاصة لهم. من جهة ثانية كانت ملابس وألعاب الأطفال مدعومة من الدولة بحيث تبدو أسعارها أرخص من أية أسعار لأغراض مماثلة في العالم، وربما يتذكر الكثيرون ممن زاروا موسكو أن متجر «عالم الطفولة» وسط العاصمة كان محجا لأي زائر لموسكو، ففيه يمكن شراء الكثير جدا من الملابس والألعاب بقليل جدا من المال.

أذكر كشاهد على مدى الاهتمام بالأطفال زمن الاتحاد السوفييتي، فحين رزقت بطفلي تامر كنت أذهب يوميا إلى المستوصف القريب حيث يزودوني بأغذية للطفل مجانا، أكرر مجانا وكانت الوجبات اليومية تشمل بعض المشتقات الحليبية المعالجة صحيا وكذلك بعض أنواع الفواكه المطبوخة والمبروشة وأشربة تحتوي على فيتامينات بحيث تناسب الأطفال حتى يبلغوا السنتين من العمر.

كانت الدولة تقول للمواطنين أنجبوا ونحن مسؤولون عن أطفالكم، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كان هذا الأمر مضمونا بقوة القانون، فقد عايشت موقفا مدهشا بهذا الخصوص حيث كان علينا أن نراجع الطبيبة المختصة في المستوصف القريب من أجل تامر كل أسبوع مرة، وذات يوم لسبب ما لم نذهب للمراجعة فقد كان تامر بصحة جيدة، ماذا تتخيلون؟ في اليوم الثاني جاءت طبيبة الأطفال ومعها مُرافق من المستوصف ودقت الباب بإلحاح، وحين دخلت قالت: «أنا آسفة، ولكن في المرة القادمة سأرفع شكوى ضدكم، فقد كان عليّ أن أعاين تامر أمس لكنكما لم تحضرانه إلي، ماذا أكتب، كيف أقدم تقريري؟ اعتذرنا بشدة ووعدنا

أن ذلك لن يتكرر»، وتذكرت أن أحدا لن يسأل عن أطفالنا في بلداننا حتى وإن كانوا مرضى حقا.

أعود إلى المراحل الأولى لتجربتي في الاتحاد السوفييتي، فقد بدأت أكرس نشاطاتي في التعايش مع الأدباء الروس في البداية مع الموسكوفيين الشباب، وقد مررت في هذا المجال بتجارب نوعية غير عادية لكنها كانت غنية بشكل من الأشكال على الصعيدين الفكري والإبداعي أذكر منها تجربة يمكن أن أسميها ولوج العالم غير العادي للشاعرة الشابة «مارينا» .

تعرفت إلى مارينا أثناء مساهمتنا في مسيرة احتفالية بالأول من أيار حيث كان الناس يشاركون من مختلف الأعمار، وكان الكثيرون منهم يحملون أطفالهم الصغار على أكتافهم ويغنون ويهتفون بفرح وتفاعل، ولفت نظري بعد ذلك في بعض السهرات أنها تلقي الشعر بروحها وتتمثله بكل خلاياها.

وبعد، حين دعتني إلى تجمع غير معلن «شبه سري» للأدباء والفنانين، كان معظم المبدعين في هذا التجمع في الواقع رافضين لكل شيء، وأدركت بعد عدة لقاءات أنهم مناهضون للسلطات السوفييتية، ومتأثرون بالدعايات الغربية، وإن لم يصرحوا بذلك علنا، كانوا أقرب ما يكونون إلى البوهيميين [9]، وكنت حين ألقي في السهرات معهم بعضا من أشعاري مع شرح بسيط لمضمونها أواجه بالرفض لأنها تتحدث عن بناء المجتمع والغد الأفضل أو نصرة المظلومين، وهم يعتبرون أن كل ذلك مجرد هراء، ويجب أن يفكر الإنسان بما يحقق له لذة مادية أو روحية وحسب.

وحدث أكثر من مرة، أنهم لم يوفروا الانتقاد اللاذع لي وحتى السخرية بمعنى ما هذه السذاجة عن أي عالم تكتب؟ قال أحدهم لي ذات مرة أنت تعيش في زمن نيقولاي أستروفسكي وليس في زماننا، وهو أساسا مريض نفسيا ودفع حياته ثمنا لغبائه وكونه بعيدا عن الواقع، اخترع أسطورة وعاشها نعم بصدق، ولكنها أسطورة، لا وجود لبافل في هذا الزمن [10]، الحزبيون اليوم هم المنتفعون ومعظمهم من الفاسدين.

حاولت أن أدافع عن ذاك الكاتب المناضل الرائع المتناهي في الغيرية والفداء، ولكن الجميع تقريبا كانوا ضدي ويؤيدون زميلهم -الذي كان حريصا على تدخين الغليون إمعانا بالتفرد- ما عدا مارينا التي قالت بحدة: «علينا أن نحترم آراء بعضنا حتى لو خالفت آراءكم»، راح أحدهم يعزف ويغني والحقيقة أن عزفه كان جميلا جدا ولكنه كان (يجعر) خصيصا وهو يؤدي الأغنية حيث كان سائدا هذا النمط من الغناء بصوت مخرش شبه نشاز بما يسمى أغنيات الشارع.

كانت الكلمات شبه مبتذلة، وفيها يعبّر عن رغبته بأن يمارس الحب في حاوية قمامة وما إلى هنالك من عبارات غير معقولة، قلت له: «أليس لديك أغان تعبر عن دعم الشعوب المضطهدة أو عن الإخلاص والحب الجميل الذي لا يُشترى بالمال؟» قال: «مثل ماذا؟» قلت: «كأغنيات دين ريد» [11]، قال: «لا يعجبني، سمعته مرة واحدة وبعدها بت أغلق التلفزيون كلما بثوا أغنية له»، وتطرق الحديث كما أذكر لرسالة كان

قد كتبها دين ريد إلى سولجينيتسن [12] ينتقده فيها لأنه كتب عن السجون في الاتحاد السوفييتي وكأنه بلد النازية، وكان صاحبنا هذا يدافع عن سولجينيتسن حتى لو لم يقرأه بل لأنه هاجم الاتحاد السوفييتي، وإمعانا في إظهار موقفه العدائي للاتحاد السوفييتي راح يغني مشوّها أغنية شهيرة فراح يقلب الكلمات ليعكس المعنى «عنواني في البيت والشارع وليس الاتحاد السوفييتي» [13].

شعرت أنهم كمبدعين شبيهون إلى حد كبير المستقبليين [14] الدادائيين [15]، وشاهدت أحيانا كيف أن بعضهم كان يتعاطى أنواعا من المخدرات، وبعضهم عموما كانوا يشربون عدة أنواع من المشروبات الكحولية خصيصا ليصلوا إلى حالة السكر الشديد، وعندها تحديدا حسب تصوراتهم يمكن أن يحدث الإبداع الحقيقي حين تنقذف العبارات من الأعماق دون أية رقابة من الوعي المؤدلج أو هدف توجيهي.

كانوا يدخنون بكثرة إلى درجة تكاد تحجب الرؤية، وكانت بعض المشاهد لطيفة ومسلية أقرب ما تكون إلى المسرح الهزلي، لكن بعضها كان مؤسفا ومقززا وخطيرا، وكان كل شاعر أو فنان أو قاص مع صديقته التي اختارها أيضا من الأجواء الإبداعية، وكانت الشاعرة مارينا إلى جانبي دائما، من المشاهد الغريبة أن أحدهم كان في بعض الأحيان مثلا يحلق نصف ذقنه فقط بعد أن يتركها لتطول قليلا، وآخر يجعل شنبه كشارلي شابلن، وكنت أتصبب عرقا أحيانا حين تقرر إحداهن أن ترقص رقصات إثارة نصف عارية.

وذات يوم أحضر أحد الرسامين لوحة رسمها قبل أيام، وكان من الواضح أنه مدد صديقته على طاولة كبيرة وهي عارية ورسم على ظهرها لوحة سوريالية مبتكرة، وكان الجميع ينظرون إلى ما يقوم به زميلهم الفنان بنوع من الجدية، وكأن الأمر عادي تماما، ويبدون بعض الملاحظات الفنية على اللون أو الخطوط بمن فيهم صديقته نفسها.

تابعت هذه اللقاءات في عدة جلسات، ثم همست لمارينا في السهرة الأخيرة معهم: «إنني لن أحضر بعد الآن هذه اللقاءات العبثية، فهي لا تمثلني، وبدأت تثير اشمئزازي» فقالت: «ولكنهم مبدعون حقا» فقلت: «نعم أدرك ذلك، ولكنهم في الخندق المعادي لي، ومن قال لك أن الأعداء لا يملكون فنانين ومبدعين؟ هؤلاء متأثرين جدا بالدعاية الغربية وأعداء حقيقيون للشيوعية».

ضحكت مارينا فسألت: «لماذا تضحكين؟» فقالت «إن نصفهم حزبيون وكومسومولیون [16]»، قلت لها: «تذكري أين التقينا أول مرة – في مسيرة للاحتفال بيوم العمال العالمي- وهذا ما شكل انطباعا إيجابيا عنك، وبالتالي قدرت أن يكون أصدقاؤك مثلك» قالت : «أنت محق فلنخرج إذن، لا بأس حتى وإن قاطعتهم فهم على أية حال ليسوا من شياطين دوستويفسكي ولن يكونوا[17].

خرجنا ثم قلت لمارينا انهم يطرحون آراءهم بحرية وضد السلطة في بلدهم، هل تعرفين ما الذي يمكن

أن يحدث لمجموعة من الشبان تتصرف هكذا في بلداننا؟ سيسحقونهم، ولكني بت أخشى من هذا الحال لأنه إن اتسع هذا التوجه فهو الذي سيسحق الاتحاد السوفييتي، ورغم أن عالم مارينا غير عادي إلى حد كبير إلا أنها لم تكن عادية للاتحاد السوفييتي أبدا ومشاعرها الإنسانية والأممية ناضجة.

كان الطقس صيفيا لطيفا، وكنا ثملين بالفعل، تمشينا في شوارع موسكو مسافة طويلة إذ لم يكن بالإمكان الذهاب إلى مبنى الطلبة حيث لا يسمح بدخول الزوار بعد الساعة الحادية عشرة ليلا، وكانت الساعة تشير إلى الثانية تقريبا، فجأة نزلت مارينا من على الرصيف وتوجهت إلى مكان العشب الذي ينصف الشارع وشدتني من ذراعي قائلة: «أريد أن أنام هناك وأشعر أن السيارات تمر من فوقي وأنت تحميني».

تمددنا على العشب وسط الشارع، وما هي إلا لحظات حتى غفونا، أيقظنا شرطي جوال بعد طلوع الشمس، والشمس في موسكو تشرق بوقت مبكر في الصيف، وقال إن كنتما مشردين لا بيت لكما تنامان فيه فسآخذكما لتناما في المخفر، كادت الأمور تتطور بشكل سيء للغاية حين علم أنني أجنبي وأراد الاتصال بسيارة الدورية، لكن مارينا استطاعت تدبير الوضع ولفلفة الأمور.

وحين استفسرت كيف حلت الأمر مع الشرطي، أفادتني بأنها دست خمس روبلات في يده [18]، كانت هذه الحادثة مريعة بالنسبة لي فهتفت: «شرطي سوفييتي ويرتشي» ضحكت مارينا وقالت: «عليك أن تتعجب إن وجدت شرطيا سوفييتيا لا يرتشي».

شكّل الأمر صدمة حقيقية لي، وكاد أن يمسح الصورة الإيجابية التي تحتل مخيلتي عن بلد العدالة والنقاء، بلد الشهامة والرمز الإنساني، وكان لابد لي من توجه آخر في العلاقة الإبداعية، وصرت أتابع المسرحيات والندوات والأمسيات الشعرية، وفي إحدى الأمسيات تعرفت إلى الشاعر إيغر ليابن وكان هذا التعارف فاتحة لتجربة رائعة سأتناولها لاحقا.

عطاءات أممية ستذهب هباء فيما بعد

> «تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطعه أنامله ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله»
>
> تنسب لأبي تمام

| غورباتشوف

مئات آلاف الطلبة الأجانب درسوا في الاتحاد السوفييتي، وبالتالي هناك مئات آلاف التجارب، ويمكن أن يُنظر إلى أمر واحد انطلاقا من وجهات نظر مختلفة ونتيجة تراكمات متباينة، وبما أن الاتحاد السوفييتي فيما بعد تعرض لحملة تشهير غير عادية شجعها المسؤولون الحزبيون أيام غورباتشوف، ووصل تأثيرها فيما بعد إلى بعض الذين درسوا في جامعاته من الأجانب – ما يعتبره البعض نكرانا للجميل- لذلك لا بد في البداية من تسجيل بعض المعطيات الموضوعية التي لا يستطيع أحد نكرانها حتى وإن غدا معاديا، أذكر بعض هذه المعطيات باختصار شديد ووجود السلبيات لا يلغي هذه الحقائق الإيجابية رغم أن السلبيات تكاثرت وغدت فيما بعد نتيجة المبالغة المذهلة في تصويرها إعلاميا فباتت بمثابة الأسيد الذي يحرق ويذيب هذه الإيجابيات.

القسم الأكبر من الطلبة جاؤوا منذ أواخر الخمسينات وحتى بداية عهد غورباتشوف إلى الاتحاد السوفييتي وقُدمت لهم الدراسة الجامعية العليا والسكن وحتى الاستجمام السنوي مجانا إلى جانب راتب شهري جيد، كل ذلك على نفقة الاتحاد السوفييتي، وكان الذين يأتون عبر اتفاقيات ثقافية علمية يقدم لهم على نفقته تسهيلات كبيرة جدا وتنفتح أمامهم المكتبات الضخمة والاستشارات العلمية اللازمة.

كان الطلبة السوفييت يعيشون معنا في السكن الطلابي بظروف معيشية أقل منا، وكان راتب الطالب السوفييتي يقارب نصف راتب الطالب الأجنبي، ومع ذلك فإن التربية الأممية الصحيحة كانت تدفع هؤلاء الطلبة لتقاسم ما يرسله أهاليهم من الفواكه وبعض المؤن والفودكا مع الذين يعيشون معهم في غرف واحدة.

كانت المنظمات-المؤسسات الثقافية والاجتماعية والكومسومولية تساعد وتساهم في الاحتفالات الوطنية

للطلبة الأجانب بما في ذلك تخصيص القاعات والمسارح، كما أنّه، كانت هناك خدمة خاصة في سكن الطلبة تقوم بغسل وكي الشراشف والمناشف وأغطية اللحف والمخدات أسبوعيا، ناهيك عن البرامج الثقافية والرحلات وغيرها من النشاطات التي تهدف إلى تقوية لغة الدارسين وفتح المجال لاندماجهم في الوسط الجديد.

كانت الطبابة مجانية لجميع الطلبة بما في ذلك إجراء العمليات الجراحية المعقدة، كما كانت تقام في كل عام للطلبة أثناء العطلة الصيفية الجامعية رحلات إلى جمهوريات الاتحاد السوفييتي عبر ما يسمى بقطار الصداقة، وهي مفتوحة لجميع الراغبين بأسعار زهيدة جدا وكأنها مجانية، وكان بعضها يتم بالطائرات وتشمل برنامجا سياحيا وثقافيا وفنيا ما يعمق بشكل طبيعي من تواصل الشعوب عبر الطلبة.

كانت السلطات السوفييتية تقدم لجميع الطلاب الأجانب لدى وصولهم ملابس شتوية مجانية تشمل بالطو شتوي، وطقم جوخ دافئ، وحذاء شتوي، وقبعة فرو وشارف وملابس صوفية دافئة وحتى ملابس داخلية صوفية مع ألبسة رياضية كل حسب مقاسه.

كان العاملون الأجانب في الاتحاد السوفييتي يمنحون إضافة إلى الشقق السكنية قسما من رواتبهم بالعملة الصعبة وفق السعر الرسمي الذي كان يعادل 70 كوبيكا للدولار، وكان سعر الدولار في السوق السوداء أكثر بخمسة أضعاف أو أكثر مم يجعل رواتبهم أكبر بأضعاف من المواطنين السوفييت، وتخصص لهم وللدبلوماسيين متاجر خاصة فيها الكثير من المواد التي لا تجدها في المتاجر الأخرى.

كان القسم الأكبر من الشعب متعاطفا بصدق مع الدول والشعوب المضطهدة وكان عمليا يقطع عن فمه ليقدم لها المساعدة، وكان يمكن التساهل مع أخطاء الطلبة حتى المزعجة لكن السوفييت لم يتساهلوا أبدا تجاه الدعاية للعنصرية.

ولكن الأخطاء ودفاع الفاسدين والمغرضين عنها، وتكريسها بالممارسة العملية، وتنامي الوصولية والمحسوبية، جعلت الأمر أشبه ما يكون بفلاح غبي يحلب بقرته فوق وعاء مليء بالثقوب فينسكب الحليب في التراب هدرا، بما في ذلك بعض الأخطاء الجوهرية التي حملت في البداية طابعا بسيكولوجيا ثم تحولت إلى عملية فساد ماكر، من ذلك مثلا أن ملابس الطلبة الأجانب كانت أفضل بكثير من حيث المودة من ملابس الطلبة الروس أو الطلبة القادمين من الجمهوريات والبلدان الاشتراكية ما شجع لظهور السوق السوداء وخاصة لبنطلونات الجينز وعلب الماكياج، وبدأ هذا الخط من الطلبة الأجانب تحديدا فانشد إليه الطلبة السوفييت وسرعان ما انتشر كظاهرة مدمرة.

من هنا، فإنّ بعض مظاهر الفساد في الاتحاد السوفييتي قبل غورباتشوف وإن طالت عددا غير قليل من النخبة فإن الاتحاد السوفييتي عموما ظل وفيا لمبادئه الأممية وكان يقدم للشعوب السوفييتية الكثير من الامتيازات التي فقدوا غالبيتها في مرحلتي غورباتشوف ويلتسين وخاصة الطابع الإنساني العام داخليا وخارجيا وظل في الجوهر منافحا عن حقوق الفقراء وضد التسلط والاستعمار والعنصرية.

حدث في جامعة الصداقة

«ظهرت في العالم العربي أنظمة لا تقل قسوة عن الفاشية، وهي تتبنى معظم مبادئها كتكريس الزعامة وتصفية الخصوم ومعاداة الماركسية»، صرخ الطلاب الأجانب: «فاشست فاشست»، وتدفق الطلبة من كافة الطوابق لنصرة رفاقهم» من أحاديث الطلاب ممن شهدوا الواقعة.

من بين الأخطاء الجهنمية – حسب تصوري- هي ازدواجية المعايير للوصول إلى مكاسب ضيقة حتى في العلاقات الدولية، فقد كان هناك احترام بدا وكأنه ضروري ولا بد منه للعلاقات الدبلوماسية مع الدول المناهضة للاتحاد السوفييتي ما خلق ازدواجية قاسية وبالغة الحساسية أحيانا حيث يمكن أن يأتي العديد من الطلبة عبر بعثات حكومية من هذا البلد او ذاك، ويكون لهذا البلد توجه مناهض لليسار عموما، وفي الوقت ذاته يكون عدد كبير من الطلبة الشيوعيين واليساريين عموما قد جاؤوا عبر أحزابهم والمراكز الثقافية السوفيتية للدراسة أيضا في الجامعات السوفييتية من هذه البلدان ما يشكل حالات إحراج كبيرة، بل وحتى صدامات قاسية أحيانا.

الشيوعيون مضطهدون في هذا البلد المعني ويقبعون في السجون أو تتم عمليات تعذيبهم وتصفيتهم جسديا وفي الوقت نفسه يرسل هذا البلد أو ذاك طلابه ليدرسوا في الاتحاد السوفييتي وهم يحملون الضغينة له علنا، وكان يمكن على الأقل اتخاذ مواقف مبدئية، وإيصال رسائل استنكار عبر الخط الدبلوماسي طالما هو ضروري، وليس تمرير الأمور وكأنه بلد صديق وحليف! بل والاحتفال مع أعياد هذا البلد سياسيا ما يبدو نشازا غير مبرر.

حدث ذات يوم، أن ترصّد للطلاب الشيوعيين من بلد يقوده حزب قومي معاد للشيوعية، طلبة موفدون من حكومة ذاك البلد واستعانوا بطلبة الكليات العسكرية الذين يدرسون في موسكو من هذا البلد، فتقاطروا إلى جامعة الصداقة بوقت محدد، وانهالوا على الطلبة الشيوعيين من ذاك البلد ضربا في بهو جامعة الصداقة حيث تصيدوا عددا قليلا من هؤلاء الطلبة الشيوعيين، وكانوا هم كثرة فانتبه بعض الشباب اليساريين العرب والأجانب وخاصة من أمريكا اللاتينية إلى أن الذين يتلقون الضربات هم من رفاقهم وأصدقائهم، وأن عدد المهاجمين أكثر بكثير فراحوا يصرخون «فاشيست فاشيست».

انتشر الخبر بسرعة، وهرع الطلبة اليساريون في المبنى من غرفهم بشكل غير متوقع، كانوا يركضون بلهفة وحماس وينخرطون في المعركة بشكل لا يصدق، ولقنوا المعتدين درسا لن ينسوه أبدا، واستخدمت الكراسي وما وصل إلى الأيدي في هذه المعركة وطردوا المعتدين خارج المبنى وهم بحالة مزرية تماما، وراحوا يعالجون رفاقهم المصابين، طبعا جاءت الشرطة وجرى تحقيق في الأمر لكن ذلك لا يستحق التوقف عنده، وسيسجل الحادث وكأنه مشاجرة عابرة.

مع ألمع المشاهير

« كان متواضعا جدا رغم أنه من أشهر كتاب العالم، فقد ترجمت رواياته إلى 165 لغة وبيع منها أكثر من 100 مليون نسخة، وظل ودودا يحدثك بصدق ويستمع إليك بلهفة» من انطباعاتي عنه إثر بعض اللقاءات.

المعادل الموضوعي الجميل كان في لقاءاتي مع بعض الشعراء والكتاب العالميين، ومن خلال النشاطات العديدة التي ساهمت فيها في مختلف المدن السوفييتية، وكنت أستغل أي لقاء مع أي مبدع مشهور أثق به لأطرح عليه تساؤلاتي واستفساراتي ومشاهداتي للسلبيات سأختار بعضا من هذه اللقاءات مع بعض المشاهير:

أول لقاء بالغ الأهمية كان مع الكاتب العالمي جينكيز ايتماتوف، وقد تكررت اللقاءات لعدة مرات كان يميزها أنها كانت مليئة بالحوارات التي انبثقت عن اللقاء الأول الذي كان مديدا ونشرته موسعا (في مجلة اتحاد الكتاب العرب – الموقف الأدبي، ومختصرا في صحيفة تشرين) [19]، من هنا سأشير إلى أهم نقاط الحوارات التي جرت سواء منها الأول الذي نشر أو ما جاء في اللقاءات اللاحقة، فهذا على الأقل من بعض أوجه الوفاء.

التقيت بأيتماتوف ثلاث مرات مرة في «فرونزة» عاصمة قرقيزيا آنذاك، إبان مؤتمر دولي للأدباء الشباب وكان أيتماتوف ضيف شرف وراعيا للمؤتمر، لكن الحديث كان عابرا، ومرتين مطولتين في موسكو، كان اللقاء

جنكيز إيتماتوف
وأيمن أبو الشعر

صدفة في مبنى اتحاد الكتاب الذي كنت أتردد إليه دائما، وعرفته على نفسي وسألته فيما إذا كان لديه وقت ليستقبلني في حوار نوعي قد يستمر ساعات ابتسم وقال أنا حاليا أعتبر شكليا زائر في موسكو لأيام ولإنجاز بعض الأعمال، ولهذا أقيم بشكل مؤقت في مؤسسة السينما السوفييتية سأنتظرك غدا.

فكرت في إعداد بعض الأسئلة ثم عدلت عن الفكرة لأنني في الواقع أود أن أسأل الكثير وأدرك مسبقا أنني سأحاور كاتبا عالميا ترجمت رواياته إلى معظم لغات العالم وتحول الكثير منها إلى أفلام سينمائية، باختصار زرته في مؤسسة السينما حيث جلسنا في البداية بغرفته لساعتين تقريبا ثم اقترح أن نتابع الحوار في الهواء الطلق وها أنذا أوجز أهم محاور هذا اللقاء والذي بدأه بمكاشفة شبه تحريضية لطيفة بقوله أنه سيجيب عن الأسئلة أيا كانت ولن يسكت حتى أشعر بالملل، فأجبته بأنني على أية حال لن أطرح أسئلة محرجة كثيرا (ابتسم بالطبع حين سمع لن تكون محرجة كثيرا)، وأضفت ومهما طال الحديث معك فإنه لن يدفع إلى الملل- حين اعتذر لكونه يستقبلني في غرفة قد توحي بحياة الطلبة، سألته فيما إذا كان المكان يؤثر على الكاتب وموضوعه فأجاب أن المهم أن تكون لديه أوراق وأقلام كافية بحيث لا ينقطع عن الكتابة لأسباب تافهة كانتهاء الحبر أو الورق، ما عدا ذلك يمكن أن يكتب عن البحر وهو في أعماق غابة.

حاولت أن أستفسر عن موقفه تجاه إعدام والده لكنه استطاع تحويل الحديث إلى أمور أخرى بذكاء ومهارة ساعدته طبعا دون أن يشعر بتحقيق هذا الانعطاف، لكن الملفت للنظر أنه لم يتحول رغم تلك الواقعة الأليمة إلى معاد للاتحاد السوفييتي كما فعل الكثيرون بحجة اضطهاد الأقارب.

تحدثنا قليلا عن البدايات، وذكرت له أن قصة جميلة على بساطتها هزت وعي المتلقي وخاصة في المجتمع الشرقي حيث تبدو جميلة متمردة تناسب هذا المجتمع الذي يبنى من جديد بخطى وئيدة واثقة، ومن الآراء الفنية النوعية التي علقت في ذاكرتي أنه من خلال رده عن سؤالي حول مدى صدقية رسم الكاتب الملتزم لبطل إيجابي في ظروف سلبية وقاهرة تماما، حيث أوضح أنه يعتبر أن الصدق الفني مرتبط بتوجه شمولي منبثق عن الواقع المعاش لا عن وصفة مسبقة، وبهذا المعنى فإن رسم بطل إيجابي في ظروف قاهرة لا يجافي الصدق الفني لأن المجتمع لا يكون مهزوما وممزقا بشكل مطلق ونهائي، بل يحمل نقيضه في داخله فيبدو البطل مميزا عما حوله وأشار إلى أن «جميلة» بطلة إيجابية ظهرت في أعماق المجتمع البطريركي المتخلف، ويمكن أن يكون البطل في مثل هذه الحالات فردا أو جماعة يمثل أو تمثل مرجل التغيير، وتحقق أو تشرع في تحقيق الخطوة الأولى، وأضاف الكتاب المبدعون في هذا المجال لم يخترعوا هذه الأبطال لكنهم اكتشفوها وأظهروها.

توقف قليلا عند طفولته القاسية، وخاصة إبان الحرب حيث عانى الناس بشكل جحيمي في الجبهة الداخلية حتى يمكن القول أن حياتهم كانت

أقسى من حياة الجنود على جبهات القتال، وذكر أن ذلك انعكس على تجربته هو نفسه حيث اضطر إلى ترك المدرسة وهو في الصف السادس كي يعمل، فقد ذهب جميع الرجال إلى الجبهة ولم يبق في البلدات والقرى سوى العجائز والنساء والأطفال، وأوضح أن هذه التجربة المبكرة جعلته ملتصقا بحياة الناس المباشرة ومعرفة تفاصيلها الأمر الذي انعكس في أعماله الأولى «كالجرافل، ووجها لوجه «والتي كانت متأثرة أيضا بالثقافة الإسلامية وخاصة في قرقيزيا التي تكثر في لغتها الكلمات العربية كذلك.

استوقفتني لفتة مذهلة في تصوري أتمنى أن يستوعبها المبدعون عندنا، فقد قلت لأيتماتوف أنني لاحظت في الحقيقة بعض التشابه بين قصته «وجها لوجه» وقصة فالانتين راسبوتين «عش وتذكر» على الأقل في إطار عودة الزوج من الحرب إلى الزوجة، فقال بهدوء:» هذه وقائع كانت تشكل ظاهرة عامة من البديهي أن يتناولها أكثر من كاتب وفي الإطار الزمني كتبت هذه القصة قبل راسبوتين بقرابة عشرين عاما، ومع ذلك أستطيع القول بثقة أن قصة راسبوتين أفضل وأعمق، فقد كتبها وهو في سن النضج الفني أما أنا فكتبتها في بداياتي»، كاتب عالمي يقول ببساطة أن قصة كاتب آخر أفضل من قصته.

تساءلت عن مبرر تراجع حضور المرأة في أعماله الأخيرة، فأوضح قائلا: «أن حضورها لم يتراجع لكني لم أعد أتناولها كبطلة في علاقة حب «كجميلة» وأن التمحور حول علاقة

اراغون
فتح الطريق أمامي
عندما يلغي الأديب وظيفة الأدب لا يبتعد
عن السياسة بل يبتعد عن هموم الوطن والجماعة

ايتماتوف..
وتألق امكانيات الواقعية الاشتراكية
د. أيمن أبو الشعر

الحب منوط أكثر بعمر الشباب، أقصد عمر الأديب وهو شاب، وأذكر في إحدى اللقاءات أن أحد الحضور وجه لي سؤالا يقول: «كيف تنظر إلى «جميلة» الآن فأجبت «جميلة»! لا شك أنها أصبحت جدة الآن»، فقلت له رغم طرافة المفارقة إلا أنني لا أوافق معك «فجميلة» ستبقى شابة دائما، وتجاوبها بالغناء مع الجندي السابق الأعرج هو رمز رائع لتجاوب القلوب، فاستطرد موضحا: « طبعا بالمعنى الرمزي الجوهري، وقد قام أراغون بترجمتها بنفسه إلى الفرنسية، وكتب عنها ففتح أراغون بذلك طريق الشهرة أمامي لقد ساهم مساهمة كبيرة في انتشار أعمالي عالميا، طبعا أنت محق ستبقى «جميلة» شابة وأنا بدأت أكتهل.»

نوّه أيتماتوف بأنه بات يتناول قضايا فلسفية كبرى كقصة «الكلب الأبلق»، فتساءلت ألم يؤثر اختياره الأبطال من هذه البيئة الريفية المغلقة كثيرا على مواقفهم تجاه الموت المحقق واتخاذ القرار بالفداء، وربما لو كانوا من مدينة كبيرة ومروا بظروف مشابهة لاختلفت مواقفهم، فأوضح أيتماتوف أنه لم يفكر بالأمر، وأن سؤالي مشروع تماما بل ربما كانوا سيضحون بالآخرين لينجو بأنفسهم، هذا صحيح أبطال الكلب الأبلق لم تشوههم الحضارة، وما زال حس الغيرية والحرص على استمرار النوع عبر الطفل هو الطاغي عندهم، قلت حسنا يبقى العمل موحيا بالتفاؤل انطلاقا من الطفل الذي يبقى حيا في الكلب الأبلق

ولكن يقول البعض أن نهاية السفينة البيضاء تجافي الواقعية الاشتراكية «بموت الطفل» وكأن في الأمر استسلاما مقهورا للواقع الفاسد، ثم ألم يكن الحلم في السفينة البيضاء تعويضا لعله يجد أباه هناك (كحلم بمجهول غائم غامض) [20] عن مواجهة الواقع والسعي لتغييره، ما رأيك؟ فأوضح أيتماتوف أنه لا يجوز تأطير الواقعية الاشتراكية بحدود جامدة، وموت الطفل والاستعانة بالحلم يتعلقان بالأسلوب الفني للكاتب، والواقعية الاشتراكية لا تقرر أن تكون جميع نهايات الأعمال الإبداعية سعيدة نرى مثل هذه النهايات السعيدة كثيرا في الأفلام الأمريكية، كما أن الحلم ليس هروبا من الواقع بل موازٍ موضوعي له، فالطفل عاجز كونه طفلا عن توحيد الأبطال الإيجابيين لكي يلعبوا الدور الحاسم الذي لم يلعبوه والذي كان يمكن أن يغير عالم القصة كلها، بل أذهب أبعد من ذلك فأقول لو جعلت الطفل يفعل ذلك لجافيت أحد أهم شروط الواقعية الاشتراكية وهو الانعكاس الحي عن الواقع، الطفل يستدعي في الحلم صديقه الشاب القوي النقي لا لكي يدافع عنه شخصيا بل ليدافع عن قيم الخير والجمال، وحين ينكسر هذا التوازن تماما لم يعد الطفل قادرا على الاستمرار في حياة القهر المنافي

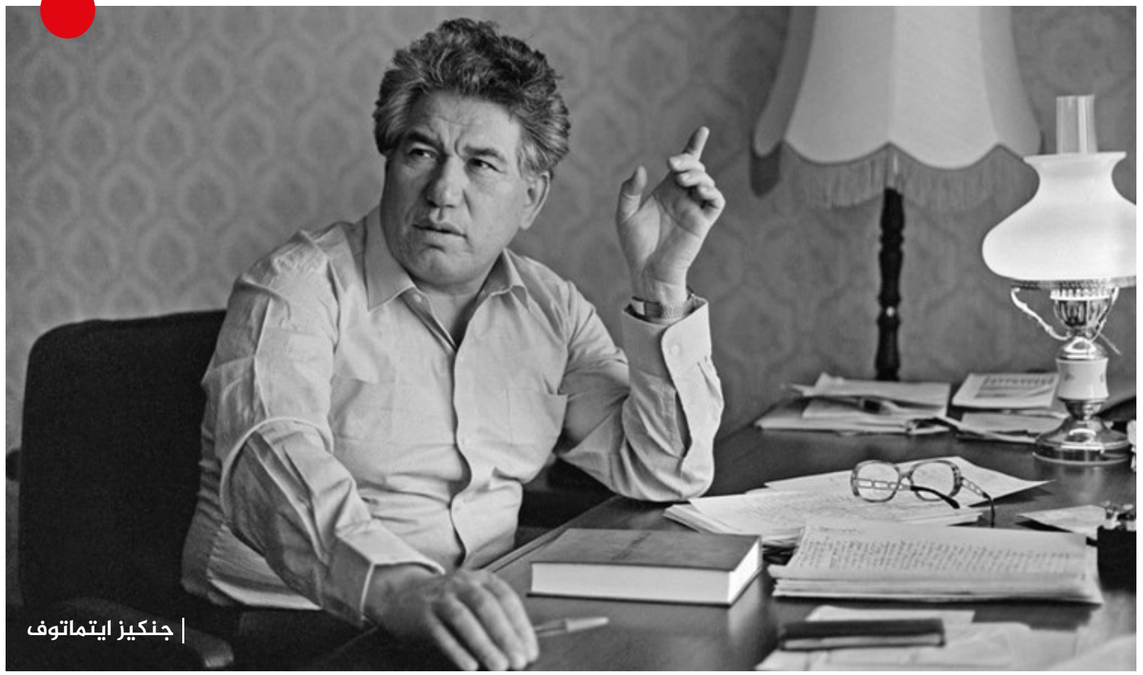

| جنكيز ايتماتوف

لبراءته، وكان موته أيضا بمثابة رفض لهذا الواقع.

لم أشأ أن أحرج محدثي الكبير، لكني ارتحت لكونه في واقع الأمر بدأ يكتب لانتقاد المظاهر الخاطئة بل والقاهرة، وبدأ يفضح الفاسدين الذين بات قسما كبيرا منهم يسيطر على بعض مفاصل الحياة، ويقتل الطيبة والأصالة والبراءة، السفينة البيضاء رواية تعتمد الفضح وتعرية الفساد الذي راح ينخر جسد الاتحاد السوفييتي بقوة، خاصة أن مثل هذه السلبيات باتت تؤرقني تماما. وحين قلت له إنني بت أخشى على مجمل التجربة السوفييتية نتيجة تفشي الفساد قال: نعم إني أفهمك.

ثم تطرقنا إلى روايته التي تقارب أجواء الخيال العلمي وتبقى في محورها الآخر مشدودة للواقع، «ويطول يوم أكثر من قرن» وتوقفنا مطولا عند مفهوم البطل الإيجابي الذي اعتبر أن إيجابيته تتحدد بما يستطيع أن يحققه للصالح العام لا بجزئيات شخصيته التي يجب أن تنبثق عن الواقع، وانتقلنا إلى مناقشة دعوات إبعاد الأدب عن السياسة والهجوم على الأدب والشعر والفن الذي يكون له دور وظيفي سياسي ويجري ذلك أحيانا باسم التقدم، فأوضح أن هذا الطرح «إبعاد الأدب عن السياسة» هو طرح سياسي بامتياز، ولكنه ينطلق من الجبهة المعادية، وأكد أنه لا يمكن إبعاد الأدب عن السياسة حتى لو تعمدنا ذلك، وأن هذا الطرح شبيه بالطفرات الاستثنائية التي ظهرت في عشرينات القرن العشرين، والمبدع الذي يكون وطنه تحت القصف والحصار ويعاني شعبه من هجمة شرسة إن «ترفّع» عن تناول ذلك الواقع وشحذ همم النضال بحجة الابتعاد عن السياسة يكون في الواقع قد ابتعد عن هموم وطنه، وساعد أعداء الوطن بتجاهل ما يعانيه وطنه، بل يكون قد ابتعد عن جوهره الإنساني واقترب شاء أم أبى من العدمية، بل أستطيع القول أن الأدب يرتقي حتى يصل إلى إمكانية التأثير السياسي.

حتى أواسط الثمانينات، كانت انطباعاتي قد نضجت لتشكل رأيا مؤلما حول انتشار ظاهرة الفساد، لذا كانت السنة الأولى لقدوم غورباتشوف مفعمة بالآمال الممزوج بالتساؤلات حول المبالغة بالتشهير بكل التجربة السوفييتية، ومع ذلك عمقت التفاؤل بالأمنيات وكتبت مسرحية رجل الثلج بالروسية مكثفا فيها انطباعاتي عن مظاهر الفساد التي استشرت في الاتحاد السوفييتي في السنوات الأخيرة قبيل استلام غورباتشوف [21]، حيث تتحدث المسرحية عن هروب اثنين من الفاسدين مسؤول كبير ومساعدُه عبر الجبال بهدف اختراق الحدود بعد أن حولوا الأموال المختلسة إلى الخارج مستغلين وجودهم في مراكز حساسة، وتتطور الأحداث في تناقضات مذهلة حين يكتشفان في المغارة اسرة هربت منذ الغزو النازي لروسيا ظنا منها أن الألمان انتصروا وسيطروا على البلاد فظلوا في مخبأهم حيث يقتل الأخ أخاه لكي يتزوج من أختهما الوحيدة (استعادة قصة قابيل وهابيل بإسقاط معاصر) إلى أن تتكشف حقيقة المسؤولين الفاسدين الهاربين في النهاية في ظروف غير متوقعة مدهشة، ويساقان إلى موسكو مع العائلة التي تكتشف أن حياة جديدة قد نشأت وانتصر الشعب السوفييتي.

تفاءلت كثيرا بقدوم غورباتشوف وأطروحاته حول التجديد وإعادة البناء والتسريع الاقتصادي والعلنية، وقدمت المسرحية على الورق لأيتماتوف راجيا أن يعطيني رأيه فرحب بذلك كونها عملا نثريا، وحين التقينا بعد بضعة أيام كنت وجلا

رجل الثلج بالروسية
مسرحية

رسول حمزاتوف

بالفعل خشية أن يكون رأيه سلبيا، انتظرت قليلا ثم سألت فيما إذا كان قد وجد الوقت لقراءة المسرحية لكنه سألني مقاطعا فيما إذا كنت أفضل الشاي أم القهوة، فتعرقت ظنا مني أنه يريد أن يهرب من الإجابة، وبعد قليل قال لي بما معناه أنه تمدد في السرير، وبدأ بقراءة المسرحية كونه تعود أن يقرأ قبل النوم، لأن القراءة تساعده للولوج بحالة النعاس، إلا أن أحداث المسرحية وتصاعد مفاجآتها، والرغبة في معرفة الخروج من مآزق أبطالها جعلته يستيقظ ، فنهض وشرب فنجان قهوة وتابع قراءتها حتى النهاية.

ابتسم وقال هكذا أوجز رأيي بالمسرحية ومد يده مصافحا، ثم أضاف أخشى يا أيمن أن ينتصر الفاسدون عندها سنكون ملاحقين ومضطهدين وقد تصل الأمور إلى طردك من المنزل، هززت رأسي معبرا عن أن ذلك غير معقول.

لابد من الإشارة هنا، إلى أن لقاءاتي بأيتماتوف كانت قبل زيارته إلى إسرائيل بسنوات عديدة والملفت للنظر أنه كان يتحدث أحيانا بتعاطف واضح مع الشعب الفلسطيني ولا أدري من أقنعه بأن الصداقة مع إسرائيل هي الطريق إلى جائزة نوبل للآداب والانفتاح من جديد على العالم خاصة أن الاتحاد السوفييتي قد انهار.

أخيرا، أشير إلى أن جنكيز أيتماتوف هو الذي نصحني بتوطيد الصداقة مع رسول حمزاتوف، وقال بما معناه:» هناك ستجد ضالتك المنشودة أكثر مما تجدها عندي، رسول حالة استثنائية جميلة مذهلة، أما أنا فكاتب روائي أستقرئ الحياة وألتزم بقوانينها، وهو شاعر يعيشها ويكوِّنها وفق قوانينه، بقلمه وروحه، وأضاف، ولكن آمل ألا تنسياني فأنتم معشر الشعراء تتقبلون العالم في لحظات تكثفونها فيما تعيشون كحلم تودون تحقيقه، ونحن الروائيين على العكس منكم تماما نكثف حلمنا عبر الحياة التي نراها من خلال رصد الواقع الذي نعيشه ونرفضه».

المصادر:

[1]-تشير صحيفة قاسيون -عدد 8 آذار 2021 - إلى أن صدور جريدة «الاشتراكية» كان عام 1912 كجريدة جدية هزلية مصورة صاحبها ومديرها المسؤول حلمي الفيتاني

[2]-كان الشائع أن يطلب المستأجر مبالغ كبيرة ليخلي البيت نتيجة وجود قوانين لا تسمح بإخراج المستأجر نهائيا...ومبلغ خمسة آلاف يعادل أجرة البيت لأكثر من خمس سنوات وبهذا المعنى سيكون على المرأة أن تدفع من جيبها أكثر مما أخذته مني

[3]- من الحديث الشريف «الكبائر السبع» حديث صحيح عن أبي هريرة.

[4]-من الكنايات الشعبية السائدة في حلب أبو الخيمة الزرقاء أي صاحب الخيمة الزرقاء والمقصود «الله» صاحب السماء من الكنايات الشعبية السائدة في حلب أبو الخيمة الزرقاء أي صاحب الخيمة الزرقاء والمقصود «الله» صاحب السماء

[5]-فوزي العريقي ذكريات عن السجناء السياسيين

https://www.facebook.com/alawia.osman.vinogradova/posts/10215220002351685

[6]-كانت العادة في تلك المرحلة أن يقدم المواطن عدة كيلو غرامات محددة من الصحف والمجلات التي تتم عملية إعادة تدويرها بحيث توفر كميات كبيرة من الورق حيث كانت الكتب في جميع المجالات وخاصة الإبداعية تطبع بكميات هائلة

[7]-صورة عن مهرجان بوشكين

[8]-أندريوشا هو مصغر اسم أندريه وهو أسلوب شائع جدا في روسيا ويطلق على الصغار وحتى على الكبار للتحبب

[9]-منشأ التسمية يعود لوصف الغجر القادمين من رومانيا عبر منطقة بوهيميا في التشيك لكن المصطلح انتشر بعد ذلك بقوة في فرنسا في القرن التاسع عشر لوصف الفنان الذي يعيش بشكل يخالف المجتمع وينادي بحرية مطلقة ثم انعكس كذلك في الأدب وخاصة انعكاس طبيعة حياة الشباب في عشرينات القرن التاسع عشر في البؤساء لهوغو والتي تعبر عن نمط حياة البوهيميين ثم انتشرت كطابع حياة في العديد من بلدان العالم

[10]-نيقولاي استروفسكي كاتب سوفييتي من أوكرانيا (1904-1936) صاحب رواية كيف سقينا الفولاذ التي كانت إحدى أشهر الروايات عالميا في الفترة السوفييتية، وهي في الواقع سيرة ذاتية لنضاله المستميت في سبيل بناء العالم الجديد والدفاع عن السلطة السوفييتية في مراحلها الأولى والصراع المرير مع اعدائها والمخربين داخلها حيث ينهكه المرض ويستمر في النضال حتى الرمق الأخير، وتعتبر نموذجا فريدا للغيرية والتضحية في سبيل المبادئ!

[11]-دين ريد – مغن ومخرج وممثل يساري أمريكي – 1906-1986 عاش معظم حياته في أمريكا اللاتينية وألمانيا الشرقية ونال شهرة واسعة في الدول التقدمية والمعسكر الاشتراكي وأنتج فلما عن الملحن والمغني التشيلي فيكتور غارا. مات دين ريد غرقا في بحيرة قرب منزله في برلين ويقال أنه انتحر أو قتل

[12]-ألكسندر سولجينتسين كاتب روائي ومؤرخ روسي معارض للاتحاد السوفييتي 1918-2008 طرد من الاتحاد السوفييتي عام 1974 وعاد بعد انهياره إلى روسيا عام 1994 -كان جده لأمه ضابطا في الجيش الامبراطوري- اعتقل الكسندر لمعاداته للاتحاد السوفييتي وسجن في معسكر عمل، وقد عكس تجربته المريرة هذه في روايته أرخبيل غولاغ (سنتناولها في الحلقة القادمة) وهي حول الممارسات القاسية في السجون ومعسكرات العمل في المرحلة السوفييتية حتى أن السلطات سحبت منه الجنسية ونفي ليعيش في سويسرا ثم في الولايات المتحدة... منح جائزة نوبل للآداب عام 1970

[13]-أغنية عنواني هو الاتحاد السوفييتي كانت شهيرة ومتداولة جدا في السبعينات والنصف الأول من الثمانينات عن الحب الأممي والكادحين- كلمات فلاديمير خاريتونوف وألحان ديفيد توخمانوف عام 1972 بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الاتحاد السوفييتي، ومنذ قدوم غورباتشوف لم تعد تسمع كالسابق في الإذاعة والتلفزيون

https://www.youtube.com/watch?v=7uahAkc7UuE

[14]-المستقبليون-المستقبلية حركة إبداعية ظهرت في البداية في إيطاليا حيث صدر بيان المستقبلية (1909) وانتشرت بقوة في روسيا في جميع الفنون منذ عام 1913 بمزيج بين التكعيبية الفرنسية والمستقبلية الإيطالية حتى أنها اعتبرت في البداية تعبيرا عن الجانب الإبداعي للثورة البلشفية وكان مایاكوفسكي مستقبليا في بداياته وكانت تركز على رفض القديم ومناهضة الأذواق السائدة

[15]-الدادائيون -الدادائية حركة ثقفية تشكلت أولا في سويسرا(1916) إبان الحرب العالمية الأولى كتعبير سلبي عن رفضها وركزت على رفض المنطق الفن السائد وحتى الذوق العام في مختلف أنواع الفنون، وانتشرت في العديد من بلدان العالم وعلى أنقاضها نشأت السوريالية

[16]-الكومسومول منظمة الشباب التقدمي تأسست عام 1918 كمرحلة أولى لتأهيلهم للدخول في الحزب، تتبنى الماركسية اللينينية وقد تم حلها إبان يلتسن عام 1991

[17]-تقصد أنهم لن يقتلوني كما قتل عناصر الخلية الثورية العدمية أحد أعضائها «إيفان» لأنه قرر الانسحاب من المجموعة في رواية الشياطين لدوستويفسكي

[18]-الخمس روبلات في ذاك الزمن كانت تكفي لغذاء اثنين في مطعم فاخر

[19]-صورة اللقاء في صحيفة تشرين مع ايتماتوف

[20]-صورة غلاف السفينة البيضاء وإهداء أيتماتوف

[21]-صورة غلاف مسرحية رجل الثلج

حقائق تاريخية لا يجوز نسيانها

كان رسول يشعر بدنو الكارثة بألم ولا يستطيع حيالها شيئا

«إن كنت ستطلق النار من المسدس على الماضي فإن المستقبل سيطلق النار عليك من مدفع» من أقوال رسول حمزاتوف.

فافشكيفيتش وأيمن ابو الشعر

تعرفت إلى الشاعر الكبير رسول حمزاتوف في مبنى اتحاد الكتاب السوفييت، وأنا أعتبر ذلك مكسبا أدبيا تاريخيا بالنسبة لي، كنت آنذاك أعد أنطولوجيا الشعر السوفييتي، هناك دار حديث شيق مقتضب في البداية ومن ثم توجهنا إلى كافتيريا اتحاد الكتاب، وكانت معنا أولغا فلاسوفا وإيغر يرماكوف. [1]

أخبرته عن ترجمتي وإعدادي لأنطولوجيا الشعر السوفييتي التي يكاد مجلدها الأول أن ينجز واقترحت عليه أن يختار بنفسه بعضا من قصائده لأترجمها، فأثنى على فكرة الأنطولوجيا لكنه أوضح أننا سنتحدث عن ذلك لاحقا.

لفت نظري في حديثه أنه يصغي مليا، وإن تحدث فجأة يكثف حديثه ببضع كلمات تقترب من الحكمة، وكان إلى جانب ذلك شخصية ظريفة محببة مرحة لا تخلو تعليقاته من الفكاهة وحتى المزاح، وعندما نهض مودعا قلت له: « لقد أسعدني جدا هذا اللقاء، إنك تحافظ على طفولة رائعة وحكيمة « فابتسم وقال: «هذا مديح أم ذم؟» فذكرته بأنني قلت طفولة رائعة وحكيمة، قال وهو يضحك: «أدري أنك تقصد إطرائي، ربما في المرة القادمة سأحاول أن أبدو كهلا أو عجوزا تماما، سأحضر عكازا معي»، فقالت أولغا على الفور: «أنت أكثرنا شبابا»، وضحكنا معا، واتفقنا على لقاء بعد أيام في مبنى اتحاد الكتاب أيضا، حيث تتالت اللقاءات وكانت غنية للروح حقا، ولفت نظري أن رسول كان يتحدث بحماس عن القضية الفلسطينية رغم أن بعض الأدباء والشعراء في تلك الفترة كانوا قد بدأوا حتى بمغازلة إسرائيل، وربما تخيل بعضهم أن الوصول إلى الجوائز العالمية بما في ذلك جائزة نوبل إنما تمر عبر كسب ود إسرائيل، أما حمزاتوف فكان واضحا وجليا في تعاطفه مع القضية الفلسطينية.

ذات يوم، كنت قد دعوت إلى «مطعم» اتحاد الكتاب صديقي الكاتب المسرحي فلاديمير كوسموتشيفسكي والشاعرة الجورجية مزيا خيتاغوري وابنتها الشاعرة إيرينا إلى العشاء، وكان معنا صديقان بولونيان من أصحاب مزيا -لم أعد أذكر ربما كانا كاتبين أو شاعرين- وبعد حين جاء رسول حمزاتوف إلى طاولة مجاورة فأشار

إليّ فلاديمير بعينيه أن انظر مَن هناك، نظرت نحو حمزاتوف الذي كان ينظر باتجاهنا فتلاقت نظراتنا ونهض ونهضت بشكل عفوي وتعانقنا مليا، وهتف رسول لأصدقائه على الطاولة المجاورة هذا أخي شاعر من سوريا، وأنا فرح به، عرفته على من كان معي حيث استقبله البولونيان ببرود، وبعد حين رفع رسول كأس الصداقة السوفييتية العربية بصوت عال، وكأنه يريد أن يغيظ بعض من كانوا على طاولات بعيدة نسبيا،وربما كان هناك أحد أصدقاء الشاعر يفتيشينكو وأراد رسول أن يسخر منه حيث قال ما معناه على ما أذكر» مؤسف بالطبع ما حدث في بابي يار ولكن أفضَلُ من الكتابة عن «بابي يار» كيهودي هو أن نحس بدفء «بابي ليتا» [2].

طبعا أدركنا ما يرمي إليه ورفعنا نخبه ما عدا البولينيين اللذين حاولا السخرية المبطنة من خلال تكرارهمالعبارة الترجمة أجمل من الأصل، تحمَّل رسول ومرر الأمر ربما إكراما لي، ولكنهاستغل خروج مزيا وابنتها لبعض الوقت، وتقدم من الطاولة وألقىبضعة أبيات بالأفارية ومن ثم بالروسية، ثم قال للبولونيين بما معناه: «أنا معروف في بولونيا بلدكم أكثر منكما، فقولا هنا ما تريدان لن تصلوا إلى أحد، ولكني على الأقل وصلت إلى جماهيركم أنتم عبر اللغة الروسية التي تكرهونها» مرَّ ذلك بسرعة كبيرة لدقيقة أو دقيقتين وعاد رسول إلى صحبه فيما ظل البولونيان مذهولين طيلة السهرة،

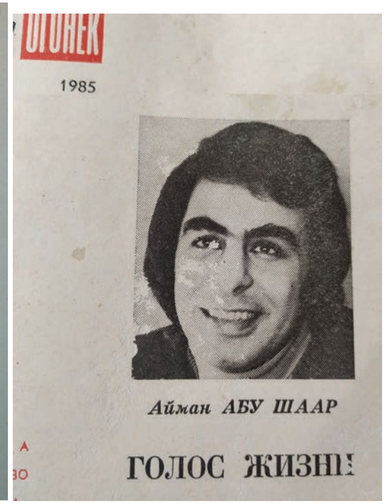

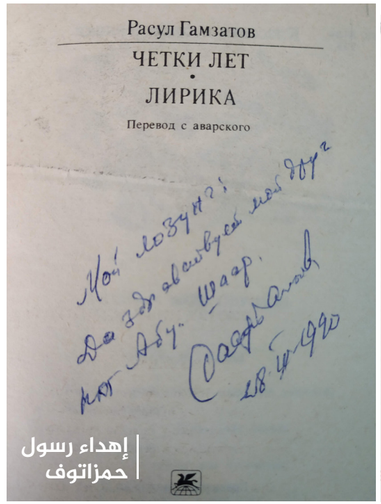

إهداء رسول حمزاتوف

وبالنسبة لي كان ذلك مؤشرا إضافيا على وجود جمرات تحت الرماد حول تعاظم استياء البولونيين من الاتحاد السوفييتي وروسيا بشكل خاص الأمر الذي كان قد نبهني إليه الشاعر البولونيمارك فافشكيفتش [3] بعد حوار مسهب معه قبل حين من الوقت حيث فاجأني حين نوه لي بأن الأوضاع في بولونيا نتيجة التأثير الغربي وأخطاء المسؤولين الشيوعيين تسير نحو تدمير التجربة الاشتراكية والأممية عموما في بولونيا، بللم يُخفِ»مارك»توقعاته بانتصار حركة التضامن المعادية للشيوعيين، وأن تكون عاصمة حلف وارسو أول من يدمر هذا الحلف مشددا على أن هذه الأقوال ليست للنشر لكنها توقعات لها مصداقيتها.

دعاني رسول إلى بيته مرتين ولا أدري في الحقيقة هل هو بيته أم بيت ابنته لكنه كان في شارع غوركي غير بعيدعن تمثال مایاكوفسكي إن لم تخني الذاكرة، في الزيارة الأولى قدمت له مجموعة شعرية صغيرة لي صدرت باللغة الروسية عن دار البرافدا، وتحدثنا عن مشروع متابعة المجلد الثاني بعد أن صدر الأول من أنطولوجيا الشعر السوفييتي، وعندما ذكرته بأنه وعد بأننا سنتطرق إلى مسألة ترجمة أشعاره نهض وأحضر مجموعتين كبيرتين باللغة الروسية، وكتب إهداء مميزا بصيغة شعرية جميلة قال في إهداء الكتاب الأول: «أتمنى لصديقي الشاعر أيمن كل ما تتمناه روحه له ولأقربائه وأصدقائه، ولخصومه ما يتمناه لهم « وفي الإهداء الثاني « شعاري عاش صديقي أيمن أبو الشعر»تخيلوا شاعر عالمي بحجم رسول حمزاتوف

يحمل قلب طفل وديع، ويغدو حب صديقه العربي شعارا له [4] وقال اختر بنفسك ما تشاء، ولكن أرجو أن يكون ذلك في كتاب خاص بي ولا تدخلني في الأنطولوجيا مع احترامي لجميع الشعراء الذين ستتناولهم، فوعدته بذلك وكم يؤسفني أن انشغالات الحياة الكثيرة لم تتح لي أن أفي بوعدي في تلك الفترة وقد سبقني إلى ذلك صديق مترجم جيد ما أزاح عني عبء تأنيب الضمير .[5]

كانت السهرة التالية في بيت رسول مرحة جميلة ولطيفة جدا، حدثني عن بعض جولاته العالمية بما في ذلك لبعض الدول العربية، وانتقل بنا الحديث عن الحملات على الاتحاد السوفييتي، فذكرت له بعض انطباعاتي السلبية واستيائي من الهجوم الشنيع على ماضي الاتحاد السوفييتي وتشويهه إلى هذه الدرجة، وفي الوقت نفسه عتبي على من يصمت عن الأخطاء ولا ينتقدها، ويترك للمغرضين أن يحولوها إلى سمة رئيسية للاتحاد السوفييتي الذي تربينا على أنه بلد العدالة والأممية ، فقال منبها: «عليك أن تدرك يا صديقي السوري أن الصراع لا يزال قائما، وكثير من الخصوم والأعداء متغلغلون بيننا، أحيانا لتكريس الدعاية المعادية، وأحيانا للتصرف تحديدا بحيث يتم التشهير بالاتحاد السوفييتي، نعم هناك أخطاء، وأين لا توجد أخطاء لعلها سنة الحياة لكي نميز بحسنا النقي هذه المفارقة ونختار الطريق الصحيح، قد تحدُث انتكاسات في عمر الشعوب لكن سجل التاريخ لا يرحم

فمن يطلق النار على الماضي من مسدس سيطلق عليه المستقبل النار من مدفع، وكرر ذلك مرتين».

هدأت قليلا ثم غيرنا الحديث، وراح يمزح مع زوجته فاطمة حول أن الفتيات يعبترنه شابا وفارس أحلام، فقلت له بصراحه يا رسول أنا أستغرب حب الجنس اللطيف لك، أنت قصير وذو كرش، وبهذا العمر، مظهرك وحتى وجهك يذكرني بألفريد هيتشكوك [6]، فضحك كثيرا حتى اهتز كرشه وراح يهدئه بيديه، وأدمعت عيناه وقال: «المهم يا صديقي أنني أحبهن أنا كما لا يحبهن أحد، ولهذا أكتب فيهن قصائد جميلة تجعلهن يحبونني».

ومن أجمل قصائده في التعبير عن الحب المميز والتي ترجمتها بعد حين في تلك الفترة:

”

لو ألف رجل
إنْ كان في هـذا العالمِ ألفُ من الرجالْ
يمضـونَ نحوكِ كيمـا يخطبونكْ
فاعلمـي أن بين هؤلاءِ الرجالْ
رسول حمزاتوف
إن كانَ هنـاك مائةُ من الرجالْ
مأسـورين بحبِكِ والدمـاءُ لظى خجولْ
سـيلوح بينهـم رجلُ الجبالْ
جامحا يُدعى رسـولْ
إن كانَ هناك عشـرةُ من الرجالْ
بصدق يعشـقونكْ
دون أن يخفـوا اللهيبْ
سـيُطلُّ مبتهجا حزينـا بينهم

رسول حمزاتوف
إن لـم يعدْ هناك سـوى رجلٍ واحد
مـا زال مجنوناً بحبكِ
دون وعدٍ منـك عن قربِ الوصولْ
فاعلمي انَّـهُ رجل الجبالْ
هلَّ مـن قمم الغيومْ
ذاك من يُدعى رسـولْ
إن لـم يعد أحدُ هناك
يهـواكِ كالملهوفْ
وأنـت أكثرُ حزناً من غـروبٍ غيهبيْ
فاعلمـي أنَّ الحتوفْ
حلَّـت وعنـدَ الهضبةِ البازلتْ
هنـاك في حضنِ الجبالْ
دفنوا رسـول حمزاتوف [7]

كانت بوادر هزّات جدية تلوح في الأفق ما دفعني إلى التعبير عن مخاوفي من انتكاسات خطيرة، وقد شاركني رسول في هذه المخاوف، فانحراف الرمز أخطر ألف مرة من انحراف الناس العاديين، وعندنا يقولون «غلطة المعلم بألف غلطة» لذا لا بد من كشف الفاسدين حتى وإن كانوا في موقع المسؤولية.

تذكر رسول الحملات التي بات يتعرض إليها، فمر بحالة مشاعرية مؤثرة ومؤلمة أعتقد أن جذورها الحقيقية تكمن في استشراف القادم الكارثي على الاتحاد السوفييتي، فتحدث عن خصومه وأعدائه الأمر الذي قد لا يعرفه أحد، فقد كان يمر بحالات ألم نفسي نتيجة الإشاعات والانطباعات المقصودة اللئيمة التي انتشرت في الآونة الأخيرة بقوة في مرحلة الإرهاص لتفكك الاتحاد السوفييتي، وكأنما كانت ضمن حملة تشويه الاتحاد السوفييتي باسم العلنية، من ذلك رواج الأحاديث بأن الاتحاد السوفييتي يخلق رموزه دون أن يكونوا مبدعين جديرين بذلك، حيث أسر رسول لي أن البعض بات لا يخفي حقده على حمزاتوف، ويطرح أنه غدا مشهورا بفضل الترجمات «ما يذكر بالسهرة مع البولونيين» وغمزه على يفتيشينكو، وأردف «ومَن مِن الشعراء العالميين لم يشتهر في البلدان الأخرى عن طريق الترجمات؟»، هل كان لوركا وبابلو نيرودا وأراغون يكتبون بالروسية أو بالصينية أو بالعربية، حتى شكسبير ترجم إلى لغات العالم ولم يقل أحد عن أي شاعر عالمي أنه أصبح مشهورا بفضل الترجمة، وكأن الأصل ضعيف والترجمة رائعة.

ولكنهم يقصدون تحديدا رسول المنافح عن الاتحاد السوفييتي والأممية، وحبس دمعة علقت بين جفونه نتيجة كبريائه فاحمرت عيناه وتنهد بحرقة، وبما أن الحديث كان ممزوجا بالمخاوف من تفكك الاتحاد السوفييتي، وفي الوقت نفسه عما يقال عن رسول بت لا أدري هل أدمعت عيناه تأثرا من الخصوم الشخصيين الحاقدين أم لإحساسه بقرب كارثة ستودي بالاتحاد السوفييتي، حتى أن زوجته فاطمة أحضرت له الدواء فخشيت عليه حقا، وتساءلت ما الأمر؟، فأجابت زوجته الحنونة فاطمة: « إن رسول أحيانا يرى هذه القلة الضئيلة الحاقدة ولا يرى الكثرة الهائلة المحبة» قلت له: «لا عليك نحن نعرف جيدا انك شاعر رائع، وأن ما أردت أن تقوله للناس وصل».

فابتسم ولكن التنهيدة ظلت عالقة في صدره وقرأ بلغته الأفارية مقاطع ثم بالروسية وقال ألا تحس بجمالها بلغتها الأصلية؟ ثم همس لي عندما ذهبت زوجته إلى المطبخ: «إنهم يتكاثرون»،فقلت: «علينا ألا نترك لهم المجال، وأن ننتقد الأخطاء بأنفسنا فنسحب من يدهم هذه الورقة»، فتهدج صوته وقال: « كيف لا تدرك يا صديقي السوري أنهم لا ينتقدون بل ينفذون مخططا، إنهم يبالغون بشكل مذهل بحيث يبدو أي انتقاد موضوعي ساذجا وضعيفا أمام هجومهم، هناك من يخطط لذلك»، قال هذه العبارة بصوت خافت وكأنه ينقل إليَّ سرا، كان ما راعني أنه يتحدث في القصيدة التي قرأها للتو عن موته، وكأنه يستشرف موت الاتحاد السوفييتي وتفككه حتى جغرافيا:

”

تراءى لـي في الحلمِ موتي
هنـاك في هجيـرِ الظهيرةِ في وادي داغستانْ
وكان أكليـلٌ من الورودِ فوقَ صدري
كنـتُ راقداً بلا حِراكْ
كان خريـرُ الميـاهِ عارماً في النهرِ
وأنا منسـيٌّ ما مِن أحـدٍ بحاجةٍ إليّ
كنـتُ مضطجِعاً على الأرضِ
قبلَ أنْ أغـدو جزءاً منها
إنني أمـوتُ ولا أحدَ يعلمْ
لا أحـدَ يأتي إليّ
وحدهـا النسـورُ تزعقُ في القِممْ
والأيائلُ تئنُ
كنـتُ مضطجِعا أموتْ

ولكني سـمعتُ غيرَ بعيدٍ شـخصين يعبرانْ
وهمـا يتحدثانِ بلُغتـي الحنونةْ
فانتعشـتُ وفهمـتُ أن الطبيبَ لن يشفيني
ولا السـاحرُ بل هذه اللغـةُ الحميمةُ للوطـنِ الحنونْ
غاليـةُ عليَّ تلـك الأصقاعُ الحرةُ المزدهِرةْ
مـن البلطيقِ حتى سـاخالينْ
وأنـا مسـتعدُ للموتِ من أجلِ هذا الوطـنِ الكبيرْ
في أيِّ مكان
على أن يدفنونـي في أرضي هنا [8]

رحل رسول، الشاعر العملاق ابن الجبال، لكنه باق نموذجا مبدعا مميزا بكل اللغات لروحك السلام أيها الرسول حمزاتوف ولذكراك الوفاء.

حقائق تاريخية لا يجوز نسيانها

سأذكر بعض المعطيات وحسب، ولن أوثقها في هذه الفقرة بالشواهد، ليس لأني سأعتمد في تناول معظمها على الذاكرة، بل ولأنها معروفة ومبثوثة في الكثير من المنشورات، حول ممارسات الغرب العدوانية والغادرة وخاصة الولايات المتحدة، ويكفي أن تضع عناوينها في محرك البحث حتى تجد عددا كبيرا من المراجع والمصادر التي تتحدث عنها، وقد تم تجاهل أو تناسي هذه المواقف التي تدين الغرب بقوة وبدا أن الهدف إظهار أن الاتحاد السوفييتي سيء، والغرب، كل الغرب جيد.

وأولى هذه الحقائق أن الولايات المتحدة ساعدت هتلر تقنيا حتى أيام الحرب، وتنافست الشركات الأمريكية وخاصة فورد، وجنرال موتورز، وستاندر أويل، لتقديم عشرات آلاف المحركات للطائرات والشاحنات وحتى المدرعات، وكذلك البنزين والشحوم والمواد التي استخدمت لتحسين القذائف الموجهة التي دمرت لندن، وأغرقت سفن الحلفاء رغم أن النازيين يحاربون أوطان هؤلاء الرأسماليين الأمريكيين، لكن الرأسمال لا وطن له.

وهناك حقائق رهيبة كشفتها الوثائق الأمريكية ذاتها في أن البنتاغون خطط عمليا لضرب 66 هدفا في الاتحاد السوفييتي وخاصة المدن الكبرى بأكثر من 200 قنبلة نووية، وقد وضعت الخطة في 15 سبتمبر عام 1945 وكان الاتحاد السوفييتي قد خاض الحرب مع الأمريكان ضد النازية، وتحمل أكبر الخسائر، وفي هذا الفترة بالذات فكر البنتاغون أن يقضي على الاتحاد السوفييتي الجريح المنهك، 200 قنبلة نووية أي عمليا محو الاتحاد السوفييتي من الوجود، وفي المخطط أن يتم استهداف موسكو بست قنابل نووية، وقد وضعت هذه الخطة بعد شهر وبضعة أيام فقط من قصف هيروشيما وناكازاكي.

الاتحاد السوفييتي تولى مساعدة دول أوربا الشرقية كما تولت الولايات المتحدة مساعدة الدول الغربية، ولكن بمفارقة مذهلة فقد كان الاتحاد السوفييتي مدمَّرا يحتاج إلى مساعدة في حين لم تتأثر الولايات المتحدة جراء الحرب البعيدة عنها إلا قليلا، وبشكل رئيسي في ميناء بيل هاربر في حين دمرت معظم المدن السوفييتية والبنى التحتية (سأذكر بعض التفاصيل لاحقا)، بمعنى أن الوضع الاقتصادي الرهيب لدول أوربا الغربية تولت إنعاشه الولايات المتحدة من خلال مشروع مارشال «وزير الخارجية الأمريكية- رئيس أركان الجيش الأمريكي وقت الحرب» الذي أعلن عن مشروعه في 5 حزيران -يونيو عام 1947 في جامعة هارفرد وبدأ تنفيذه بعد أن وقع عليه الرئيس هاري ترومان في 3 أبريل عام 1948.

كشفت صحيفة تلغراف البريطانية عن خطة أعدت بأمر من تشرشل بعنوان «عملية يصعب تصورها» لتنفيذ هجوم واسع بري وجوي وبحري على الاتحاد السوفييتي الذي لم يزل حليفا، و قد تم التفاهم معه في يالطا قبل شهرين وحسب من وضع هذه الخطة، وكان مهندس هذا الهجوم الضخم هو العميد جيفري طومسون القائد السابق للمدفعية الملكية البريطانية، وتعتمد كعنوانها على المفاجأة وكونها لا يمكن تصور حدوثها، وحدد حتى يوم الأول من يوليو تموز لبدء الهجوم، وتم التفكير نتيجة ضخامة الجيش السوفييتي بإعادة تسليح بعض الفرق النازية الأمر الذي لاقى استنكارا من مستشاري تشرشل نفسه فألغيت العملية.

ورغم أن خطة مارشال تلحظ تقديم ثلاثة عشر مليار دولار للدول الأوربية الغربية إلا أن مجموع ما قدم خلال أربع سنوات هو 17 مليار دولار وهو ما يعادل أكثر من 200 مليار دولار في عام -2019 2020 ناهيك عن الإمدادات الغذائية وخاصة القمح حيث تمكنت دول أوربا الغربية من النهوض مجددا، ولم يكن ذلك عطفا أوهبة كريمة أريحية بقدر ما كان لمواجهة خطر بدأ يتزايد إذ ازداد انتشار الفكر الشيوعي كطريق للخلاص من الفقر والبطالة والجوع والدمار الذي خلفته الحرب، وبدأ يتعاظم هذا التأثير حتى في إطار حركات يسارية مسلحة كما في اليونان، لهذا كان لا بد من الإسراع في إنعاش هذه الدول خاصة أن الشيوعيين كانوا أثناء الحرب قادة النضال المسلح ضد النازية، وتنظر إليهم الشعوب كأبطال قدموا الكثير من التضحيات ولم يتخاذلوا، في حين أن معظم أصحاب المصانع والمؤسسات والبنوك تعاونوا مع النازيين والفاشين، بل إن واشنطن اقترحت حتى مساعدة دول أوربا الشرقية لكن موسكو أدركت أن الهدف هو السيطرة الاقتصادية على هذه الدول، وبالتالي السيطرة السياسية فامتنعت هي وحلفاؤها عن قبول المساعدة.

وقد استمرت المساعدات الأمريكية عمليا ولو وفق برنامج أخر بواقع 7،5 مليار دولار سنويا حتى عام 1961، وكل ذلك لمواجهة الشيوعية، ولابد من الإشارة إلى أن مشروع مارشال قد ولَّد واقعيا تأسيس حلف شمال الأطلسي لربط أوربا الغربية بالولايات المتحدة ليس سياسيا ونهجا اقتصاديا وحسب بل وحتى عسكريا. والسؤال حلف عسكري ضخم ضد من؟ قبل سنوات قليلة كان الاتحاد السوفييتي حليفا، من إذن بدأ بالعداء؟

بدأت الحرب الباردة عمليا بعد فترة وجيزة من انتهاء الحرب، وخاصة إبان تكريس تقسيم ألمانيا، ففي حين كان ترومان قد أعلن أنه لن يُبقي قواته في أوروبا أكثر من سنتين عاد فأكد أنه لن يسحب قواته، معلنا ضرورة مساعدة الدول الأوربية حتى لا يسيطر عليها الفكر الشيوعي، وبدأ ذلك بتقديم المساعدات المالية لليونان التي كاد أن يسيطر عليها الشيوعيون، وقد ظهرت التسمية عمليا بعد بدء أجواء الحرب الباردة حيث نشرت في المجلة الأمريكية «الشؤون الخارجية» مقالة حملت عنوان منابع السلوك السوفييتي بقلم جورج فروست كينين أحد كبار موظفي وزارة الخارجية الأمريكية وضح فيها سياسة الاحتواء التي تتبعها حكومة ترومان، وقد تعرضت لهجوم عنيف من المعلق السياسي حينها والتر ليبمان باعتبارها سياسة عقيمة، ثم أعيد نشر المقالات في كتيب حمل اسم «الحرب الباردة»، وكان المحتوى الحقيقي لها من وجهة النظر الأمريكية زيادة العمل على مواجهة الشيوعية، وتوجيه الحلفاء إلى هذه الممارسة على جميع الأصعدة، وانحصرت الحرب الباردة في البداية بين المعسكرين وحسب: أوروبا الغربية والولايات المتحدة من جهة والاتحاد السوفييتي ودول أوربا الشرقية من جهة ثانية، وظلت إفريقيا والشرق الأقصى والأوسط

وأمريكا اللاتينية بمنأى عن هذه الأجواء في السنوات الأولى لما بعد الحرب.

لكن ذلك يعني أن مشروع مارشال لمساعدة الدول الغربية التي سارت في فلك الولايات المتحدة، وربطها بالولايات المتحدة عسكريا بتأسيس حلف شمال الأطلسي عام 1949 ترافق عمليا بالضغط والمضايقة، وشبه الحصار على دول أوربا الشرقية والاتحاد السوفييتي الذي أخذ على عاتقه الدور الذي قامت به الولايات المتحدة رغم المفارقة الهائلة في الظروف، زد على ذلك مساعدة الاتحاد السوفييتي لكثير من الشعوب التي كانت تناضل ضد الاستعمار والهيمنة، (بغض النظر عن أن تلك المساعدات حملت طابعا أيديولوجيا، فهذا أمر طبيعي ولا يغير من حقيقة تقديم نفقات كبيرة على حساب الشعوب السوفييتية) ولهذا كانت هناك أيضا مفارقات في النمو الاقتصادي والتنمية ومستوى المعيشة.

وإن كان الشيوعيون يحاولون السيطرة من خلال التأثير على العقول وتقديم بدائل مقنعة للذين يعانون من الفقر والبطالة، فقد كانت السياسة الأمريكية والغربية عموما تتجه نحو سحق الشيوعيين جسديا سواء بتدمير البنى التحتية، بل وحتى إفناء الشعوب عبر كما حدث في فيتنام التي شهدت مقتل عدة ملايين من المواطنين على أيدي القوات الأمريكية، أو بتشجيع الأنظمة اليمينية على قتل الشيوعيين والمتعاطفين معهم في حملات إبادة جماعية كما حدث في إندونيسيا

عامي 1965- 1966 مع تشويه سمعتهم وتصويرهم وحوشا، واعتبار القتلة أبطالا، بل وقتل ملايين الوطنيين حتى لو لم يكونوا شيوعيين كما حدث في الجزائر. هذا هو الغرب المتحضر، وهذا هو نهجه الديمقراطي وسنرى (لاحقا) إبان تحرك الشيوعيين لمحاولة إنقاذ الاتحاد السوفييتي ولجوء يلتسن إلى البرلمان مع أنصاره أن الشيوعيين لم يقصفوا البرلمان بل سحبوا دباباتهم في حين قام يلتسن في موقف مماثل تماما عندما احتمى الشيوعيون بالبرلمان قام بقصفه بلا رحمة، وأعطى لوسائل الإعلام الغربية حق التصوير لتقدم للعالم بشكل مباشر فيلما مثيرا عن قصف البيت الأبيض الروسي واحتراقه.

وهكذا كان الأمر، حين تحرك النازيون الجدد في كييف ولم يسمح الرئيس المحسوب على موسكو لقواته بأن تقمعهم بالقوة، ولكن حين تظاهر مناهضو النازية الجديدة والتجأوا إلى مبنى نقابات العمال في أوديسا أحرقهم أنصار التوجهات الغربية أحياء (سنعود لهذه الحقيقة الرهيبة)، من هنا لا بد من كشف مدى الغبن ومجافاة الحقيقة حين يتم تصوير الاتحاد السوفييتي بأنه المعتدي، وبأنه إمبراطورية الشر، والعالم الغربي بأنه طيب مسالم وجنة الديمقراطية والإنسانية، وحين نأخذ كل ذلك -وهو غيض من فيض- حول أخلاقيات الغرب وعدوانيته ودمويته بعين الاعتبار يمكن أن ننتقل إلى تقديم انتقادات موضوعية لبعض سياسات الاتحاد السوفييتي التي نعتبرها خاطئة بل وخاطئة جدا في بعض الأحيان.

الفرص الضائعة

لنتذكر أولا أن الأدباء والمبدعين الروس التقدميين كانوا مضطهدين إبان الحكم القيصري حتى أن بوشكين نفسه تعرض للمضايقات بسبب قصائده وخاصة أغنية الحرية التي كانت سببا في نفي القيصر ألكسندر الأول له،ويقال أن مواقفه المعارضة للقيصر وتعاطفه مع الديسمبريين دفعت البلاط لتدبير مكيدة بنشر شائعات حول زوجته ما اضطره لخوض مبارزة أدت إلى مقتله.

ولكن لننطلق حتى لا نقع في ازدواجية المعايير من حقيقة أنه من الصعب أن يكون المرء منصفا حين يقيم حدثا أو موقفا أو حتى قانونا مر على صدوره أكثر من مئة عام، أن يقيمه من موقعه ومعطياته وتجربته ضمن مجتمع اليوم، وأقصد قانون المطبوعات الذي صدر في موسكو بعد الثورة عام 1917، وكان من المفترض أن يكون مرحليا كإجراء استثنائي نتيجة الظروف الاستثنائية، فقد كانت مرحلة تحولات مصيرية ترافقت بحرب أهلية وصراع وجود، وتم بموجب هذا القانون حجب ومنع المطبوعات المعادية، ولهذا أعلن لينين أن هذا القانون اضطراري مؤقت، وسيتم وقف العمل به حين تنتهي هذه المرحلة.

ويبدأ عصر الاستقرار، لكنه ظل ساري المفعول طيلة وجود الاتحاد السوفييتي، وتم تجاوزه في زمن غورباتشوف، ثم أُلغي نهائيا عام

1990 بصدور قانون جديد كرّس حرية النشر، كذلك استمر مصطلح «الواقعية الاشتراكية» الذي ظهر عام 1934 مهيمنا على النتاجات الأدبية، الأمر الذي تجاوزه معظم المبدعين الروس الكبار عمليا في نتاجاتهم.

استمر تقييد حرية الصحافة وحرية الإبداع خاصة أن مراحل الصراع كانت مريرة ومديدة، ومرت السلطات الجديدة بمخاضات عسيرة جدا لعل من أقسى نتائجها التضييق على الأدباء، ومنع نشر نتاجاتهم، وحتى تصفيتهم وظهور مصطلح «عدو الشعب»، ومن ثم خوض الحرب العالمية الثانية، وتحمل صعوبات مذهلة بما فيها موت عشرات الألاف من السكان جوعا نتيجة تدمير البنى التحتية والحصار.

لعل أكبر خطأ يقع فيه الإنسان هو الدفاع عن أخطاء من يحبهم سواء إن كانوا أفرادا أو جماعات أو أنظمة ودولا، فهو بذلك تحديدا يبدأ بحفر القبر لهم، وأقصد بالفرص الضائعة عدم تحليل النتاجات الثقافية الانتقادية وحتى المعادية للإفادة منها، فقد كان من الخطأ الجسيم -حسب تصوري- قمع الأدباء الذين كانت لهم آراء انتقادية، أو حتى كانوا معادين للثورة والشيوعية بدل الاستفادة من انتقاداتهم كونها تمس عمليا جوانب بالغة الأهمية من الحياة السوفييتية، صحيح أن هناك استثناءات زمن الحرب، ولكن الأفضل حتما أن تتم معالجة تلك الانتقادات إن كانت حقيقية، أو دحضها إن كانت مغرضة غير واقعية، هذه الممارسات تشير إلى سيطرة نماذج شبيهة بمجموعة الشيوعيين من أبطال «القلب الكلبي» في بعض المراحل (سنتطرق بعد قليل لهذا العمل) في عدد المؤسسات الثقافية، وعلى تنظيم الحياة الاجتماعية السياسية حتى ليبدو أن هناك انفصاما كبيرا بين هذا المسار وتحقيق قفزات نوعية في مجالات العلوم والطب والفضاء.

وما يفاجئني في هذا المجال أنني عشت لسنوات في المرحلة السوفييتية ما قبل غورباتشوف، وكنت أنتقد بصوت عال بعض المظاهر السلبية، وكنت في الوقت نفسه ألمس بوضوح أيضا أن السلع الرئيسية والمأكولات وإيجار السكن والملابس، وكل ما يتعلق بالأطفال رخيصة لدرجة غير معقولة، وأرى بنفسي مدى الاهتمام بالأطفال و بالمبدعين حتى أن اتحاد الكتاب السوفييت رتّب عام 1984 إقامتي في ضاحية بيريديلكينا «التي كان ستالين قد أمر ببنائها للأدباء تحديدا»، وفيها أمضيت فترة من الزمن لكي يتسنى لي بهدوء مراجعة الترجمات والدراسات التي ضمها المجلد الأول من أنطولوجيا الشعر السوفييتي [9]، وقد تناولت فيها أربعين شاعرا حرصت أن يكون عدد غير قليل منهم من أولئك الذين كانوا محسوبين على المعارضة، بل وفي الطرف النقيض من مثل باسترناك الذي سأتوقف عنده قليلا.

أثناء إقامتي في بيريديلكنا زرت بيت باسترناك الذي كان خشبيا جميلا من طابقين بغرف قليلة وفكرت وأنا أتأمل مكتبه: هنا كتب باسترناك روايته الدكتور جيفاغو أو زيفاغو، فلماذا منعت؟

زيفاغو رواية حب محملة بالانتقادات

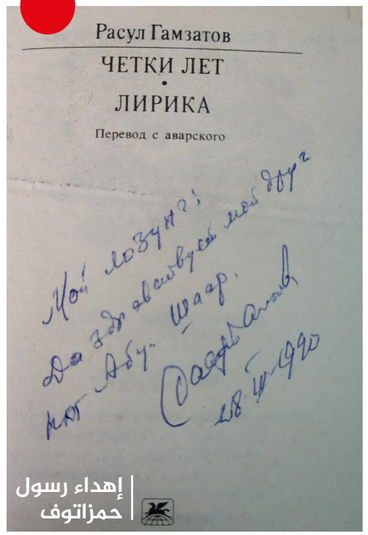

يقدم لنا باسترناك قصة يوري أندرييفيتش زيفاغو – أو جيفاغو منذ طفولته حين كان في العاشرة من عمره وقد غدا يتيما، وهو من وسط أرستقراطي، مرورا بحبه لتونيا حيث يرزقان بطفل، ويتوضّح أن ليس ليوري انتماء سياسي حاسم، وهو عموما مع العدالة الاجتماعية، وله روح شاعر وتصرفات إنسان راق، يعمل يوري كطبيب إبان الحرب وتتنامى قصة حب هائلة مع لاريسا فيودوروفنا،» لارا» التي سبق أن وقعت في حبائل كوماروفسكي «عشيق أمها»، لكنها تتركه وتتزوج من الذي أحبته إبان الطفولة باشا أنتيبوف وهو مع أحد فصائل الثوار، متطرف إلى درجة أنه يفضل العمل للثورة وتصفية الخصوم ناسيا حياته الشخصية كلها بما في ذلك أسرته وابنته.

بعد انتهاء الحرب يعود يوري إلى موسكو لكنه يشعر أنه في دائرة الشك، وقد سيطر البلاشفة على منزل والد زوجته الميسور، وأسكنوا فيه عددا كبيرا من المواطنين، ويسافر مع عائلته إلى الأورال بقطار الشحن حيث يرفض يوري «إنسانيا» ممارسة العنف تجاه أعداء الثورة، ويتصرف كطبيب له مهمة إنسانية لا سياسية، تعيش الأسرة في مزرعة هناك ، ويلتقي بلارا التي تطوعت كممرضة وباتت تبحث عن زوجها، ويقيم معها علاقة حب، وحين يقرر العودة إلى المنزل تخطفه جماعة تتابع تصفية البيض، وتجبره على العمل كطبيب لصالحها، بعد مدة طويلة يتمكن من الهرب (ما يذكر ببعض أحداث قصة أنا قتلت بولغاكوف حيث يُقتاد البطل الطبيب ياشفين إلى قوات الشوفيني الأوكراني بيتليورا غصبا عنه ليجبر على العمل طبيبا عندهم ثم يهرب).

يكتشف يوري بعد هربه أن أسرته سافرت إلى موسكو بعد أن طال غيابه، ويمضي مشيا على الأقدام متهالكا إلى لارا « لعل في ذلك إسقاطا على جوانب من علاقة باسترناك بمحبوبته في الواقع فقد كان يمضي إلى محبوبته من ضاحية بيريديلكينا إلى قرية أولغا حبيبته بعيدا عن زوجته»، يغدو باشا «بافل» زوج لارا قائدا لفصيل ثوري امتاز بالعنف، وقد اختار اسما مستعارا «ستريلينك» دون أن يزور أسرته لكونه منح كل حياته للثورة.

يعيش يوري مع لارا إلا أنهما يشعران أنهما ملاحقان فيغادران إلى المزرعة التي سبق أن عاش فيها مع عائلته، ويعود لكتابة الشعر ثم يظهر كوماروفسكي الذي اغوى لارا قبل سنوات، وترك شرخا في نفسيتها، ويخبرهما بأن البلاشفة بعد انتحار زوجها باشا علموا بمكانهما وأنهما ينوون قتلهما، ويقترح عليهما المساعدة للهرب إلى الخارج، لكن يوري يترك لارا وتكون حاملا منه لتذهب مع كاماروفسكي لتنقذ نفسها وابنتها، ويعدها بأنه سوف يلتحق بها، يعود يوري إلى موسكو ويجد له شقيقه وهو ضابط في الجيش الأحمر عملا في مشفى، لكنه يموت وهو في الطريق إلى العمل نتيجة أزمة قلبية، تنهار لارا لكنها تساعد شقيقه في جمع كتاباته، ليبقى حيا عبر إبداعه.

إشارات استفهام

نعم يُرجح أن مزاج باسترناك كان ضد النظام السوفييتي في الجوهر، لكنه كان لبقا ومتوازنا نوعا ما في رصد واقع غير عادي إبان الحرب والفوضى والثورة ثم الحرب الأهلية، وحاول أن يقول في رواية زيفاغو- جيفاغو أن العنف والأخطاء والقمع رافق الثورة البلشفية منذ البداية، لكني أرى أن ذلك عامل مكمل لأجواء قصة حب مميزة تحتاج إلى زمان ومكان وأحداث مرافقة لعلاقة الحب «الذاتية» وتجلياته في ظروف قاهرة «موضوعية».

وهناك أمر مثير أود الإشارة إليه، وهو أن هناك معطيات ظهرت مؤخرا في كتاب روسي بعنوان دكتور جيفاغو بين الآي سي سي والكي جي بي، لمؤلفه إيفان تولستوي [10]، وهي معطيات شبه موثوقة تؤكد أن الرواية طبعت في روما بدعم مباشر من المخابرات الأمريكية والبريطانية إبان اشتداد الحرب الباردة ومثل هذه الروايات تلعب دورا هاما في تشويه صورة الاتحاد السوفييتي وفق المثل القائل من فمك أدينك، وأن المؤسسة التي دعمت إصدار الرواية هي «منظمة حرية الثقافة» المرتبطة بالمخابرات الأمريكية والتي قامت بتسهيل ترجمتها إلى أكثر من أربعين لغة وحتى قامت بتوزيع آلاف النسخ منها مجانا في بروكسل، والهدف إظهار أن الاتحاد السوفييتي يقمع مثقفيه،

كما ساهمت المخابرات الأمريكية بترشيح باسترناك إلى جائزة نوبل عام 1958 بمساهمة من الأمين العام للأمم المتحدة آنذاك همرشولد [11] الذي رجحت الصحافة الإسبانية أنه عميل للمخابرات الأمريكية، وهو عضو في لجنة منح جائزة نوبل، ومن ثم مورست الضغوط على باسترناك حتى رفض الجائزة.

المسرحية الفاشلة

لننطلق أولا أن هناك فريقين: المشككون بهذه المعطيات، والذين يؤكدونها، نعم هناك حرب باردة بين موسكو وواشنطن، بل بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، وبالتالي أمر بديهي أن يستغل هذا الطرف أو ذاك كل ما يمكن أن يشوه سمعة الطرف الآخر، بل أرى أنه لو لم تقم المخابرات وغيرها من المؤسسات الغربية باستغلال رواية دكتور جيفاغو لكان هناك خلل في مفهوم الصراع، ولكن من أعطى للخصوم هذه الفرصة، من جديد أشدد على أن الرواية قد يكون فيها ظلال معادية للثورة والسلطة السوفييتية، حيث أظهر باسترناك قسوة السلطات الجديدة في معاملة الناس أثناء تنظيم المجتمع بعد الثورة التي كان قسم كبير ممن شاركوا بها من جنود القيصر الذين انشقوا عنه بعد الهزيمة، وحتى تصويره للفلاحين والجهلة بأنهم همج بربريون لا يستحقون الحرية» [12].

ولكنه أظهر كذلك قسوة الجنود التابعين للقيصر في معاملتهم للشعب وقمعهم للمظاهرات السلمية قبل الثورة بدموية، أي أنه عكس واقع مرحلة استثنائية متمثلا صدق نقل الواقع، ثم إنها رواية حب ملحمية تعكس في الآن نفسه المعاناة التي مرت بالشعب الروسي إبان الحرب العالمية الأولى ومن ثم الثورة والحرب الأهلية، والتناقضات الهائلة لهذه المراحل واستمرار الصراعات وذيولها وعبر كل ذلك ينمو حب عظيم واقعي من يوري الطبيب الشاعر الرومانسي المحب للعدالة المثقف «غير المنتمي» الصادق مع الحياة، فهو متزوج ويحب زوجته تونيا التي لم تسيء إليه، ولكنه يعشق كشاعر «لارا» لقد أراد أن يقول في هذه الرواية أن تغيير الظروف والأزمان وحتى الحوادث لا يغير الحب الحقيقي.

لقد كانت على سبيل المثال قصة الدون الهادئ [13] لشولوخوف أكثر جرأة على إظهار عنف جنود البلاشفة تجاه الخصوم وخاصة القوزاق من خلال ظروف الحرب والثورة والحرب الأهلية، ولم تمُنع، وحسب بعض المعطيات أن ستالين نفسه سمح بنشرها، إنها ظروف الحرب الأهلية التي لا يمكن أن تخلو من العنف إذن، والذي ظهر أيضا في الرواية الأمريكية ذهب مع الريح [14] عبر قصة حب في أجواء الحرب الأهلية التي راح ضحيتها قرابة 700 ألف إنسان وحيث الجثث والحرائق والدمار والتقاتل والقتل.

في تصوري أن منع رواية دكتور جيفاغو كان خطأ جديا، فهم بذلك حولوها بأنفسهم إلى قضية سياسية كبرى، نعم أعتقد أن المسؤولين المتشنجين هم من أعطوا المخابرات الأمريكية هذه الفرصة، فلو نشرت الرواية في روسيا بشكل طبيعي لما ظهرت هذه الضجة الكبرى «فالممنوع مرغوب»، ولكان بالإمكان أن يرد عليها كتاب آخرون في إطار نقد موضوعي بدل سيل الاتهامات والشتائم لبارسترناك، وبالتالي أكرر موقفي هنا أنا مع فضح مضامين الأعمال المعادية، وخاصة الإبداعية الحقيقية، ولكن بالقلم وليس بالإجراءات التي تحولت إلى ما يشبه المهزلة، وأعطت مفعولا عكسيا في العالم الغربي « وهو المقصود في الصراع» وحتى داخليا بعد سنوات.

ما الذي حدث؟ حين تطرقت لهذا الأمر عرَضا مع أيتماتوف قال لا يجوز أن نحكم الآن وفق بنية شخصياتنا الحالية على ما كان قبل أكثر من نصف قرن من الزمان، نحن لا ندرك التفاصيل الدقيقة لظروف الحياة آنذاك، لاشك أنك ستفكر بشكل مختلف إن قتل الخصم أخاك أو زوجتك، شخصيا يبدو لي الآن أن رأي ايتماتوف صحيح، وهو يقصد أن أجواء الحرب الأهلية لا يجوز مناقشتها كقوانين طبيعية أو كتصرفات واعية في ظروف عادية، فالانتقام الجنوني لا يخضع لمقاييس العقل وخاصة بعد مرور سنين عديدة على انتهاء أجواء تلك الأحقاد، وهو «أي أيتماتوف» باختصار ودون التعبير بصريح العبارة أوحى لي بأن باسترناك رصد واقع تلك المرحلة بواقعية، ولم يفتعل الأحداث، وأن قسوة الظروف الرهيبة أنتجت عنفا رهيبا أيضا.

حسنا منعت الرواية في الاتحاد السوفييتي وطبعت في روما، ثم انتشرت في معظم أرجاء البلاد، وبدل أن يتم على الأقل كرد فعل «مخابراتي» فضح الدور الذي لعبته المخابرات الأمريكية البريطانية بدعم الرواية ونشرها وترجمتها، وترشيح باسترناك لجائزة نوبل بدعم من تلك المخابرات، جرت مسرحية مفتعلة عجيبة حيث نظمت مظاهرة احتجاجية من طلبة معهد الآداب العالمية المكرس للمبدعين، وطُلب من الطلاب توقيع عريضة ضد باسترناك تطالب حتى بطرده نهائيا من البلاد [15]، وهؤلاء المبدعون الشباب لم يقرأوا الرواية التي انتشرت في الغرب، وهناك أمور مثيرة حقا يذكرها مؤلف «الكتّاب الروس تحت قبضة البلاشفة» حول حيثيات دقيقة جرت مع باسترناك، وتدخل بعض الأدباء لمحاكمته العلنية وفصله من اتحاد الكتاب، فاضطر إلى كتابة رسالة إلى رئاسة اتحاد الكتّاب جاء فيها « لن يجبرني أي شيء على رفض شرف أن أكون الفائز بجائزة نوبل، لكني مستعد أن أتبرع بمبلغ الجائزة إلى مجلس السلم العالمي، بإمكانكم إعدامي أو إبعادي إلى الخارج أو اتخاذ أي إجراء بحقي، ولكن من فضلكم لا تتسرعوا لأن ذلك لن يضيف إليكم سعادة ولا مجدا» [16].

واستمرت الضغوط إلى أن اضطر إلى رفض الجائزة، كانت ردة فعل السلطات السوفييتية للأسف تظهر كتصرف من الضعيف غير الحكيم، وغير الذكي على أقل تقدير، وساهم هذا التصرف الانفعالي بأن حظيت الرواية بشهرة عالمية واسعة، وانبرى للدفاع عن باسترناك عدد كبير من أكبر المبدعين في العالم بمن فيهم بابلو نيرودا والبير كامو وجون شتاينبك وكثير غيرهم.

توفي باسترناك عام 1960، وبعد مرور ثلاثين عاما تسلم الجائزة في حفل مهيب ابنه يفغيني باسترناك. أنا لست من المتحمسين لباسترناك، ولكني لست من جوقة الهتافين ضده، وحين ترجمت مختارات من أشعاره ونشرتها في الصحافة الأدبية وفي أنطولوجيا الشعر السوفييتي، شعرت أنني أمام شاعر كبير متميز، هذا كل ما هنالك.

المعاناة أوسع

عانى من التصرفات القمعية كتاب ومبدعون آخرون منهم على سبيل المثال: أوسيب ماندلشتام (مات في السجن)، وميخائيل بولغاكوف (منعت أعماله)، ومارينا تسفيتايوفا (انتحرت) وبوريس بيلنياك (أعدم) وإسحاق بابل (أعدم)، وكاتب القصة الساخرة زوشينكو الذي حرم من عضوية اتحاد الكتاب ومنعت كتبه وأصيب بالاكتئاب رغم أن قصصه تستدعي الضحك والسخرية، والكساندر فادييف (انتحر) والكسندر سولجينيتسين (اعتقل وسجن ثم نفي وسحبت الجنسية منه- ثم أعيد اعتباره وعاد إلى روسيا عام -1994 سنتحدث عنه لاحقا)، وغيرهم كثيرون بنسب اضطهاد متباينة.

وقد تم استغلال هذا الواقع غير الصحي أساسا في مبالغات كبيرة أحيانا بما في ذلك تصوير حتى الشعراء الذين لم يُضطهدوا أبدا بل كُرِّموا بأنهم انتحروا لأنهم اضطُهدوا، ومن بينهم يسينين الذي قيل بأن السلطات شنقته، رغم وجود مؤشرات قوية وحاسمة على أن معاناته النفسية التي عبر عنها بوضوح في ملحمته «الإنسان الأسود- الشبح الأسود» هي التي دفعته للانتحار، فقد تركت له السلطات الحرية حتى للسفر إلى أوربا والولايات المتحدة لكنه شعر بأنه كان ضائعا بما في ذلك إبان زواجه من الراقصة الأمريكية

بريجنيف

دونيكان التي تكبره بعشرين عاما [17]، أو انتحار مایاكوفسكي نتيجة تشتته العاطفي رغم أنه كان مدلل السلطات السوفييتية [18]، أعتقد أن هذه الاتهامات غير منصفة وغير موضوعية، وهي من مبالغات الذين لم يعودوا يرون في الاتحاد السوفييتي سوى الشر المطلق.

هذا تقييم خاطئ طبعا، ولكن ذلك لا يلغي وجود ظلال فوقية في التعامل مع الأدباء، ومحاولة تطويعهم، حيث يبدو بعض المسؤولين جهلة تماما لا يدركون أن الآراء المعارضة والانتقادات أهم بكثير- وخاصة في مرحلة البناء- من الهتافات والنتاجات المهللة المؤيدة لكل الممارسات السلطوية، ومن تلك الممارسات فصل عدد من أشهر الشعراء الروس عندما كانوا بعد طلابا في معهد الآداب مثل بيلا أخمادولينا لرفضها التنديد ببوريس باسترناك ، ويفتيشينكو لدفاعه عن رواية دودينتسيف «ليس بالخبز وحده» ونيقولاي ريبتسوف لإنزاله صور الكتاب العظام في مبنى الطلاب السكني ووضعهم قرب الطاولة التي رتبها للسهرة وكأنه يشرب معهم [19].

المعاناة أوسع

وقبل مناقشة قصة القلب الكلبي لبولغاكوف أحب أن أشير إلى أن جميع مؤلفات بولغاكوف تقريبا موجهة ضد الثورة، وضد الشيوعية والسلطات السوفييتية، وسبق أن عمل في صفوف البيض عام 1919 كطبيب عسكري (ربما اضطرارا) لكن شقيقيه كانا ضابطين حاربا بحماس مع البيض ضد السلطة البلشفية، ثم غادرا البلاد مع المهزومين.

لم يخف بولغاكوف هذه النزعة منذ عمله الأول «الحرس الأبيض» وبشكل صارخ في روايته « البَيض القاتل»، والملفت للنظر أن ستالين نفسه حضر أكثر من مرة مسرحية

ميخائيل بولغاكوف

«أيام آل توربين» عام 1932 التي أعدها بولغاكوف اعتمادا على نص رواية الحرس الأبيض، ستالين نفسه المتهم الأكبر بالديكتاتورية وقمع الآخرين وخاصة المعارضين له أو لنظامه، إذن كان يمكن الاستفادة من الكتّاب المعارضين لو تم الانتباه جيدا لجوهر ما يطرحونه.

يقدم بولغاكوف في القلب الكلبي (أخرجت للسينما) النماذج الشيوعية التي كانت مسيطرة بعيد الثورة بصورة سلبية لا تخلو من سخرية مرة، تتحدث القصة عن طبيب جراح «بريوبراجينسكي» الذي حوّل بيته الكبير إلى عيادة ومشفى، وكان له تجارب علمية نوعية منها أنه أخذ كلبا من الشارع أسماه «شارك»، وبعد حين أجرى له عملية جراحية نقله لشارك غدته النخامية، في هذه الأثناء تحاول لجنة الشيوعيين هذه مضايقة الدكتور الجراح بشتى الوسائل وتسعى حتى إلى السيطرة على بعض غرف منزله، وتتزايد شقاوة وحقارة «شارك» حتى أنه يكتب تقريرا ضد الدكتور بأنه معاد للثورة والبروليتاريا وتصل الأمور إلى تهديد الدكتور مع مساعده بمسدس فتحدث معركة بينه وبين مساعد الدكتور وتكون النتيجة بأن يجريا له عملية معاكسة فيبدأ بالعودة إلى طبيعته الكلبية.

وفي هذه الأثناء، ونتيجة تغيب «شارك» عن العمل والاجتماعات بالشيوعيين تزور اللجنة الشيوعية الدكتور وتتهمه بقتل «شارك» ويحضر معهم ممثل السلطة في المدينة، فيؤكد لهم أن شارك لا يزال موجودا ولكنه بدأ يعود إلى نقل خلالها الغدة النخامية والخصية لرجل قتل قبل قليل إلى الكلب، وقد نجحت العملية وانتقلت صفات ذاك الرجل إلى الكلب الذي تغيرت ملامحه بالتدريج حتى غدت إنسانية، ويبدأ (شارِك) بتعلم اللغة بسرعة، ويرث عمليا صفات شريرة من القتيل ذي السوابق الإجرامية، ومع تطوره السريع يتصادق مع لجنة البناء من الشيوعيين الذين سرعان ما يهتمون به، ويحمسونه ضد الجراح ومساعده (البرجوازيَين).

ويبدأ يعيث فسادا في البيت عند الطبيب الجراح، ويؤمن له الشيوعيون بطاقة شخصية ويعطونه اسما سوقيا وعملا في اصطياد وخنق القطط الشاردة! ويقدمون له الكتب الماركسية، ويفشل الدكتور فيليب ومساعده بورمنتال بتربيته تربية جيدة، ويغلب تأثير العامل الوراثي من الشرير السكير الذي شكله السابق منوها بأن العلم «للأسف» ما زال عاجزا عن تحويل الوحوش والحيوانات إلى بشر، هذا هو الجوهر الساخر اللاذع الذي قصده بولغاكوف «الشيوعيون مجرد وحوش أو حيوانات»، وقد وفق بفنية عالية في استخدام السخرية حتى لتبدو القصة أقرب إلى طابع الملهاة المضحكة.

من البديهي أن التعميم خاطئ، فبولغاكوف يوحي في هذه القصة بأن جميع الشيوعيين مشابهين لرئيس المجموعة «شفوندر»، ولا يكتفي بجعلهم سلبيين بل ويثيرون الاشمئزاز في حين أن القارئ سيتعاطف مع الدكتور فيليب الذي يعلن صراحة أنه لا يحب البروليتاريا، ويطلب من مساعده ألا يتحدث أثناء الطعام عن البلشفية وألا يقرأ صحفا سوفيتية.

لقد كان بولغاكوف واضحا في تعبيره بأن أولئك «الشيوعيين» سيدمرون البلد ولا سبيل لتطويرهم، ولا يمكن الحوار معهم، ولابد من الخلاص منهم وإعادتهم كما كانوا سابقا كالكلاب الشاردة الذليلة، الرمز هنا واضح لا يحتاج إلى محلل أدبي ليفسره، فهو يقول بما قدَّمه أن بناء إنسان جديد «مجتمع جديد» قسرا بواسطة الثورة سيؤدي إلى ظهور مسخ مشوه الروح كالكلب شارِك.

لا شك بأن بولغاكوف كان قاسيا جدا في أحكامه هذه خاصة أنه لم يذكر أية سلبية عن العالم الإقطاعي الرأسمالي الظالم الذي قامت الثورة نتيجة تراكم ظلمه واضطهاده للناس، بل جعل الدكتور فيليب ومساعده نموذجين استقراطيين جميلين، نعم كل معطيات القصة تدفع للتعاطف معهما.

ورفض الشيوعيين، ومع ذلك فالعمل دون شك رائع فنيا ومؤثر بحيثياته التي تجعل القارئ يتفاعل معها ويرفض ممارسات هؤلاء الشيوعيين، وأنا أيضا أتفاعل وأرفض هؤلاء الناس، ولكن هذا التعميم خاطئ حتما فليس جميع الشيوعيين كذلك، بل الأرجح أن هؤلاء يمثلون القلة وفي ظروف بالغة الصعوبة، ومن الواضح أن هؤلاء هم من المضطَهَدين في المرحلة القيصرية السابقة، والمهمشين الذين لم يحصلوا على تعليم وثقافة، وقد تحولوا إلى مناصرين للثورة، فحتى الكسندر بلوك «رائد الرمزية والبعيد عن الشيوعية»حين يصف في ملحمته الرائعة «الإثنا عشر»فصيل الشيوعيين الذين يجوبون الشوارع لضبط الأمور في المدينة يشير إلى صفاتهم الشعبية البسيطة والمزرية، وبعض صفاتهم وأفعالهم الشنيعة، ولكنه في نهاية ملحمته الشعرية يجعل المسيح في مقدمة صفوفهم كرمز للهدف السامي الرائع:

> وبخطوٍ حانٍ
> مرتفعٍ وسط الأجواءْ
> برذاذِ الثلجِ اللألاءْ
> وبإكليلٍ ضفرتهُ ورودٌ بيضاءْ
> بمقدمة الركب يضوعْ
> ابن الربِّ يسوع [20]

نعم كان أولى ألا تمنع القصة بل أن يرد عليها بالحجة والبرهان وتقديم الأدلة بأن ذلك استثناء وليس قاعدة، وهؤلاء يمثلون حالة ضيقة وليست حالة عامة، ناهيك عن أنها كتبت بعد سنوات قليلة من الثورة أي أن المجتمع عموما كان متخلفا، ومن البديهي أن يكون قسما من العمال والشغيلة «الشيوعيين» من المستوى المتخلف اجتماعيا وثقافيا، لم يكن هناك أي مبرر للحظر والمنع، فقد كانت هناك حياة ثقافية صاخبة ومدارس وتيارات متصارعة في العشرينات من القرن الفائت، ويمكن بكل بساطة مناقشة هذه الأعمال والرد عليها لا منعها، بل إن هذا المنع جعل الناس تتهافت عليها (وعلى غيرها من الممنوعات) عندما صدرت أيام غورباتشوف عام 1989 لتصبح عنصرا مساعدا لحملته الدعائية ضد الاتحاد السوفييتي.

انعطاف روائي في انعطاف سياسي

لا شك أن غورباتشوف قد أفرج عن أعمال كان من الخطأ حظرها حتى لو كانت معادية أو فسرت كذلك، وهذا يسجل له إيجابيا، لكن هذا الإفراج بعد حملات التشهير ضد الاتحاد السوفييتي صوَّرهذه الأعمال الممنوعة كبديل رائع لكل الأعمال الواقعية الاشتراكية، وتم الترويج بأنها أعمال عظيمة لأنها كانت ممنوعة، وبالتالي كانت الصحافة عموما ترحب بهذه الأعمال ترحيبا لا يقل حماسة عن الطابع الإعلامي الموجه سابقا، وهكذا كان أحد أمثلة الدعاية الغورباتشوفية ضد الاتحاد السوفييتي هو اختيار الأعمال المعادية وترويجها ما أتاح التطاول على الأسماء الإبادعية الكبيرة وأعمالهم، ويمكن القول أن سياسة التعميم السلبي أيام غورباتشوف لم تكون خطأ بل الأرجح أنها ها مقصودة، نعم أغلب الظن أنه تعميم مغرض.

غورباتشوف |

رواية أرخبيل غولاغ لـ سولجينيتسن [21] كتبت بشكل سري وهي تتحدث عن معسكرات الاعتقال وتنفيذ أحكام السجن والعمل القسري على السجناء السياسيين الذين عايشوا قسوة معسكرات غولاغ، ويسرد فيها بالتفصيل أساليب الاعتقال وما عاناه المعتقلون من طرق التعذيب العديدة بما في ذلك الإذلال والضرب والتجويع، بل واستخدام البق والحرمان من النوم، وعمليات التفتيش الغريبة، وما يتعرض له المعتقلون بالأسماء، ويذكر أحيانا معطيات وأرقام مذهلة في مبالغاتها ولا يمكن أن تكون واقعية، وتحتاج حتما إلى تدقيق، فقد تحدث مثلا عن اعتقالات هائلة عامي 1929-1930، ويذكر أن هناك إضافة إلى ذلك أكثر من 15 مليون إنسان تاهوا هائمين فارين في الغابات تاركين أسرهم خلفهم [22] تخيلو 15 مليون إنسان تاهوا في الغابات نتيجة هربهم من الاعتقال.

يفتقر هذا العمل في الحقيقة إلى عناصر الرواية الأساسية، فالموضوع لا يتطور في حبكة تتصاعد، بل يتلاحق متكررا عبر وصف حوادث متشابهة من حيث الجوهر عن الاعتقالات والملاحقات والمعتقلات، والزمن متعدد ينتقل من العشرينات إلى الثلاثينيات والأربعينات والخمسينات أو العكس أحيانا مما يكسر سياق التسلسل الزمني ولا يدخل بمهارة استخدام «الفلاش باك».

مثلا، ورغم أنها من حيث البنية تكاد تكون قريبة من المذكرات إلا أن اعتمادها في كثير من الأحيان على

المعطيات الشائعة والصحفية وما ينشر هنا وهناك عن تلك المرحلة أفقدها التمحور حتى حول بطلها الرئيس – المؤلف- أما الأبطال الآخرون فهم من الكثرة بحيث لا يمكن اعتبارهم أبطالا، خاصة أنهم أبطال حوادث قد يتم الحديث عن معظمها ببضعة أسطر لا غير.

ففيها سرد أشبه ما يكون سجلا مملا لعمليات الاعتقال الفردية والجماعية التي يشبهها بالسيول والأوبئة، وظروفها والمعاناة وتشعبها وعناصر الاعتقال والسجانين وتنوع غلاظتهم، والمخبرين وأدوارهم الحقيرة، وافتعال وابتكارالتُّهم وإلصاقها بالأبرياء، وينقل حشدا هائلا من الأحداث ما مر به، وما سمعه، وما كان معروفا، وما نُشر عنه في الغرب، وكل ذلك يتمحور حول المعتقلات، وشراسة السلطات، جميع السلطات السوفييتية، وبراءة المعتقلين، جميع المعتقلين، ومن يقرأ الرواية سيشعر أن 90% من مواطني الشعوب السوفييتية كانوا في المعتقلات بجميع فئاتهم من الفلاحين والعمال إلى المثقفين، إلا أنه يحلل في معظم الأحيان بموضوعية ظروف المراحل التاريخية، ومدى التعسف في بعض مواد القانون في تلك المراحل، ويتقن الوصف في حالات الاعتقال التعسفي ومن ثم البحث عن التهمة [23]، ومن البديهي أن يتطرق لعمليات الإعدام تاريخيا في روسيا ليصل إلى أن روسيا منذ عام 1918 دخلت عصر الإعدام بالمطلق تقريبا [24].

رغم رفضنا أخلاقيا وروحيا لكل ممارسات القهر والتعذيب والتصفية الجسدية إلا أنني أعتقد أن عمل سولجينيتسن هذا هو نوع من الانتقام الشخصي شبه المبرر لكونه هو الذي عانى، عمل يوغل في رصد المشاعر لدى المضطهَدين والمضطهِدين، وتحدث كثيرا عن تلك المعاناة بهدف استنهاض تعاطف وجداني وإدانة أخلاقية، ولكنه لا يرقى إلى العمل الروائي المميز، ولا يحقق هدفه في استنفار الناس بشكل كبير ضد السوفييت، ولا يعطي تأثيرا حاسما ضد الشيوعيين كما كان عمل بولغاكوف في القلب الكلبي، رغم أنه يثير الضحك والسخرية.

يمكن الإشارة إلى أن سولجينيتسن لاقى في البداية ترحيبا من خروتشوف المناهض لستالين، وذلك من خلال عمل تحدث عن تجربته الخاصة في الغولاغ بين 1945-1953 في قصته «يوم في حياة إيفان دينيزوفيتش»، وجاءته رسائل عديدة ممن مروا في معتقلات العمل القسري يتحدثون عن تجاربهم، فقد أمضى هو في أحد هذه المعتقلات أحد عشر عاما ، ثم منعت أعماله مع قدوم بريجنيف 1964 مما دفعه للكتابة بشكل سري حيث ظل يعمل لسنوات أواسط الستينات على مؤلفه أرخبيل غولاغ هذا الذي نشر عام 1973 وربما كان إرهاصا لمنحه جائزة نوبل ففي الرواية تعرية من إنسان مناهض عانى نفسه من المعتقلات، وليس انتقادا لممارسات وأخطاء جسيمة بل لمجمل النظام السوفييتي كنظام لا يرى فيه أية ذرة إيجابية [25].

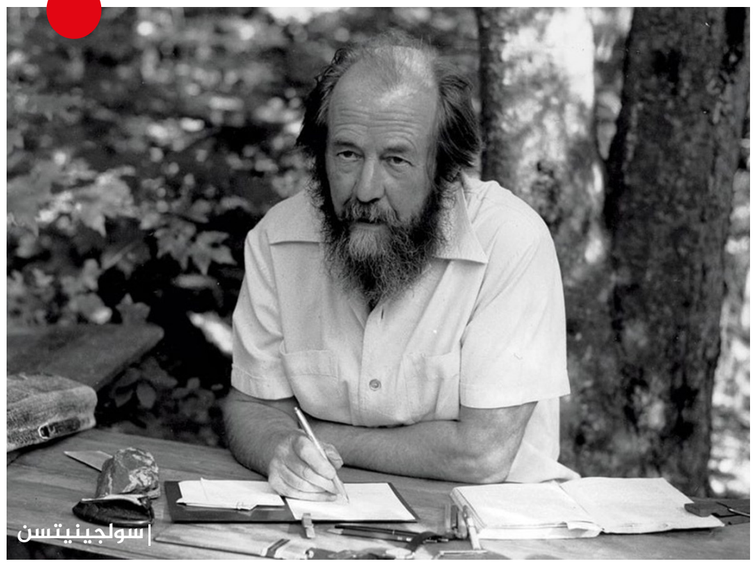
سولجينيتسن |

الطرائف تعبيرا عن تذمر الشعب

كانت السخرية دائما وسيلة مساعدة للشعوب في الأيام العصيبة عبر ما يمكن تسميته النكتة السياسية،وهي في الواقع تخفف نفسيا عن المضطهَدين عندما لا تكون لديهم القوة اللازمة للمواجهة، فهي تخفف وتشفي صدروهم لشعورهم بأنهم سخِروا من مضطهِديهم، وبالتالي تعطيهم جلَدا إضافيا لتحمل مصابهم، وكانت سلاحا لدى البلشفيين ضد القيصر، وانتشرت كالنار في الهشيم طرائف عديدة تعبر عن انتقاد التسلط أيضا أيام ستالين وإحدى هذه الطرائف انتشرت عالميا بحيث يحولها كل شعب على قائده، تقول الطرفة أن ستالين كان يسبح وكاد إن يغرق فسارع فلاح عابر لإنقاذه، وأخرجه من الماء وعرف بعد ذلك أنه أنقذ ستالين الذي قال له اطلب المكافأة التي تريدها فقال له الفلاح لا أريد شيئا، ولكن لا تخبر أحدا أنني أنقذتك، والواضح أن المقصود بشكل ساخر أن الناس ستنتقم منه لأنه أنقذ «الطاغية» وانتشرت في الثمانينات طرائف عديدة تسخر من المحسوبيات والوساطات والنفعية والتي كانت شائعة، وقيل أن الرئيس الأمريكي ريغان كان من هواة جمع تلك الطرائف.

ومن النكات التي انتشرت بقوة أوائل عهد غورباتشوف، أن الزعيم لوينيد بريجنيف أجرى عملية لتوسيع حجم صدره، ومن البديهي أن السامع سيسأل لماذا؟ ويكون الجواب ليتسع للأوسمة والنياشين والميداليات، وهو أمر كان شائعا بالفعل لمعظم القادة السوفييت، ولكن الظاهرة بالأساس كانت إيجابية لتكريم المحاربين القدماء الذين حققوا النصر على النازية ولأبطال العمل الاشتراكي [26].

وتقول طرفة مختصرة في الإطار الفكري وانعكاسه في الواقع المعاش :

ما هو الفارق بين الرأسمالية والاشتراكية ؟

الجواب:

أن تكون السلطة في أيدي من يملك الكثير من المال، أما الاشتراكية فهي أن من لديه السلطة سيكون لديه الكثير من المال.

أما عن الرشوة فحدث ولا حرج، فهناك نكات وقصص شيقة تعتمد على المفارقات غير المتوقعة منها ما يبتكره الناس أنفسهم للسخرية، من ذلك قصة طريفة لها تنويعات عديدة، أحدها يقول أن أحد المنتفعين الأغنياء جاء مع صديقته إلى موسكو، والمعروف آنذاك أن هناك ثلاثة أمور صعب جدا أن تحصل عليها: أن تشتري زجاجة فودكا دون الوقوف في الطابور طويلا، وأن تتمكن من شراء بطاقة لمسرح البولوشوي، وأن تزور ضريح لينين دون أن تقف ساعات في الطابور، أما صاحبنا فدخل من الباب الخلفي إلى مدير المتجر وقال له:

بريجنيف |

بريجنيف |

لي رجاء عندك أريد صندوقي فودكا واحد لي فلدي عيد ميلاد اليوم، والآخر لك لكي تشرب مع أصدقائك بصحتي فهذا عهد قطعته على نفسي وإليك ثمنهما، فحصل على ما يريد.

ثم مضى مع صديقته المندهشة إلى مسرح البولشوي أيضا من الباب الخلفي- فشباك التذاكر مغلق مع عبارة لم يبق محلات- وقال للمدير لي رجاء عندك هذا ثمن تذاكر الصف الأول بكامله أريد تذكرتين فقط لي كهدية لعيد زواجي، وليكن الباقي هدية مني لأصدقائك وأحبائك لكي تحتفلوا معي بهذا اليوم الجميل، فحصل على ما يريد، وأخيرا مضى إلى الساحة الحمراء وصديقته تقول هنا لن تفلح فلا أبواب خلفية، اقترب الرجل من رئيس حرس الضريح حاملا صندوق زجاجات الفودكا كاملا وقال له: لي رجاء عندك أنا مسافر بعد ساعة وهذه وصية والدي قبل أن يموت وكان يعشق لينين أن آخذ زوجتي إلى الضريح وأجعلها ترى جثمان لينين، ولن نستطيع شرب الفودكا في ذكرى والدي لضرورة السفر، فخذ الصندوق كله ودعنا نرى لينين لدقيقتين، فقال له الحارس: حسنا هل تدخلان إلى الضريح لتشاهدا لينين ام أحضره لكما إلى هنا.

فعلا شر البلية ما يضحك، وفي زمن الخصخصة انتشرت طرفة جارحة تقول لقد كانت البريسترويكا منصفة فأعطت الأذكياء الممتلكات والمؤسسات والمصانع بثمن بخس جدا، وأعطت الأغبياء بالمقابل حرية التعبير.

وهناك طرفة ماكرة تقول تنافس يهودي وروسي حول أي الشعبين أكثر تفوقا،فقال الروسي عندنا النجمة الحمراء فرد اليهودي عندنا النجمة السداسية الزرقاء فقال الروسي عندنا لينين مؤسس الدولة السوفييتية، فأجاب اليهودي عندا هرتزل الذي أحيا الصهيونية، فقال الروسي عندنا العالم ماندلييف، فرد اليهودي وعندنا أنشتاين استمر بالتنافس إلى أن قال اليهودي عندنا يهوذا الاسخريوطي، فابتسم الروسي علامة الفوز وقال نحن عندنا ميشا خربطشوف فهز اليهودي رأسه وقال هزمتني، «ميشا بالروسية تلطيف لاسم ميخائيل».

المصادر:

-1 كان إيغر يرماكوف وأولغافلاسوفا مسؤولين في العلاقات الخارجية لاتحاد الكتاب السوفييت، وخاصة في العلاقة مع العالم العربي ، وهما صديقان نشيطان جدا ومحبان للعرب، وكانت لقاءاتي بهما شبه دورية

-2 المقصود المذبحة الكبرى لليهود في بابي يار في أوكرانيا، وقد كتب يفتيشينكو قصيدة حول هذه المجزرة، ولا يقصد رسول التقليل من حجم الجريمة التي ارتكبها النازيون، ولكنه يغمز على يفتيشينكو لأنهيقول فيها أنه يشعر بأنه يهودي، وربما لهذا لا يشعر بمأساة الفلسطينيين.... أما بابي ليتا «Баб ье лето»فقد كان في البداية يرمز إلى مرحلة انتهاء الحصاد، ثم ارتبط بالطقس ليرمز إلى فترة الدفء التي تحل عادة بعد ولوج الخريف وكأن الصيف عاد ليودع الناس حيث تنتشر عادة جلوس النساء والعجائز في هذه المرحلة أمام البيوت للاستمتاع بأشعة الشمس وهذا الدفء المؤقت، ويقابله عندنا ما يقال عنه «الصيف الثاني»

-3 صورة للحوار مع فافشيكيفيتش في تشرين!

-4 صورة لإهداء حمزاتوف للكتابين

-5 المترجم الدكتورإبراهيم استنبولي

-6 الفريد هيتشكوك أحد أشهر المخرجين في مجال أفلام الرعب في القرن العشرين (1899-1980) وهو انكليزي المولد، ثم غدا منتجا ومخرجا أمريكيا- صورة لألفريد هيتشكوك وقربها صورة لرسول حمزاتوف

-7 من مجموعة رسول حمزاتوف المهداة للشاعر

-8 من مجموعة رسول حمزاتوف المهداة للشاعر

-9 أنطولوجيا الشعر السوفييتي المجلد الأول إصدار خاص في دمشق المجلد الأول في 628 صفحة من القياس الكبير يحتوي على ترجمة مختارات لأربعين شاعرا روسيا ودراسات عن المدارس الفنية وعدد من البوئيمات المميزة. صورة الغلاف

-10 أنظر: «كتاب روسي يكشف بعض الحقائق عن «دكتور جيفاغو- الاندبيندت عربية»

-11 داغ همرشولد -1905 1961 وقد شغل منصب الأمين العام للأمم المتحدة منذ عام 1953 إلى عام 1961 حيث تحطمت طائرته في الكونغو ولم يعرف هل سقطت أم أسقطت

-12 بوريس باسترناك دكتور جيفاغو مكتبة نوبل دار المدى للثقافة والنشر عام 2001 صفحة 14-13

-13 الدون الهادئ رواية ملحمية كبيرة في أربع مجلدات حاز شولوخوف عنها جائزة نوبل تتحدث عن قصة حب غريبة وما مر بالعاشقين إبان الحرب ثم الثورة والحرب الأهلية وما يعايشه الناس بشكل خاص القوزاق قرب نهر الدون

-14 رواية جميلة وملحمية للكاتبة الأمريكية مارغريت ميتشل عن قصة حب فاشلة إبان الحرب الأهلية في أمريكا وقد صدرت عام 1936 وحصلت على جائزة البوليتزر وحولت إلى فلم طويل

-15 الكتّاب الروس تحت قبضة البلشفية- جودت هوشاري دار سائر المشرق صفحة 20)

-16 المرجع السابق صفحة 22

-17 أنطولوجيا الشعر السوفييتي ترجمة وتأليف أيمن أبو الشعر صفحة 348-347

-18 انظر المرجع السابق من الصفحة 269 إلى 295

-19 مقالة حالات الفصل الشهيرة من معهد الآداب

https://dracena-08.livejournal.com/128356.html

-20 انظر ملحمة بلوك الاثنا عشر من الصفحة 168 إلى 182 في أنطولوجيا الشعر السوفييتي

-21 أرخبيل غولاغ- ترجمة نجم سلمان الحجار- دارعلاء الدين)

-21المرجع السابق صفحة 51

-22المرجع السابق صفحة 120

-23المرجع السابق صفحة 447

-24صحيح أن جائزة نوبل منحت له عام 1970 أي قبل ثلاث سنوات من صدور رواية أرخبيل غولاغ لكنه كان قد أرسل الرواية إلى دار نشر روسية عام 1969 ولا يستثنى أن تكون الأوساط المشرفة على الجائزة قد عملت بمضمونها جيدا فمنح الجائزة تقديرا لهذا المضمون وإن كتب في المسوغات عن دوره عموما!

-25صورة بريجنيف بالأوسمة

تسارع خطوات التدمير

الشاعر ليابن كان من أوائل الذين اعتبروا غورباتشوف مخادعا

كان إيغر ليابن شاعرا صادقا فطريا منسجما مع نفسه ومبادئه إلى درجة كبيرة [1]، وقد تعمقت صداقتي معه بما في ذلك الزيارات العائلية، بل وباتت همومنا مشتركة انطلاقا من حواراتنا الصريحة، نقلت له بصدق وصراحة ما عايشته ذات يوم مع مجموعة الشعراء والفنانين الموسكوفيين، وذكرت له كيف قدمت مارينا للشرطي رشوة، وحديثي مع أيتماتوف وحمزاتوف اللذين لا يخفيان هلعهما من غيوم سوداء قادمة، وأن ظهور البريسترويكا قد يكون فألا حسنا، إذ ربما تسعى لتطهير البلاد والحزب من الوصوليين، وبعض المنغصات الأخرى التي ألاحظها حول دور الواسطة، وتأثير الحزبيين المميزين المرفهين الذين يعتبرون بالنسبة لكثير من الناس «وصوليين»، فالعديد منهم يؤمّنون لأنفسهم ولأقربائهم وأصدقائهم وأيضا لمن يقدم لهم الهدايا «والرشاوى»، الكثير من المكاسب والأولويات بما في ذلك المكاسب المصيرية كالتسجيل في جامعات العاصمة، والحصول على شقة وإقامة في موسكو والمدن الكبرى، وحتى الوصول إلى المناصب، ومن ثم مهمات السفر والاستجمام المجاني، وتعويضات المؤتمرات، الخ.

كان إيغر شاعرا نقيا ذا منشأ طبقي شعبي، فأوضح أنه يعاني مثلي من هذه الظواهر المريعة، ونوه لي في الوقت نفسه بأن ما يجري هو حملة مدروسة، وفيها مبالغات مذهلة مقصودة وتعميم خطير، (ما يذكر بحديث حمزاتوف)، وأسر لي أنه طرح مثل هذه الانتقادات اكثر من مرة على المسؤولين الحزبيين في مجاله، وكانوا يعدونه بنقل هذه الانتقادات إلى الجهات العليا، ويؤكدون أيضا أن الأمر مبالغ فيه جدا، وقد نوهت بأن الذي يدفع إلى التفاؤل النسبي هو أن هذه المظاهر ما زالت محدودة ومحصورة تقريبا في أوساط بعض المسؤولين الكبار في حين أن المسؤولين الأدنى في المناصب من الدرجة الثالثة أو الرابعة ما زالت غالبيتهم من الشرفاء الرائعين بدليل متابعة الخط الأممي، ومساعدة ونصرة الشعوب وحركات التحرر التي تناضل ضد الامبريالية والاستعمار، وكذلك في دعم المبدعين والأطفال وتأمين الخدمات الحياتية تقريبا بشكل مجاني بما في ذلك الطبابة والسكن والتعليم وهذا مقياس هام لكن التحولات الاقتصادية أيام غورباتشوف تشي بقادم مرعب.

عمق إيغر ليابن من علاقتي مع اتحاد الكتاب وخاصة مع إيغور إيسايف [2] وكانت قد تعمقت صداقتي مع الكاتب والشاعر والشخصية الإعلامية السياسية الاجتماعية النشيطة أناتولي سافرونوف [3] الذي أسعدني بأنه امتدح تجربتي وكان يتحدث عني في اللقاءات الأدبية قائلا «هذا مایاكوفسكي العرب».

وشاركت في هذه الفترة بعشرات الندوات والمؤتمرات واللقاءات الأدبية بما في ذلك الدولية، وكنت الشاعر العربي الوحيد الذي يمُنح جائزة مایاكوفسكي، وفُتحت أمامي فعلا معظم المنابر الإعلامية الإبداعية من الدرجة الأولى، وباتت تنشر قصائدي ومقالاتي في أبرز الصحف والمجلات السوفييتية «الأغانيوك- يونست- ليتراتورنايا غازيتا- بل وصدرت عام 1985 مجموعة شعرية لي عن إحدى أضخم دور النشر آنذاك وهي دار البرافدا [4]، في تلك الفترة الخصبة من تاريخ وجودي في الاتحاد السوفييتي توسع نشاطي الإبداعي إلى درجة كبيرة جدا بمساعدة اتحاد الكتاب السوفييت، فكانت تأتيني دعوات للمشاركة في المؤتمرات الأدبية، والأمسيات المختلفة بما في ذلك الجماهيرية في شوارع موسكو وساحاتها مع كبار الشعراء الروس، كما أقمت أمسيات ولقاءات عديدة مع الشعراء والكتاب في معظم الجمهوريات السوفييتية السابقة، ونشرت الصحف والمجلات السوفييتية بالروسية وبعدد من لغات تلك الجمهوريات قصائد لي أو مقالات عني أو حوارات معي[5].

وبعد منح محمود درويش جائزة لينين نقل لي إيغر ليابن أن أناتولي سافرونوف يريد ترشيحي لهذه الجائزة، ورغم أنها كانت مجرد رغبة طيبة تدل على الاهتمام ولم تتحول إلى ترشيح فعلي إلا أنني قلت له بالحرف تقريبا: انقل لأناتولي فلاديميروفيتش شكري وقل له أن أيمن نفسه يرشح معين بسيسو لهذه الجائزة، فنوه لي إيغر بأن سافرونوف دعم حصول معين على جائزة اللوتس، فقلت له إنه يستحق أن يحصل على جائزة لينين أيضا فهو أجدر مني بها [6]، لكنها لم تمنح له.

أوضحت لإيغر ليابن أن المفارقة بين الشيوعيين في منطقتنا والشيوعيين السوفييت في الثمانينات -مع احترامي وتقديري للأنقياء منهم-

هي أن الشيوعيين في بلداننا يناضلون في سبيل غد أفضل لشعبهم وليس لتحقيق مصالحهم الشخصية، بل هممقتنعون بأنهم سيستفيدون حين يستفيد الشعب وهم منه، كما أنهم يعيشون في حالة بؤس وفقر، ويدركون أنهم ملاحقون ومضطهدون، وينتظرهم السجن والطرد من العمل وحتى الموت تحت التعذيب.

أما معظم الشيوعيين السوفييت فهم كما أرى مرفهون ومميزون، وقادرون ليس فقط على إسعاد أنفسهم بل وإسعاد أصدقائهم ومعارفهم، ولديهم امتيازات كبيرة بما في ذلك في الاستجمام، قال: «لا تظلمنا، أنا يا صديقي ليس لي أية امتيازات من هذه سوى امتيازات الكاتب كما هي لجميع الكتاب، والملايين من الشيوعيين مثلي هنا، ولكنك أشرت إلى وجعنا حقا» قلت له:»إنني في الواقع يا صديقي أخشى على المسار كله، معظم الذين يدخلون الآن في الحزب الشيوعي السوفييتي هم من الوصوليين، ومشجعي السوق السوداء، وأنا لا أبالغ، على الأقل ممن أعرفهم شخصيا، معظمهم من الأعداء الحاقدين حتى النخاع الشوكي على الشيوعية والشيوعيين، وهؤلاء يعرفون بعضهم جيدا، ويرشحون ويدعمون انتساب هذا العدو المناهض، أو ذاك ليغدو حزبيا خاصة أن معظمهم من الفاسدين المرتشين، وبعد حين قريب -إن لم تظهر جليا أصوات الانتقادات- سيكونون هم المسيطرين، هذا يا صديقي ما أخشاه عندها سيتربع في كل مكان الرأسماليون

أندروبوف

الوحشيون الذين سينهبون البلد بثوب الشيوعيين الجدد في البداية، ثم بعد حين لن يخفوا جلودهم وسيدمرون المسار كله علنا حين يسيطرون، وسيكون حتى على عرش الإبداع أمثال جماعة الشاعرة الشابة مارينا الذين حدثتك عنهم، وسيصبح الحزب الشيوعي والسلطة السوفييتية عرضة حتى للمحاكمة».

وقف إيغر ليابن كمن سكبوا فوقه وعاء ماء بارد وقال: «هذا خطير جدا، بل أكثر من خطير، ويدفع إلى تساؤل بالغ الحساسية وهو: هل كان ستالين على حق حين قام بتطهير الجيش والسلطة والحزب من آلاف الوصوليين والمندسين ولكن بيريا بالغ في هذه الحملة فطالت حتى الأبرياء؟ فقد جاءت هذه الحملة بعد أن تضاعفت أعداد الحزبيين بشكل كبير في الثلاثينات، لا أستطيع حتى تصور ذلك، ولكنك محق في مخاوفك.»

يبدو الأمر أشبه ما يكون بسلوك عاهرة تنتقد بنات حيها باسم العفة لأنهن قصرن فساتينهن قليلا للتماشي مع المودة، وإذ بها حين تسيطر على مقاليد الأمور تسجل الحي كله في نادي العراة، وتحوله إلى بيت مرخص للبغاء، وكأنما الجوهر هو الترخيص وليس النفور من البغاء. آمل أننا سنتمكن من وقف هذا التدهور، الاتحاد السوفييتي قدم إنجازات رائعة بما في ذلك في مجال العلوم والفضاء والطب والهندسة والاختراعات، ومنح الناس امتيازات حقيقية في مجالات السكن والتعليم والطبابة والمواصلات والإبداع، وساعد شعوب العالم للخلاص من العبودية، ودعم حركات التحرر للخلاص من الاستعمار، إنهم يشوهون عن قصد هذا الإرث العظيم بجريرة قلة من الفاسدين الذين يسعون هم لتولي القيادة وقلب الأمور رأسا على عقب، لا بد من وقف ذلك، وظل سؤالي عالقا: كيف؟

عبّر ليابن عن إدانته لبعض المظاهر القمعية التي مارستها السلطات السوفييتية، وخاصة إبان الحرب العالمية الثانية حيث تم سجن مئات النساء نتيجة سرقة بعض المواد الغذائية وقت المجاعة بمن فيهم الحوامل، وتم تحويل الأطفال إلى المعسكرات، مضيفا بأن كل إنسان مخلص يناهض أيضا اضطهاد الأدباء لمجرد الشبهات، ولكن تلك مراحل استثنائية، هناك حرب هائلة ومجاعة استمرت حتى بعد الحرب عامي 1946-1947 وهناك دمار هائل وهناك مندسون، ولابد من تنظيم أمور المجتمع.

في كل دول العالم تكون هناك حالات طوارئ وقت الحرب، وللأسف يدفع قسم من السكان ضريبة مضاعفة، ثم نشأ بعد عشرين عاما من الحرب ما سمي بمرحلة الركود أيام بريجنيف، وكان فيها نوع من التسيب بما في ذلك ولعه بالسيارات الفارهة، وولع ابنته باقتناء المجوهرات،- إن صحت هذه الاتهامات- لكن هذه المرحلة حملت جوانب إيجابية هامة، وكان الحس الأممي ناضجا ومكرسا في جميع نشاطات الدولة، وأرهصت لبداية تحول نوعي أيام أندروبوف[7] ما سمي بمرحلة اليقظة حيث بدأت عملية مراقبة حقيقية للنشاطات والالتزامات ومحاسبة المسؤولين، فذكر لي ليابن أن أندروبوف هو الذي ساعد غورباتشوف في الصعود

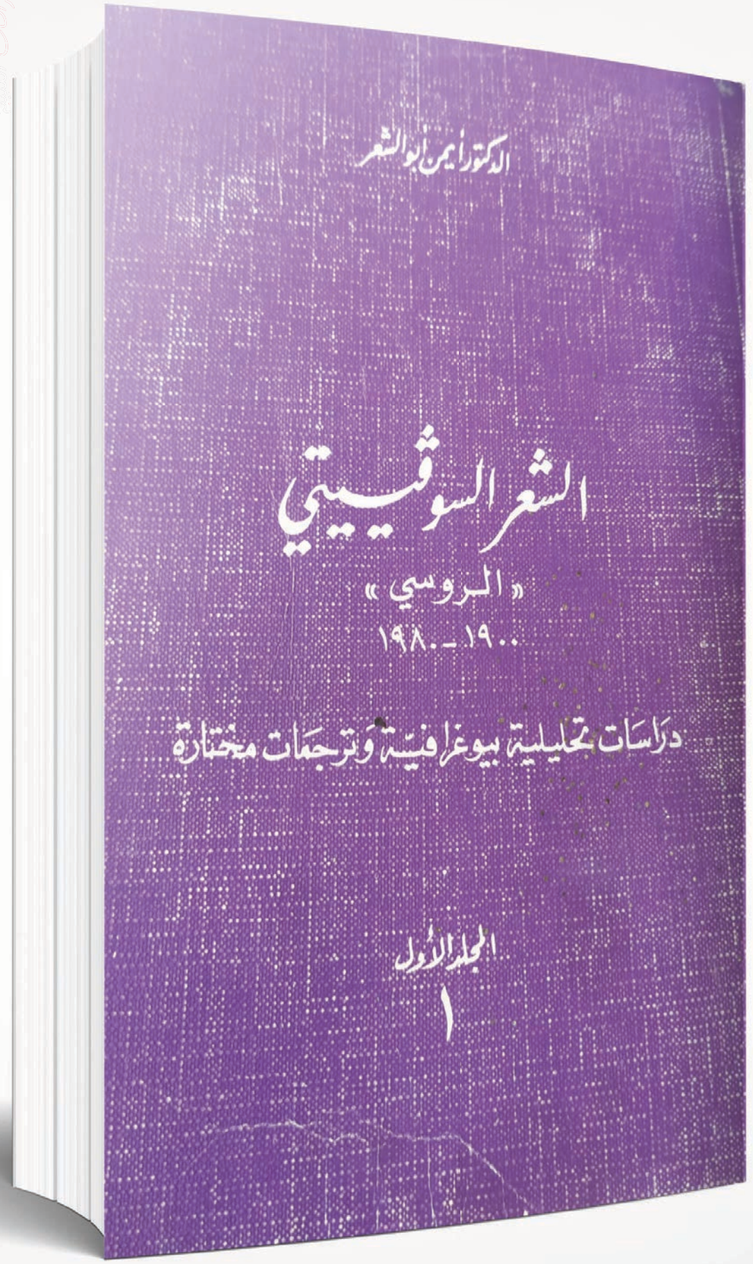

أندروبوف

لأنه توسم فيه مصلحا نقيا، وكان قد تعرف إليه حين كان اندروبوف يتعالج بالمياه المعدنية في منطقة ستافروبل التي كان غورباتشوف سكرتيرا للحزب فيها.

تحدثنا طويلا عن كل الجزئيات، وكانت مواقفنا وتقديراتنا متطابقة فقد انتشرت على سبيل المثال قبل ذلك ظاهرة ذهاب بعض كبار المسؤولين أثناء الدوام الرسمي إلى الحمامات الروسية التي تعتبر مكانا للاستجمام والترفيه، أو إلى المتاجر والنوادي،ولقمع ظاهرة التسيب بدأت المخابرات تقوم بحملات جدية، وتعاقب الذين ينتهكون القانون أيا كانوا، وشعر الناس خلال فترة أندروبوف بأن الطابع السوفييتي النقي قد بدأ بالعودة إلى أصالته لكن أندروبوف مات بعد أشهر نتيجة مرضه بفشل كلوي، أو قتل! ورجح ليابن الإشاعة القوية والتي أذكرها جيدا بأن زوجة وزير الداخلية آنذاك شيولكوف التي كانت تعيش في نفس المبنى مع أندروبوف هي التي أطلقت النار عليه حيث كان أندروبوف وشولكوف خصمين عنيدين منذ أن كان أندروبوف رئيسا للاستخبارات، وحين غدا رئيسا للاتحاد السوفييتي فقدَ شيولكوف امتيازاته وحتى رتبته كجنرال ومنصبه كوزير للداخلية وانتحر، وقيل أن زوجة شيولكوف (سفيتلانا) أطلقت النار عليه في المصعد انتقاما لقناعتها بأنه كان السبب بانتحار زوجها حيث كان أندروبوف يعيش في مبنى سكني تسكن فيه أسرة شيلوكوف.

ومع ذلك هناك إشارات استفهام حقيقية حول ذلك حيث تقول المعطيات الرسمية أنه مات نتيجة فشل كلوي (كانت سفيتلانا طبيبة وقيل أنها أطلقت النار تحديدا على كليته المريضة) لكن الواقع أن مرحلة أندروبوف كانت مرحلة تنقية، وطابعها الرئيس التخلص من السلبيات والمحسوبيات وظاهرة الفساد، ثم جاءت مرحلة تشيرنينكو لتعيد أجواء مرحلة بريجنيف وطابع الركود من جديد لبضعة أشهر قليلة حيث تسلم السلطة وهو عليل وغادرته السلطة للبطانة واقعيا قبل أن يغادرها.

قدوم غورباتشوف

نعود إلى ظهور غورباتشوف، فقد أرهص كل ذلك لقدوم غورباتشوف[8] عبر ظروف استثنائية كثرت بشأنها الأقاويل، ولعل أندروبوف ظنَّ بأن غورباتشوف سوف يتابع خطه في محاربة السلبيات «لا محاربة لاتحاد السوفييتي نفسه لصالح الفاسدين»، وقد أثرت مرحلة غورباتشوف بمصير العالم، ومهدت لتدمير الاتحاد السوفييتي وانهاء دوره كقوة مواجهة للهيمنة الأمريكية، مما أسفر عن انحسار هائل لدور حركات التحرر الوطني ومناهضة الامبريالية، وبدأت تظهر على مراحل وتزداد وضوحا مرحلة العداء المذهل للاتحاد السوفييتي والشيوعية ما يستدعي وقفة تأملية جدية ونقاش موضوعي بالغ الحساسية، إذ كيف وصل هؤلاء إلى رأس الهرم يقول البعض: هناك تفسيران إما أن النظام لا يحمل مكونات بقائه وتطوره، وإما أن الفساد نخره وأهلكه، وبات حتى اختيار القادة مرهونا بالقوى والمصالح والمحسوبيات، وهو سؤال رهيب: أيعقل أن يكون النظام بحد ذاته يحمل مسببات دماره من الداخل، أم أن ما جرى كان فيروسا خارجيا وجد له أرضية خصبة في ظاهرة الفساد، فتنامى وسيطر وأهلك؟ ولهذا ظننا أن غورباتشوف سيكون منقذا وليس من سيحفر قبر الاتحاد السوفييتي. نعم لقد لعب الإعلام الدور الأكبر في هذه المعركة «سنعود إلى هذا الأمر بتفصيل أوسع في الفصل اللاحق».

من خلال حواراتي مع الشاعر ليابن توضح أنه كان لا يثق بغورباتشوف منذ البداية، وخاصة أنه كان يُعيّن في مواقع المسؤولية أكثر الحاقدين على الشيوعية والنظام السوفييتي، ورجح أن حالة العداء هذه يمكن أن تكون نتيجة عقدة نفسية أثناء الطفولة، وذكر لي أن جد غورباتشوف لأبيه اتهم بأنه نصير التروتسكية، واعتقل ونفي إلى صربيا، وجده لأمه الذي أمضى غورباتشوف طفولة ما قبل المدرسة عنده اعتقل ونفي إلى سيبيريا لكونه لم ينفذ الخطة الزراعية في المنطقة المسؤول عنها، وأضاف لكن ذلك ليس مبررا لهذا التخريب والتجريب، غورباتشوف -حسب ليابن- استخدم بتخطيط ووعي الآلة الإعلامية بعد أن أوكل لقيادتها ياكوفليف الذي جعله غورباتشوف الرجل الثاني، وكان في الواقع الرجل الأول في تهيئة الأجواء للتغييرات الكبرى، وهناك اتهامات له بأنه عميل أمريكي تم توظيفه إبان إرساله إلى أمريكا في الخمسينات إلى جامعة كولومبيا حيثتم توظيفه لصالح الاستخبارات الأمريكية ورغم ذلك بات ياكوفليف «اليد اليمنى لغورباتشوف» مسؤول الدعاية والإيديولوجيا في الحزب، وقد كتب رئيس الاستخبارات السوفييتية في حينها كريتشكوف تقريرا عن كونه عميلا للمخابرات الأمريكية وقدمه إلى غورباتشوف الذي بدل أن يقيله قال عبارته العجيبة هون عليك «من كان منكم بلا خطيئة» [9].

لكن ليابن أكد لي أنه سيفضح كل ذلك هذه المرة أمام الجمهور مباشرة وليس عن طريق التسلسل الحزبي، وأسجل للشاعر ليابن أنه -وكان غورباتشوف لا يزال على رأس السلطة- أعلن بصوت مدو في أمسية جماهيرية -دعاني إليها- أن قيادة الحزب ومعظم أعضاء المكتب السياسي وقسم كبير من اللجنة المركزية خانوا جماهير الحزب والشعوب السوفييتية البسيطة، وهم الآن يسيرون بالدولة نحو الهاوية بقيادة غورباتشوف الذي أسره مديح الغرب وتصفيق الأمريكان غافلا عما يخلفه من مآس على الوطن والدولة والشعب.

تسارع خطوات التدمير

أنا لست مؤرخا ولا أستطيع أن أرجح هذا الجانب أو ذاك حتى بما يتعلق بغورباتشوف، ولكني أستطيع أن أتحدث عن انطباعاتي ومشاعري تجاه أهم حدث في القرن العشرين وهو انهيار الاتحاد السوفييتي.

ويبدو أن الكاتب الروسي الأصيل فالانتين راسبوتن [10]، قد استشعر بهذا الخطر مثلنا أواخر أيام الاتحاد السوفييتي، فكتب رائعته الحريق بنسيج إنساني واعٍ بعيدا عن الوعظ والتنديد، ولكنه أوغل في رصد النفوس البشرية مشيرا إلى أن عشرات السنين من المرحلة الاشتراكية السوفييتية لم تهذب كل المجتمع، ولهذا تظهر في الرواية النفوس البطلة الشجاعة للرجال الذين يحاولون إطفاء الحريق الذي يداهم البلدة التي تعمل في إنتاج الخشب، ويبدأ الحريق بالتهام أهم مستودعاتها، ويعمل معظم الناس بنقاء لإطفاء الحريق، ومع ذلك تظهر نفوس مريضة كان يهم أصحابها استغلال حالة الفوضى، ونهب أكبر قدر ممكن من البضائع بما في ذلك أثاث البيوت، ناهيك عن فقدان القيادة الواعية القادرة على توحيد البشر لمواجهة الحريق، هذا الخلل الذي أشار إليه راسبوتن كان بمثابة ناقوس خطر حقيقي لأنه انعكاس عما كان يجري واقعيا، لكن المجتمع للأسف كان قد بدأ يدخل في الدوامة، ناهيك عن فكرة خفية

فالانتين راسبوتن

أعتقد أنها رمزية محورية، فالعمل الرئيسي للناس هناك - في الرواية- ليس الزراعة بل قطع الأشجار، وعندما تصبح المنطقة جرداء يتم التفكير بإزالة البلدة كلها [11].

ألم يكن ذلك إنذارا حقيقيا من فالانتين راسبوتن من أن اللهيب الذي ترافق مع قطع الأشجار، وبدأ باحتراق النفوس والضمائر سيحرق البلد كله ويحوّل التجربة إلى رماد.

تخيلوا أكبر بلد مساحة في العالم 22 مليون و 276 ألف كيلومترا مربعا توحدت شعوبه بعد خمس سنوات من الثورة، ومر بحرب أهلية مريرة وتدخل خارجي من الشرق والغرب بقوات عسكرية، ومع ذلك استطاع ليس الوقوف على قدميه بعد هذا الإنهاك الرهيب، بل وتحقيق تقدم مشهود في الاقتصاد والتكنولوجيا، هذا البلد ينهار بعد ست سنوات من حكم غورباتشوف ليغدو أول رئيس للاتحاد السوفييتي وآخر رئيس له، وتخيلوا أن من بين قراراته الاقتصادية الأولى -بحجة محاربة شرب الكحول- إصداره أوامر بشلع كروم العنب من جذورها، فتضررت البلاد بمبالغ مذهلة، وخاصة في جمهورية مولدوفيا التي تعتبر من أشهر منتجي الخمور في العالم وتضاهي حتى الخمور الفرنسية، ولم تستطع تعويض خسائرها من الكروم خلال عشرات السنين! ماذا مثلا لو أن الرئيس الفرنسي طالب بشلع الكروم وسحق إنتاج الخمور الفرنسية لإنقاذ الشعب الفرنسي من السُكر؟

طبعا كان الإعلام يروج لكل قرارات غورباتشوف باعتبارها حدثا رائعا لإنقاذ المجتمع وتحسين حياته، فكانت القرارات الاقتصادية وبالا على المجتمع بتجريبية مريعة لمزج اقتصاد السوق بالاقتصاد المخطط دون حدود وضبط للأمور، وهو ما ساهم بفلتان

السوق ونهب مؤسسات ومصانع الدولة لخلق قطاع خاص ظهر عمليا بواسطة النهب والسرقات فتردت الأوضاع المعيشية بالنسبة لغالبية السكان، وعلى الصعيد السياسي ساعده شيفرنادزة الذي كرسه هو نفسه في المكتب السياسي وكوزير للخارجية [12].

ومع أن الأمر يتعلق بأمن البلد إلا أن غورباتشوف رفّع الكسندر ياكوفليف -الذي قدم رئيس الاستخبارات كراتشكوف كما ذكرنا تقريرا عنه بأنه عميل للأمريكان- وجعله مسؤولا عن القسم الأيديولوجي والإعلام، فساهم بتوجيه أجهزة الإعلام لتغدو معادية للسوفييت أكثر من أمريكا نفسه، وذلك عبر شعار «التفكير الجديد» مع إيهام الناس بأنهم سيحصلون على النعيم والغنى إن هم توجهوا نحو الغرب، والحقيقة أن أصحاب هذه الحملة الملغومة المقصودة سيطروا سيكيولوجيا وصوروا للناس أنهم سيغدون من رجال الأعمال الأغنياء المرفهين كلهم.

هناك أصوات تحاول أن تصور غورباتشوف كمصلح فشل في مهمته، ولكنه صادق النية، ربما، على أنني لا أناقش النوايا، كما أنني أدرك أن هناك أخطاء كبيرة وأحيانا أخطاء جسيمة زمن الاتحاد السوفييتي، والملفت بالنسبة لي أن معظم الذين ركبوا الموجة، ودعموا سقوط الاتحاد السوفييتي هم من أعتى الفاسدين، وحتى لا يطالب أحد بتسمية هؤلاء الأشخاص أقول بكل بساطة إن جميع الذين غدوا من أصحاب الملايين والمليارات -في فترة غورباتشوف ويلتسن- هم من الفاسدين الذين استفادوا من مرحلة التسيب وإلا كيف يمكن لموظف راتبه بضعة مئات من الروبلات أن يغدو خلال سنوات معدودة مليونيرا أو ملياديرا (سأتطرق لاحقا لهذه المفارقة) وساروا بالبلاد نحو ظهور طبقتين بمفارقة هائلة: طبقة الفقراء جدا، وطبقة الأغنياء بشكل فاحش.

فقد فتح غورباتشوف المجال واسعا لعمليات تجريبية اقتصادية هي بمجموعها مناقضة للاقتصاد المخطط، وسياسة الدعم الحكومي للسلع الأساسية، كما ألغى غورباتشوف بجرة قلم المادة السادسة من الدستور ليفتح المجال أمام الجمهوريات الأخرى لتشكيل أحزاب انفصالية معادية للشيوعية ولست من حيث الجوهر ضد إلغاء مادة تكرس هيمنة وقيادة حزب السلطة، ولكن الحزب كان يشكل العمود الفقري لترابط الجمهوريات السوفييتية، وكان من الواجب إيجاد بديل عملي يُبقي ترابط الجمهوريات، ويجعل هذا الترابط فعالا، ومن ثم يمكن إلغاء هذه المادة، لكن غورباتشوف كان مستعجلا جدا وعيونه نحو الغرب ومديحه وتصفيقه له، كما ساهم في حزيران 1990 في إلغاء حتى مجلس التعاضد الاقتصادي بين دول الكتلة الشرقية الذي أنشيء عام 1949 محدثا بذلك دمارا اقتصاديا في الاتحاد السوفييتي وفي هذه الدول.

ومن المؤشرات الملفتة للنظر أن

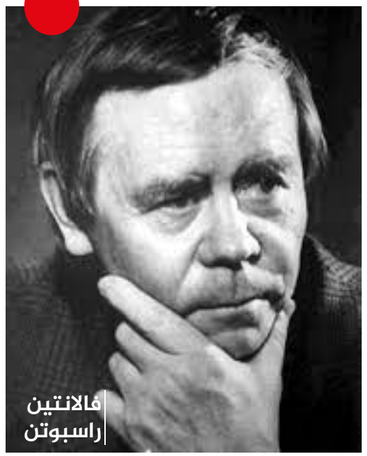
فالانتين راسبوتن

دول مجلس التعاون الاقتصادي للكتلة الشرقية كانت مَدينة للاتحاد السوفييتي بمبلغ 15 مليار روبل بين عامي 1975-1985، وانقلب الأمر رأسا على عقب، فأصبح الاتحاد السوفييتي مدينا لدول المجلس خلال الأعوام 1986 – 1990 بمبلغ 15 مليار روبل، أي تحديدا في فترة غورباتشوف، وسرعان ما توجهت هذه الدول نحو التعاون الاقتصادي مع الغرب وأمريكا، كما ساهم غورباتشوف بإنهاء حلف وارسو عام 1991 رغم أنه تأسس بعد حلف الناتو بعدة سنوت[13]، ذاك أن انعكاس أطروحات غورباتشوف والدعاية المرافقة الهائلة في تصوير الاتحاد السوفييتي كإمبراطورية للشر -وهو شعار أمريكي- خلق في دول الكتلة الشرقية واقعا موضوعيا يسير بقوة في هذا الاتجاه انطلاقا على الأقل من أن السوفييت أنفسهم يريدون التخلص من ارث الاتحاد السوفييتي، ما أرهص لانهيار حلف وارسو بسرعة كبيرة.

وارسو نفسها تدخل في الناتو

أسّس حلف وارسو بعد خمس سنوات من تشكيل حلف شمال الأطلسي، وكان تحطيم جدار برلين تحصيل حاصل فقد كانت هناك تذمرات من هيمنة «الأخ الأكبر» على دول الكتلة الشرقية فظهرت قبل ذلك تحركات شعبية تم قمعها في هنغاريا عام 1956 و في تشيكوسلوفاكيا عام، من ثم اتسعت الهوة بين النهج الاشتراكي الأممي والشعوب السوفييتية والاوربية الشرقية نتيجة الحريق الذي أشعلته البريسترويكا و»التفكير الجديد» في أعشاب الفكر الأوربي الشرقي الذي جف تماما خلال سنوات الدعاية المترافقة بمظاهرات الإحتجاج، وعبر اتساع النقد بل وحتى الافتراء انطلاقا من منطق العلنية والشفافية.

وقد أعلن غورباتشوف بوضوح حين بدأت الانهيارات في أوروبا الشرقية بأنه لن يتدخل، والحقيقة أنه كان في الواقع قد فات الأوان فالآلة الإعلامية كانت جبارة، وضخمت الأخطاء عشرات المرات، وانساق الناس خلف ما يطرحه إعلام الليبراليين الروس مرددين ما يطرحه الغرب ، بأن القوات السوفييتية في ألمانيا قوات احتلال رغم أنها دخلت إلى ألمانيا وحررتها من النازية، والغريب أن القوات الغربية فعلت ذلك أيضا ولكنها تسمى قوات الحلفاء المُحرِرة.

لا شك أن هناك أخطاء وتجاوزات، ولكن الأمر سار كما يبدو وفق المخطط الأمريكي غير المعلن، ولنفترض أن غورباتشوف كان يتصرف نتيجة ثقته بالأمريكان وبطيبة (في السياسة تسمى حالة كهذه سذاجة، وكان يجب أن يبرم الاتفاق مكتوبا وموثقا وموقعا وروسيا اليوم تدفع ثمنا باهظا نتيجة ذلك حيث باتت قوات الناتو على حدودها مباشرة)، وكان تفاهم غورباتشوف مع الأمريكان هو المُروَّج له كإنقاذ للبشرية، وإنهاء الحرب الباردة، وأذكر جيدا أن الناس في الشارع كانت تقول لا شك أنه وقع اتفاقا على انسحاب قوات الناتو مقابل انسحاب القوات السوفييتية، فلماذا يا سيد غورباتشوف لم تطرح عليهم على الأقل بأن حلف وارسو نشأ عام 1955 كرد على حلف الناتو الذي أسس عام 1949 وها هو حلف وارسو يزول، والحرب الباردة انتهت فقوموا بحل الناتو بالمقابل، فقد كان دخول ألمانيا الغربية في الحلف إشارة حاسمة تشير إلى النوايا المبيتة فانضمامها يعني إعادة تسليحها وقد تم هذا الانضمام في التاسع من أيار عام 1955 ما دفع إلى اتخاذ قرار سريع بالمقابل وتم تأسيس حلف وارسو في 14 مايو من الشهر ذاته، وضم الاتحاد السوفييتي وألبانيا وبلغاريا ورومانيا وهنغاريا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا ثم انضمت ألمانيا الشرقية في عام 1956، ولم تنضم يوغوسلوفيا رغم أنها من الكتلة الشرقية لأن زعيمها تيتو كان ينتهج مبدأ الحياد الإيجابي، وكان قبل ذلك على خلاف مع ستالين.

وأعلن الحلف عن أنه حلف دفاعي بحت يقوم بمساعدة أي بلد عضو فيه إن تعرض للعدوان واتخذ ذلك كما سبق وذكرنا كمبرر لدخول القوات السوفييتية إلى هنغاريا لقمع الانتفاضة عام 1956 وإلى تشيكوسلوفاكيا للسبب نفسه عام 1968، وقد تحمل الاتحاد السوفييتي نفقات إضافية كبيرة في تسليح دول الحلف ما عمق من الأزمة الاقتصادية، ومع التصدعات المتلاحقة والدعاية الرهيبة لتصوير السوفييت أسوأ من النازيين،وبدأ تفكك الحلف بعيد انهيار جدار برلين عام 1989 وانهار حلف وارسو نهائيا عام 1991.

حسنا هناك سؤال هام آخر للسيد غورباتشوف وهو لماذا لم تشترط أن تقوم الولايات المتحدة بسحب قواتها من ألمانيا الغربية مقابل سحب القوات السوفييتية على عجل، وتم نقلها في ظروف قاسية مذلة تماما، فقد بدأت بسحب القوات عام 1989، ثم اتفقتْ مع هولمت كول بأن ينجز الانسحاب عام 1994 ولم تطالب حتى بنفقات سحب تلك القوات والاتحاد السوفييتي يمر بأزمة اقتصادية تزداد تفاقما، لماذا، أوعزت لشفرنادزة أن يوقع الاتفاق مجانا ما استدعى حتى تعليقا غير عادي من الرئيس الأمريكي بوش الأب يقول فيه: «لم نفهم سياسة القيادة السوفييتية فشفرنادزة لم يساوم أبدا ووافق على كل دون أية شروط، لقد كان ذلك هبة إلهية» [14].

كان غورباتشوف حسب معظم الآراء يهمه إرضاء أصدقائه الغربيين والحصول على شهادات حسن سلوك جديدة، ولكن حتى زعيم حارة وليس رئيس دولة عظمى كان يمكن أن يحسب حسابا لسكان حارته، غورباتشوف تصرف كمستسلم أكثر من اليابانيين بعد الحرب العالمية الثانية، وكان واضحا للعيان أن الناتو سيستمر ويتوسع وستنضم إليه معظم دول حلف وارسو ببنيتها العسكرية التحتية.

ثم انضمت إلى الناتو أواخر التسعينات التشيك وبولونيا وهنغاريا عام 1999 وتم عام 2004 ضم سبع دول أخرى بينها دول البلطيق الثلاث التي كانت في قوام الاتحاد السوفييتي السابق نفسه، مما كرس هيمنة الناتو كحلف عسكري ضخم وحيد لصالح الغرب، هل يمكن اعتبار كل ذلك صدفة يا سيد غورباتشوف؟ للموضوعية بعض الأصوات تقول نعم كان غورباتشوف يحاول بصدق الإبقاء على الاتحاد السوفييتي والمضي بعملية الإصلاح إلى نهايتها، ولكن هؤلاء الذين يعتقدون بأن غورباتشوف كان صادقا لا يشكلون اليوم على الأرجح واحدا بالمئة من الشعب الروسي.

فصول المسرحية

كان قد نشأ منذ عام 1977 تعاون بين غورباتشوف ويلتسن الذي كان السكرتير الأول للحزب في منطقة سفيردلوفسك في مجال الزراعة وبالتالي كانت هناك علاقات استمرت لسنوات، وحين غدا غورباتشوف أمينا عاما للحزب عيّن يلتسين سكرتيرا أول للحزب في العاصمة في نفس العام الذي استلم غورباتشوف فيه السلطة ثم تصاعد الخلاف فيما بعد، فقد قام يلتسن قبل أسبوع مما يسمى بالانقلاب بالاتفاق مع الرئيس الأوكراني كرافتشوك والرئيس البيلاروسي شوشكيفيتش بتاريخ 1991-8-12 على اتخاذ الخطوة الأولى لتفكيك الاتحاد السوفييتي من خلال توقيع ما سمي ببيان «بيلوفيجسكايا بوشا» وهو بيان يكرس حق الانسحاب من الاتحاد السوفييتي واعتبار هذه الجمهوريات مستقلة، هل كان غورباتشوف ضعيفا إلى درجة أنه لم يستطع اتخاذ أي قرار يلجم من حماس يلتسن في احتلال المركز الأول بعد اتفاق بيلوفيجسكايا بوشا؟

أستطيع القول أنني شخصيا أشك حتى في مجمل ما اعتُبر انقلابا على غورباتشوف في أغسطس 1991، وبصحة ما قاله بأنه كان معزولا عن العالم الخارجي في منتجعه، وأنّ الاتصالات قد قطعت عنه، إذ كان بإمكان غورباتشوف - حسب تصريحات رئيس جهاز حراسته الجنرال فيتشيسلاف غينيرالوف- أن يتصل بمن يشاء في كل أنحاء العالم، وكان بإمكانه حتى أن يغادر منتجع فاروس ويأتي إلى موسكو، وربما كانت عملية الانقلاب كلها بتخطيط سري مع ياكوفليف، عبر خطوات متلاحقة حيث كان الوضع لا مثيل له في التاريخ بأن يقوم القادة الرئيسيين للبلد الذي يحكمونه بتشويه سمعته في كل شيء إلى ما دون الحضيض، والتخلص من الهياكل التنظيمية والاقتصادية والسلطوية للاتحاد السوفييتي، وهذا ما دفع الفريق الذي حاول وقف انهيار الاتحاد السوفييتي دفعا لاتخاذ تلك الخطوة الضعيفة شبه اليائسة، وحين زار وفد منهم غورباتشوف ترك الأمر غامضا في قوله للوفد عبارة لها أكثر من تفسير « اذهبوا إلى الشيطان وافعلوا ما تشاؤون».

لنلاحظ تصرف غورباتشوف في هذه الفترة العصيبة: بلد ينهار ويتمزق وفي هذا الوقت بالذات يختار غورباتشوف أن يستجم مع زوجته على البحر الأسود، لا أعتقد أن هناك عاقلا يمكن أن يرى هذا التصرف طبيعيا، بل لعل هذه الخطوة ذات طابع شطرنجي لتهيئة الظروف بحيث لا يكون موجودا في موسكو، وبالتالي يتخذ المسؤولون «الثمانية» من الدرجة الثانية والثالثة هذا القرار في محاولة لإنقاذ الاتحاد السوفييتي بعد أن بات القسم الأكبر من الجماهير متأثرا تماما بالدعاية ضد الاتحاد السوفييتي، وكانت بالتالي الضربة القاضية لهذا الكيان الذي كان يحتضر بعد سنوات الطعان الإعلامية والإجرائية المستمرة زمن غورباتشوف، فأنشأت هذه المسرحية جسرا نهائيا لاستلام يلتسن السلطة بدليل ما نوهنا به للتو بأن وفدا من جماعة «الانقلاب» زار غورباتشوف في منتجعه «فاروس»، وقال له البلد سينهار وعلينا اتخاذ قرارات حاسمة، فقال لهم افعلوا ما تشاؤون، ورفض القدوم إلى موسكو متعللا بأن ظهره يؤلمه.

كيف يمكن أن يفسّر هذا القول ألا يوحي بأنه قد يبارك خطوتهم «افعلوا ما تشاؤون» ، أو أنه قال ذلك لتوريطهم، والتخلص من بقايا رموز المتشددين في السلطة والحزب، وبالتالي تكون حركتهم التي سيتنصل منها مؤشرا لإخافة الجمهوريات باستخدام القوة ودفع الانهيار إلى نهايته المرسومة، هل يعقل هذا؟ بلد عملاق ينهار ويمتنع الرئيس عن القدوم إلى العاصمة من منتجعه لاتخاذ قرارات لها شرعيتها من خلال استفتاء آذار الذي بين أن أكثر من 75% من الشعب مع بقاء الاتحاد السوفييتي رغم امتناع أربع جمهوريات عن الاستفتاء، من أوصل البلد إلى حالة تستدعي أن يجري استفتاء على الحفاظ أو عدم الحفاظ على الدولة؟.

نصف أبطال بسيوف مثلمة

هكذا حقا، يمكن تسمية مجموعة حركة أغسطس -آب، فنظرة متفحصة لقادة لجنة الطوارئ الثمانية توحي بالكثير، ورغم المناصب الطنانة إلا أنهم جميعا كانوا في تلك المرحلة من المغمورين بل يكاد الإعلام يتجاهلهم تقريبا وليس لهم حضور جماهري معقول عدا عن أنهم كانوا من جوقة غورباتشوف أو ظلوا صامتين طويلا إلى أن بلغ السيل الزبى، وهم نصف أبطال لأنهم تحركوا أخيرا في محاولة ما يمكن إنقاذه ولكن كالبطة العرجاء، فغينادي ينايف رغم كونه نائبا للرئيس ليس له أي وزن حقيقي في مجمل المسار قبل ذلك حتى ليستغرب المرء كيف اختير نائبا للرئيس، يذكر أن يديه كانتا ترتجفان وصوته يتهدج إبان المؤتمر الصحفي للإعلان عن الطوارئ، ووزير الدفاع يازوف كان قد غدا مارشالا شكليا مكتبيا عجوزا، وقد كرس غورباتشوف مجموعات مختارة من الضباط لمتابعة المسار الذي بدأه، وكان واضحا أن قطعات الجيش لن تستجيب ليازوف، ورئيس الوزراء بافلوف اقتصادي كان أيضا مهملا إعلاميا إلى حد كبير، فيما كان الإعلام يُبرز شفرنادزة وبعض مسؤولي النسق الثالث والرابع أكثر من تناوله لبافلوف بكثير.

ورغم أن بوغو وزير الداخلية وكريتشكوف رئيس المخابرات كانا فعالين إلا أن مواقفهما المشككة بمجمل المسار ودور ياكوفليف كعميل أمريكي جعلهما مهملين أيضا كون ياكوفليف هو الذي يخوض الحملات الإعلامية، أما بقية أعضاء اللجنة فقد كانوا شكليين تماما بمن فيهم رئيس اتحاد الفلاحين ستارادوبوتسيف، وقد قام بوغو بعد فشل هذا التحرك بالانتحار، ولم يستطع أحد منهم تحريك أية قطعات جدية بل على العكس تم سحب القوات القليلة التي أدخلت إلى موسكو حتى أن بافلوف رئيس الوزراء المشارك في لجنة الطوارئ آنذاك عبر عن استغرابه من إدخال الدبابات إلى موسكو، عن أي انقلاب يمكن الحديث عندما تستمر حرية الحركة والمواصلات والاتصالات ولا يمنع التجوال حتى ليوم أو يومين إلى أن يستتب الأمر «للإنقلابيين»، خاصة أن التلفزيون راح يبث موسيقى بحيرة البجع، فيما أجهزة الإعلام الأخرى تابعت بث النمط الدعائي السابق ولو بتنويع بسيط، وباتت تؤكد منذ اليوم الثاني لما سمي بالانقلاب أنه بإمكان المواطنين التوجه إلى حيث يشاؤون بما في ذلك إلى البيت الأبيض الروسي، وبدأت تنقل صور بدايات التجمع وتحولها إلى حشود، ويكفي كمؤشر أن نذكر أن شفرنادزة وزير الخارجية السوفييتي السابق الملقب بالسيد «نعم» في العلاقة مع الأمريكان قد انضم إلى المنصة أمام التجمع المؤيد ليلتسن وقوبل بالتصفيق.

أين تصرفات الحسم إن كانوا قادة انقلاب فعلا؟ يقال أن يلتسن بعد الإعلان عن استلام لجنة الطوارئ السلطة وإرسال الدبابات إلى موسكو ارتعد خوفا، وفكر باللجوء إلى السفارة الأمريكية خشية أن يتم الانتقام منه لنشاطاته المعادية للحزب «الذي كان هو سكرتير لجنته المركزية»، ولتوقيعه مع رئيس أوكرانيا وبيلاروسيا اتفاقية

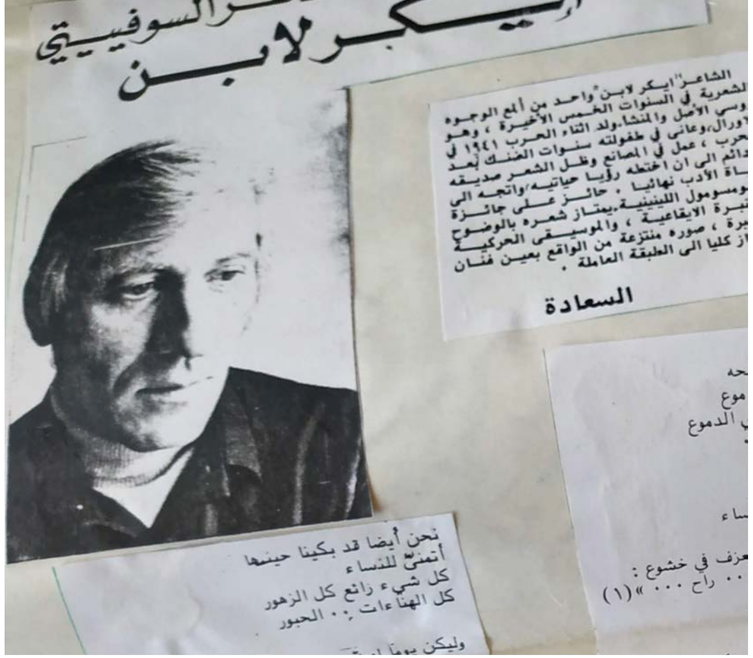

بيلوفيجسكايا بوشا لكن رئيس البرلمان روسلان حزبولاتوف هو الذي نصحه بإصدار بيان يرفض فيه الانقلاب وأن يتوجه إلى الجماهير خاصة أن مجموعة الثمانية لم تقيد حركته ونشاط أنصاره، فتجمع الآلاف قرب البيت الأبيض، وبدأوا بإقامة المتاريس، بل إن تأخر غورباتشوف ترك ليلتسن بكل بساطة أن يحتل منذ الآن دور القائد الأول بعد أن تحدى وقرأ بيانه من على ظهر دبابة، فيما ظل غورباتشوف في منتجعه على البحر لأن ظهره يؤلمه.

ومنذ ذلك اليوم، باتت الجماهير تعتبر يلتسن قائدها وتسخر من غورباتشوف علنا في الشوارع كأضعف زعيم عرفته البلاد، وحين عاد من منتجعه على البحر وقد لوحته الشمس كانت أولى عباراته إثر نزوله من الطائرة «أهم شيء هو أن ما صنعناه منذ عام 1985 قد أعطى ثماره العملية» وبعد يوم واحد أعلن عن استقالته من منصب الأمين العام للحزب الشيوعي، وطالب بحل اللجنة المركزية مما يعطي مؤشرا لنسف الحزب رغم أن عددا كبيرا من الشيوعيين وأعضاء اللجنة المركزية لم يكونوا مؤيدين للانقلاب، وسار يلتسن بنهجه في إنهاء الاتحاد السوفييتي حيث صدر في 21 – 12 – 1991 إعلان ألما آتا عاصمة «كازاخستان» آنذاك عن أهداف ومبادئ الكيان الجديد البديل للاتحاد السوفييتي فيما يسمى رابطة الدول المستقلة من إحدى عشرة دولة من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق الخمسة عشرة باستثناء (دول البلطيق الثلاث وجورجيا).

الفصل الأخير في المسرحية

وهكذا بعد أن تخلص غورباتشوف بالتدريج من القيادات التي استنفرت وبدأت تشكك بمساره قام عمليا بتوقيع استقالته، وألقى خطابا هزيلا وسلم السلطة في 25 ديسمبر 1991 إلى يلتسن الذي أمر بإنزال علم الاتحاد السوفييتي عن قصر الكرملين مساء 26 ديسمبر.

بدأت تتصاعد وتتزايد الحملة الدعائية المذهلة ضد الاتحاد السوفييتي من كل وسائل الإعلام الغربية المرحبة بانهياره، وكذلك في روسيا أو الجمهوريات الأخرى حيث أرهص هذا الانهيار لصعود القوى القومية واليمينية والانفصالية لأنه ترك لها أن تفعل ذلك، ذاك أن هناك سؤالا يطرح نفسه بقوة: هناك أكثر من 75% من المواطنين قد صوتوا لصالح الحفاظ على الاتحاد السوفييتي بل إن التصويت لصالح بقاء الاتحاد السوفييتي في أوكرانيا التي غدت معادية تماما لروسيا فيما بعد كان بحدود ثمانين بالمئة، فلماذا يا سيد غورباتشوف لم تستخدم هذا الواقع الذي يعطيك شرعية جماهيرية عبر الاستفتاء، مثل هذا الموقف يوحي بأنك مع ياكوفليف كنتما مطمئنين بعد الحملات الدعائية الهائلة بأن أغلبية الناس ستصوت ضد بقاء الاتحاد السوفييتي، ولكن عندما صوّت الشعب لصالح بقائه، أهملتموه، لماذا؟

هناك مشهد معبّر له رمزيته وقد سجله العديد من الصحفيين عبر التلفاز كمفارقة توحي بلقطة درامية لمسرحي كبير هو سجل التاريخ، وهي أن غورباتشوف الذي حرص على أن يتم توقيعه على الاستقالة من منصبه كرئيس للاتحاد السوفييتي الذي لم يعد موجودا على الهواء مباشرة ولم يسمح سوى لمراسل قناة CNN الأمريكية ستيف هيرست بالحضور، وحين هم بتوقيع الاستقالة التي تعني عمليا الاستسلام أعرض قلمه عن الكتابة، فسارع المراسل الأمريكي وأعطاه قلمه ليكون من سخرية القدر أن التخطيط لانهيار الاتحاد السوفييتي كان أمريكيا منذ البداية، والتوقيع على دفنه كان بقلم أمريكي. ويقول البعض لعلها مجرد صدفة، ويرى آخرون أنها قد تكون إشارة رمزية متفق عليها مع الأمريكيين بأنه قد نفذ المهمة.

حول عدد الجماهير

سيرجي مافرودي

السؤال الذي يتبادر إلى مخيلة الكثيرين أين الحزبيون الذين يبلغ عددهم عشرين مليونا، لماذا لم نر مظاهرات حاشدة ترفض الانهيار؟ الذي حدث أن قسما كبيرا من الجماهير العريضة باتت ضد غورباتشوف خاصة أنه أهمل تصويتها لصالح بقاء الاتحاد السوفييتي.

ولكن تسارع الأحداث بظهور قائد أقوى من غورباتشوف لم يكن يبشر بأنه سيكون أفضل منه دفع القسم الأكبر مع حالة إحباط شديدة للبقاء في بيوتهم، والذين تجمعوا خلف المتاريس عند البيت الأبيض كانوا بضعة آلاف ازدادوا مع ظهور طابع منظم واضح بما في ذلك توزيع الطعام والشراب، وحتى سترات واقية من الرصاص وخوذ وأقنعة ضد الغازات، بل إن التجمع الكبير لتأييد يلتسن بعد يومين كان ببضعة عشرات من الآلاف يقدرهم البعض بحوالي 50 ألفا، فيما كانت الملايين صامتة ومذهولة ومعتكفة في بيوتها، بل وبدأ قسم منها في البداية يتحول إلى الضفة الأخرى، فاستغل يلتسن الوضع ليَظهر وكأنه بطل جماهيري، وتابع في السعي لنيل رضا الغرب وسحق الشيوعية، فهو باعتراف كورجاكوف رئيس حراسته كان يكره الشيوعية بقوة.

الحقيقة أن غورباتشوف أوصل البلاد ليس فقط عن طريق الحملة الدعائية بل عبر الإجراءات الاقتصادية إلى درجة مأساوية، فإن كان الفساد واستغلال المراكز للمصالح الذاتية أيام بريجينيف في القيادات قد شكل «تقديريا» نسبة عشرين في المئة فإن هذا الفساد مع انعكاسات قاسية على لقمة عيش المواطنين انتشر ليشكل قرابة خمسين بالمئة أيام غورباتشوف، واتسع بشكل هائل ليشكل ثمانين بالمئة تقريبا أيام يلتسن، وفي الحقيقة كانت حتى قبل غورباتشوف زمن بريجينيف قد نشأت بوادر سوق موازية خفية في مختلف المناطق والمؤسسات، وتعتمد بالدرجة الرئيسية على المواد المهربة، أو البضائع الأجنبية التي كان يجلبها معهم المسافرون والطلاب الأجانب، فنشأت تجارة في الظل شكلت بعض الأرباح، وتكاثر الأغنياء الفاسدون وتجارة العملة الصعبة.

ظلت الكثير من المكاسب أساسية لعموم الناس، وإن كانت مثل هذه الأعمال تعتبر جريمة يعاقب عليها القانون في المرحلة السوفييتية فإنها باتت من الأمور المحبذة التي شجعها غورباتشوف وجماعته، وبالتالي ازدهر أولئك الفاسدون الذين كانت ممارساتهم أساسا سببا في الهجوم على الاتحاد السوفييتي، هنا جوهر المسألة، فهؤلاء تحديدا وأنصارهم تابعوا خط الهجوم على الاتحاد السوفييتي مع تحول نوعي، شيء مذهل معظم الفاسدين الذين نشأوا في أحضان مرحلة ما قبل غورباتشوف ساعدوه في تحطيم الاتحاد السوفييتي، وحين استتبت الأمور لهم مع أولئك الذين انتعشوا أيام غورباتشوف انقلبت التوجهات، فلم تعد النغمة السائدة انتقاد الرشاوى والفساد واستغلال المركز بل وبات الإعلام يركز على حرية الإنسان وحرية التعبير وضرورة جعل الغرب نموذجا عبر شعار «التفكير الجديد»، ولكنه بات بأساليب مختلفة وخاصة عبر الحوارات على شاشات التلفاز مع بعض المسؤولين يبرر بل ويمتدح أحيانا النهب والرشاوي والتلاعب من خلال طرح سؤال ماكر خبيث: «من أين سنحصل على الأموال لفتح المشاريع الخاصة، من السماء؟ «.

وبدأ أولئك الفاسدون يصبحون أسياد البلد وأصحاب القرار، نعم هنا جوهر المشكلة الفاسدون والمبتزون والمختلسون لم يحاسَبوا، ولم يضعهم أحد في السجون بل غدوا هم سادة المرحلة،لا شك أنه كان هاك مخلصون وأنقياء كثر لكن التغيير السريع والعنيف جعل قوة ونفوذ شخص واحد من الأغنياء الجدد ذا نفوذ أكثر من عشرة مسؤولين أنقياء،فقد انطلق التيار جارفا في طريقه كل من يحاول أن يرفع صوته، أو يحاول الوقوف في وجه التوجهات الجديدة ، وكان غورباتشوف يكرر عبارته دائما مبتسما مرتاحا لما فعله متأكدا ألا عودة: « العملية انطلقت –«Процесс пошёл وكان الناس يتندرون بغيظ قائلين « نعم ولكن ليس بالاتجاه المطلوب- Да но не туда куда надо»».

كان يمكن حقا ليس القبول بالتغييرات النوعية بل ودعمها حتى في مجال بعض الحريات الاقتصادية لو أنها حاربت الفساد فعلا، ولم تفتح المجال للصوص والمرتشين والمبتزين والمافيات بالسيطرة على كل الموارد بما فيها الثروات الباطنية، فقد سبق للينين أن أقر ما يسمى بمرحلة «السياسة الاقتصادية الجديدة-نيب» ولكن ذلك كان اضطرارا نتيجة ظروف تاريخية صعبة بعد الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية، ومع الحفاظ على البلد ومكاسب الجماهير وليس في خلق ظروف صعبة افتعالا ستكون في النتيجة عمليا لصالح الفاسدين لا لمحاربتهم.

انقلعوا إلى إفريقتيكم

بدأت في مرحلة غورباتشوف تظهر إلى جانب إعادة البناء والعلنية والتفكير الجديد مصطلحات لم تكن شائعة من مثل «أسعار منافسة، التسريع، سعر السوق، المضاربة، حرية الأسعار، و»بريم بريم تشيفي предприимчивый»»» والتي من معانيها الذكي - الماكر المغامر، وصاحب المبادرات، والذي يعرف من أين تؤكل الكتف، وإليكم حادثة ذات دلالة وقعت معنا أنا وصديقي طارق في تلك المرحلة، وهي أبسط حادثة في هذا المجال -حيث بدأت تتنامى الجرائم الكبرى والجريمة المنظمة- لكن هذه الحادثة ذات دلالة كبيرة، فقد بدأ مقتحمو السوق الجدد يتصرفون بحرية مطلقة:

ذات يوم ذهبت إلى سوق المنتجات الخاصة «الرينَك - рынок» مع طارق ومعنا زوجاتنا، وبعد أن تسوقنا بعض اللحم والخضار -وكان الجو حارا- وقفنا على الرصيف أمام مجمع صغير للأكشاك: مشروبات مرطبة، دخان، فطائر، بوظة، بيرة، وقفنا أمام كشكين صغيرين لبيع المشروبات المرطبة والبيرة، ففي هذه الساحة الصغيرة ثلاثة أجهزة أوتوماتيكية للمشروبات الباردة وضعتهما الدولة منذ سنوات عديدة ويستطيع المواطن بكوبيكات قليلة شرب كأس منعش من البيرة أو الطرخون أو الكفاس [15] زهيدة جدا، لكنها جميعها كانت معطلة بقدرة قادر.

أردنا شراء زجاجتي بيرة، و «نقرشة» كيسين صغيرين من البطاطا المقلية – الشبس، ولزوجتينا زجاجتي شراب الطرخون والكفاس، فقال صاحب الكشك حسنا قفوا على الطاولة الثالثة، وبعد دقائق أحضر الزجاجات وفتحها ومسح بخرقة وسخة الطاولة بحركة واحدة ورمى على الأرض بعض قشور الفستق والأوراق التي كانت عليها، استغرق ذلك حوالي عشرين ثانية لا غير وعاد إلى الكشك ليتابع زبائنه، وكان على جبينه آثار جرح كبير، بعد حين جاء ليحاسب الشباب السمر الذين كانوا حول طاولة قريبة منا، علا صوته وبات يشتم الشباب السمر الذين يرجح أنهم طلبة أجانب، وتبين أن الموضوع يتعلق بالمبلغ الذي طلبه منهم، فقد كان ثمن زجاجة البيرة نصف ليتر في المتاجر الحكومية العامة 37 كوبيكا، (الروبل 100 كوبيك)، ومن الجهاز الأوتوماتكي 20 كوبيكا، وكيس البطاطا المقلية حوالي 15 كوبيكا، و ويبدو أن الشباب طلبوا أيضا بضعة أفراخ صغيرة من سمك «الفوبله» المقدد وسعر السمكة الصغيرة لا يتجاوز 20 إلى 30 كوبيكا، وكان كل شاب كما يبدو يقدِّر أنه سيدفع قرابة روبل ونصف أو روبلين أي قرابة ستة أو سبعة روبلات كحد أعلى لثلاثتهم، لكن صاحب الكشك طلب منهم عشرين روبلا فاحتجوا وذكروه أنهم يشترون زجاجة البيرة بحوالي أربعين كوبيكا دائما عندها سمعنا كلمة «بريدبريمتشفي لأول مرة» حيث صاح

فيهم أنا الآن بريدبريمتشيفي أطلب من الزبائن ما يناسبني، لم يجبركم أحد على شرب البيرة عندي، فقال له أحدهم وماذا قدمت من الخدمات لنا نحن في الشارع ولسنا في مطعم، الرصيف للدولة، والطاولات للدولة»، والجهاز حيث البيرة بعشرين كوبيكا معطل «قالها بما يعني أنك وراء تعطيله- وأنا وطارق لا نشك في ذلك-» فأجاب لقد مسحت الطاولة وفتحت الزجاجات لكم.

وسرعان ما تقدم رجلان رياضيان ضخمان وراحا يشدان الشباب من قمصانهم بعنف، وهدداهم بأنهم إن لم يدفعوا كما يطلب منهم صاحب الكشك فسينالون عقابهم، حتى تمزق قميص أحدهم قليلا..دفع الشباب آخر ما كان لديهم على الأرجح وغادروا وصاح «البريدبريمتشفي» وراءهم «انقلعوا إلى إفريقيتكم نحن اليوم أسياد في بلدنا!!!- Катитесь в свою Африку, сегодня мы хозяева своей страны»، قال طارق أسمعت فلندفع كما يطلبون وإلا سيكون علينا أن ننقلع إلى إفريقيتنا، قلت له ألم تلاحظ أن صاحب الكشك يشبه إلى حد كبير شارك بطل «القلب الكلبي» [16]، قال بالفعل حتى بهذا الجرح في جبينه، لعله يقول لخطيبته أن الجرح ليس نتيجة تصفية حسابات المجرمين بل نتيجة معارك بطولية عندما كان في الخدمة العسكرية، فقلت له نعم ولكنه ليس شيوعيا، والذين يدعمونه هم مجرمون يدفع أصحاب الأكشاك لهم أجرهم لترهيب من يحتج على الأسعار المضاعفة، وليسوا من لجنة البناء أصحاب شفوندر الشيوعيين في رواية القلب الكلبي، والواضح أيضا أن للشرطة حصتها، إذ لم يقترب أي من رجال الشرطة الذين يجوبون هذه الأمكنة عادة.

هؤلاء الناس هم الذين سيغدون قريبا أصحاب القرار، فقد تكرس تدمير الاتحاد السوفييتي نهائيا أيام يلتسن، كما انتشر جامعو الأموال بكثرة منذ أواخر عهد غورباتشوف وقام بعضهم بتأسيس شركات مالية عملاقة أخذت من ملايين الناس مدخراتهم البسيطة، وغدا أحد أكبر رموزها «سيرغي مفرودي»[17] نائبا في البرلمان وحتى مرشحا للرئاسة فيما بعد أيام يلتسن، أليست مفارقة في أن الذين هاجموا الفساد أيام الاتحاد السوفييتي هم من أخطر الفاسدين الذين استولوا على ثروات ومقادير البلاد، طبعا بدعم كبير من أجهزة الإعلام الغورباتشوفية والغربية.

غورباتشوف اليوم أثناء إعدادي هذا المؤلف ما زال على قيد الحياة، لكنه في أرذل العمر، انتفخ جسده كثيرا نتيجة تناول الأدوية على الأرجح ، وبات لا يستطيع التحرك إلا بصعوبة وعلى الكرسي النقال، ويعيش في بيت في ضواحي موسكو له سور عال محاط بالأسلاك الشائكة، وكانت بعض الجامعات والمؤسسات الغربية والأمريكية تدعوه بين حين وآخر ليقدم بعض المحاضرات «عن تجربته» ويحصل على مساعدات مالية هي الواقع الهدف من دعوته فقد غدا

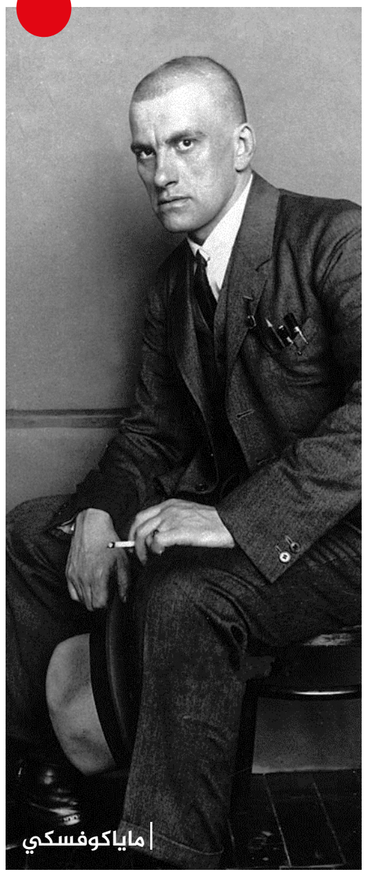
مایاکوفسکي

حتى بالنسبة للغرب غير ضروري كزجاجة البيبسي البلاستيكية الفارغة يمكن أن ترمى في سلة المهملات، أو أن تستخدم لوضع بعض السوائل فيها كالكيروسين مثلا، ولم يعد أحد يزوره حتى من أقاربه، وأنا في الحقيقة أعتقد مع ذلك أن على الغرب أن يشيد له تمثالا، وأن يطلق اسمه على بعض شوارع عواصمه.

المصادر:

[1]إيغر ليابن من الشعراء المشهورين الذين تم التعتيم عليهم كونه معارضا لمرحلة البرويسترويكا وقد تحالف معه عدد كبير من الأدباء واختاروه سكرتيرا لتجمع اتحاد الكتاب الروس الوطنين وقد توفت زوجته في حادث حريق منزلي مؤسف ولم يستطع العيش بدونها فمات كمدا بعد حين وقد ترجمت مجموعة من أشعاره في (أنطولوجيا الشعر السوفييتي) صورة لبابن

[2]إيغور إيسايف شاعر بوئيمات بالدرجة الرئيسية كان سكرتيرا أول لاتحاد الكتاب السوفييت وله مؤلفات عديدة(صورة ايسايف)

[3]أناتولي سافرونوف 1990-1911 شاعر وكاتب اجتماعي سياسي رئيس تحرير مجلة أغانيوك الشهيرة ورئيس اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا (صورة سافرونوف)

[4]صورة غلاف مجموعة صوت الحياة بالروسية عن دار البرافدا

[5]صور لبعض الصحف التي نشرت قصائدي ومقالات عني أو لقاءات معي بالروسية واللغات السوفييتية

[6]أذكر ذلك لأن بعض الأصدقاء يعتبر مواقفي هذه ساذجة ذات طابع غيري شبه مسيحي، ولكي أردت بذلك أن أشير إلى أن تربيتنا كانت مختلفة في وقت يسعى معظم الناس فيه للحصول على المكاسب، ورغم احترامي لظاهرة تكريم المبدعين- فأنا مقتنع أن حب الناس للمبدع هي جائزته الأولى والأهم

[7]يوري أندروبوف 1984-1914 رئيس التحاد السوفييتي لفترة وجيزة تعتبر مرحلة النهضة والنقاء صورة اندروبوف

[8]غورباتشوف آخر زعيم سوفييتي تولد 1931... غدا زعيما للحزب الشيوعي «وهو ضد الشيوعية» من عام 1985 وحتى 1991 وغدا رئيسا للدلولة منذ عام 1988 إلى 1991 حيث استقال تاركا السلطة لألد أعداء الشيوعيين الموالين للغرب علنا! (صورة غورباتشوف)

[9]للتوسع – اندبندنت سامي عمارة غورباتشوف ...أضواء الخارج تلهي عن شرك «رفاق الداخل

[10]فالانتين راسبوتين 2015-1937 كاتب روائي وقاص روسي شهير بما في ذلك في الأعمال الخيالية – صورة راسبوتين

[11]رواية الحريق- فالانتين راسبوتين صفحة 17 دار رادوغا

[12]كان وزير الخارجية السوفييتي غروميكو يُعرف في الغرب باسم السيد لا، وحين صار شفرنادة وزيرا للخارجية بات يعرف باسم السيد نعم

[13]لم يعد لحلف وارسو وجود بينما استمر الناتو وتوسع حتى على حساب الدول التي كانت في وارسو بما في ذلك بولونيا التي سمي الحلف باسم عاصمتها

[14]روسيا اليوم 15 عاما على انسحاب القوات السوفييتية من ألمانيا- 31-08-2009

[15]الكفاس مشروب يصنع من الخبز الأسود المخمر وهو بلون غامق يذكرك بالعرقسوس

[16]الكلب شارك الذي تحول إلى إنسان نتيجة عملية جراحية في الرأس لزرع الغدة النخامية البشرية، يقول الرواية لمن يريد أن تعيش معه حين سألته عن الجرح في رأسه أن الجرح نتيجة إصابته اثناء المعارك البطولية التي خاضها ضد الأعداء

[17]سيرغي مفرودي 1955 قد يكون واحدا من أكبر المحتالين في التاريخ وضحاياه تعد بعشرات الملايين (صورة مافرودي)

قادة الحزب الشيوعي هم الذين قضوا عليه
وعلى الاتحاد السوفييتي

ЕЛЬЦИН ЦЕНТР

بوريس يلتسن

تم تدمير الاتحاد السوفييتي،وإلغاؤه حتى ككيان قانوني في 26 كانون أول ديسمبر 1991 بموجب القرار «رقم ن-142» من مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي، بمعنى أنه أنهى نفسه بنفسه، فقد تم وفق هذا القرار الاعتراف رسميا باستقلال الجمهوريات السوفييتية السابقة (عن ماذا؟) عن الاتحاد السوفييتي الذي يتألف من هذه الجمهوريات، فقد شعر معظم النواب أنها قد تكون الطريقة المثلى للتخلص من غورباتشوف، وأنه يمكن إنقاذ التآلف بين الجمهوريات على الأقل في تشكيل كيان آخر بعد أن سئموا من ضعف القائد وتردده، وسعيه الدائم لإرضاء الغرب.

ويبدو للمتفكرين أنّ الأمر متقن في تسلسله، «بغض النظر عن الخلاف بين غورباتشوف ويلتسن» فقد قدم الرئيس غورباتشوف استقالته قبل يوم واحد من قرار إنهاء الاتحاد السوفييتي، وكأنه في سباق تتابع حيث يسلم المتسابق راية صغيرة للمتسابق التالي ليتابع بها حتى النهاية، قلت لصديقي طارق:ربما كان غورباتشوف صادقا في نواياه وإلا لماذا يظهر نفسه وكأنه زعلان و»حردان»، فأجاب طارق: الطريق إلى جهنم مفروشة بالنوايا الطيبة، ولكني أرجح أنه يمثل،فهذه اللحظات المصيرية بالنسبة للعالم كله هو الذي أرهص لها،إنه لم يستخدم حتى نتائج الاستفتاء الذي دعا إليه في آذار 1991 خاصة أن أكثر من خمسة وسبعين بالمئة من مواطني الاتحاد السوفييتي صوتوا لصالح الحفاظ عليه واستمراره، لكنه سبق أن أعلن على الملأ أنه لن يتدخل ولن يوقف انسحاب الجمهوريات من الاتحاد السوفييتي! ولم يكن صدفة أن علم الاتحاد السوفييتي انزل من على سارية الكرملين في السابعة والنصف مساء ذاك اليوم بالذات بُعيد مغادرة غورباتشوف للقصر معتبرا أن مهمته انتهتوأنجز دوره، وسلّم مهمة متابعة إطلاق رصاصة الرحمة وتوابعها للرئيس بوريس يلتسن، فهناك مهمة استكمال تفكيك مجمل مؤسسات المنظومة الاشتراكيةالمنهارة،وإتمام انسحاب القوات «السوفييتية» وتسليم بُنى حلف وارسو التحتية «إلى المنتصرين».

شخصية يلتسن غير المتوازنة واحتمالات تأثير المشاعر الدفينة

لماذا تصرف يلتسن بحقد تجاه المؤسسة التي صعد فيها إلى أن غدا عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، المنظمة التي ساهمت عمليا في وضعه على طريق أوصله فيما بعد للرئاسة، ربما صحت لديه ذكريات قديمة غاضبة، أو أن هناك من أيقظها، فقد كان جده وهو من ملاكي الأراضي ثريا نسبيا، وقد نفي إلى منطقة الأورال عام 1930 وحرم من حقوقه المدنية، كما اعتقل والده نيكولاي مع شقيقه أندريان عام 1934 بتهمة معاداة السوفييت،وبقيا ثلاث سنوات في معسكرات الاعتقال والعمل الاجباري، وظل الأمر مجهولا بالنسبة له، فقد كان يلتسن آنذاك يحبو، وقد تكون مثل هذه المعطيات غير واضحة له بعد ذلك إذ سعت الأسرة إلى تجاهل مثل هذه المعلومات أو تناسيها،إلى أن أطلعته المخابرات عليها من أرشيفها عام 1992.

ولكن لشخصية يلتسن خصائصها الغريبة أيضا فقد كان منذ الطفولة يحب أن يكون متفوقا حتى في معارك الأزقة مع أقرانه، وكذلك في الرياضة كالمصارعة والملاكمة وبشكل خاص في الكرة الطائرة، حب التفوق وأن يكون في المقدمة وبعض الإشكالات الخلقية كل ذلك أثر في تكوينه، فقد قُطع اصبعان في يده اليسرى نتيجة عبثه بقنبلة أثناء الطفولة بتصرف أهوج بعد أن سرقها من مستودع الكنيسة، إذ راح يضرب بالمطرقة على تلك القنبلة مما تسبب بانفجارها وفقدان أصبعيه ما قد يشير إلى طابعه العجول و الارتجالي [1].

وربما لعبت فيما بعد مفارقة طبيعة حياته الريفية وانتقاله كمسؤول إلى موسكو دورا أيضا مما عمق من الحالات الارتجالية إبان التعامل مع الانتلجنسيا الروسية، والنخبة السياسية العليا ناهيك عن أنه كان عمليا تحت تأثير بطانة ذكية محنكة، وخاصة كونه مدمنا على الكحول مما يفقده السيطرة على نفسه أحيانا،وتنتشر بقوة عن يلتسن أحاديث وأخبار شبه موثقة حتى في الصحافة عن الحوادث غير عادية من ذلك أنه في زيارته الأولى إلى الولايات المتحدة بعد أن نزل على سلم الطائرة لم يتوجه إلى مستقبليه بل إلى عجلة الطائرة وتبول هناك ثم صافح مستقبليه دون أن يغسل يديه.

وهناك إشارة إلى أن الصحافة الأمريكية تحدثت عن ذلك، ويقال أنه لدى زيارته لقرقيزيا عام 1992، راح -في سهرة عشاء كما يبدو- يطرق بالملاعق على رأس الرئيس القرقيزي عسكر أكايف، ويذكر رئيس حراسته كورجاكوفغي كتابه أن «بوريسيلتسن من الإشراق إلى الغروب» حوادث كثيرة عن انتشار الرشاوى والتلاعب المالي والاختلاس بملايين الدولارات وعن سيطرة المتنفذين من أصحاب

بوريس يلتسن

المال، وصراعات الحاشية، وكذلك عن مواقف وتصرفات غريبة للرئيس يلتسن من ذلك أنه شرب كثيرا أثناء العودة من الولايات المتحدة مرورا بإيرلاندا حيث كان من المفترض أن يلتقي برئيس وزرائها لكنه لم يكن قادرا حتى على الوقوف مما دفع برئيس حراسته إلى الحيلولة دون نزوله، وأرسل نائب رئيس الحكومة آنذاك شوشكوفيتس بديلا عنه، والمثير أنه راح يكذب بكل بساطة على الصحفيين مدعيا أنه كان مرهقا فغطَّ في نوم عميق.

ومن المفارقات التي اعتبرها الشارع الروسي تدل على الشعور بالدونية أمام الأمريكان أنه بعد توقيع اتفاقية بيلافيجسكايا بوشا مع الرئيسين البيلاروسي والأوكراني التي تمهد لتفتيت الاتحاد السوفييتي كان أول ما فعله هو أن اتصل بالرئيس كلينتون ليبشره بهذا الحدث قبل حتى أن يطلع الرئيس السوفيتي غورباتشوف بذلك.

مسار التدمير

تابع يلتسن ما بدأه غورباتشوف وبحماس أكبر اقتصاديا وسياسيا لاستكمال الإجهاض على الاتحاد السوفييتي، فلنتذكر أن غورباتشوف وصل إلى السلطة في آذار 1985 وسارع إلى إجراء تعيينات من المقربين والمؤيدين لمساره في المناصب الحساسة، وتابع تصفية القادة الشيوعيين بحجة أنهم كبار في السن، وقبل نهاية عام 1985 استدعى غورباتشوف نفسه بوريس يلتسين إلى موسكو وعينه سكرتيرا أول للحزب الشيوعي فيها، أي أنه جاء به إلى هذا المسار بعد أشهر فقط من تسلمه السلطة، وفتح له باب الصعود في المناصب ثم أصبح يلتسن خصمه فيما بعد طمعا في أن يحتل دور الشخصية الأولى.

استغل الراغبون في الانفصال عن الاتحاد السوفييتي أطروحات غورباتشوف حول تكريس العلنية التي تحولت إلى سيول هادرة معظمها غير دقيق، أو مبالغ به جدا ضد الاتحاد السوفييتي بحجة ضرورة قول الحقيقة، وشعار إعادة البناء الذي تحول إلى تدمير للنظم الاقتصادية قبل تكريس بديل ناضج.

بدأ هذا المسار باستخدام منطلق الدعايات ضد الاتحاد السوفييتي بقوة وتشجيع الاستقلال عن المركز، أول من تحمس لهذا الأمر دول البلطيق التي شكلت جبهة مناهضة للمركز منذ يوليو تموز 1986 استنادا لاتفاقيات حقوق الإنسان في هلسينكي، وبدأت المجاهرة بالعداء للشيوعية،با قي الجمهوريات بنسب متفاوتة، واستخدمت في البداية خطابات وتصريحات غورباتشوف في كثير من الأحيان أساسا لهذه التحركات، وأذكر جيدا أن بعض المظاهرات في أرمينيا وجورجيا التي كانت مناهضة للشيوعية والسوفييت وتلوح بالانفصال باسم الحرية كانت ترفع شعارات غورباتشوف وحتى صوره في البداية، ثم تحولت إلى صدامات مع الشرطة.

لقد أطلقوا عفريت الحس القومي من قمقمه ليغدو حافزا لكل أنواع التنكيل بالقوميات الأخرى، ووصل الأمر في دول البلطيق إلى المطالبة الصريحة بالانفصال بوقت مبكر، وحتى نهاية الثمانينات بات يلتسن الذي قويت مواقعه وبدا له أن وجود الاتحاد السوفييتي ليس في صالحه كرئيس لروسيا حيث سيكون بالضرورة تابعا لرئيس الاتحاد السوفييتي الأكبر خاصة أن مقر القيادتين في موسكو عاصمة روسيا، وفي الوقت نفسه عاصمة الاتحاد السوفييتي، فراح يشجع علنا انفصال الجمهوريات ومن عباراته الشهيرة في هذا المجال موجها كلامه للجمهوريات السوفيتية وحتى ذات الحكم الذاتي داخل روسيا 1990: «خذوا أكبر قدر من السيادة التي تستطيعون هضمها» حيث كان في زيارة لتاتارستان التي أعلنت استقلالها بعد إعلان استقلال روسيا رغم أنها ليست جمهورية سوفيتية بل هي جمهورية ذات حكم ذاتي وسط روسيا تماما [2] وفي روسيا آنذاك أكثر من ثمانين كيانا ذا حكم ذاتي لذا يمكن أن نتخيل ماذا يمكن أن يحدث إن انتقلت العدوى إلى باقي الكيانات.

خطوات جامحة غير مدروسة

لنفصل قليلا في ما أشرنا إليه سابقا بشكل عرضي إذ لميكنغريبا بعد ذلك أن يكون حظر نشاط الحزب الشيوعي من قرارات يلتسن الأولى بعد أن غدا رئيسا لروسيا الاتحادية ، والتبريرات التي تقول أن ذلك كان نتيجة تأييد الحزب للجنة الطوارئ «الانقلاب» غير صحيحة من حيث الجوهر، فقد كنت أنا والصديقين المبدأيين طارق معصراني وأبو ليلى العراقي– رشيد رشدي نتابع الأحداث، ونتناقش حولها بشكل شبه يومي، ناهيك عن وجود وثائق لها تاريخها، فقد جاءني طارق وأبو ليلى ربما في الرابع أو الخامس والعشرين من شهر يوليو تموز عام 1991 وكان القلق باديا عليهما، وأول سؤال ما بادرني به هو: « هل سمعت

بالخبر» فقلت نعم لقد وقع يلتسن قرارا بحظر نشاطات الحزب في جميع مؤسسات الدولة «.

وهذا يعني إلغاء الهياكل التنظيمية الحزبية العليا في الحكومة، ومجلس السوفييت ونواب الشعب، وحتى في الجيش والقوى الأمنية، فقال أبو ليلى: أي أنه انقلاب حقيقي على كل البنى التنظيمية القائمة حتى ذلك التاريخ، كيف يمكن له أن يتخذ قرارا كهذا؟ فقلت له للأسف لديه مبرر دستوري أعطاه إياه غورباتشوف بإلغاء المادة السادسة من الدستور.

هنا يكمن السؤال والذي توحي الإجابة عنه بأن هناك أدوارا تمهيدية موزعة يتبعها قرارات تنفيذية، فقرار غورباتشوف بإلغاء المادة السادسة والتي كانت تعتبر الحزب الشيوعي قائدا للمجتمع والدولة يعني أنه فتح الباب عمليا على مصراعيه ليس فقط لانهيار الاتحاد السوفييتي بتفكيك هياكله العليا قبل إيجاد بديل عملي لها، بل وكرس خطوة تمهيدية لنسف الحزب الشيوعي بهياكله العليا والوسطى والدنيا. نعم أيّد الحزب لجنة الطوارئ، ولكن جاء ذلك بعد قرار يلتسن بمنع نشاطات الحزب في كل هياكل الدولة بقرابة شهر لأن الحزب اعتبر تحرك لجنة الطوارئ إنقاذا له من قرار الحظر، لكن يلتسن وغورباتشوف اعتبراها عملا انقلابيا، قال طارق: «المسرحية كانت واضحة»، وكلعبة شطرنج أصدر يلتسن بالتالي في اليوم التالي لفشل «الانقلاب «أي في 23 أغسطس مرسوما بتكريس حظر الحزب وحتى بمصادرة أملاكه في 25 أغسطس وتم تثبيت ذلك في نوفمبر [3].

الإعلام كان الأقوى

قصف البرلمان الروسي سنة 1993

لعب الإعلام السوفييتي ثم الروسي وبشكل خاص الغربي أكبر وأهم دور في تدمير التجربة بأسرها، وقد استند بالطبع إلى العديد من الأخطاء، ولكنه ضخمها بشكل هائل، واستخدم التعميم على مبدأ عجيب: «لص في جماعة يعني أن الجماعة كلها من الصوص»، وقد استمر هذا النخر طويلا، وأثر على عامة الشعب، وحتى على قسم كبير من الشيوعيين أنفسهم، الإعلام وخاصة التلفزيوني الموجود في كل بيت معظم ساعات النهار والليل كان يلقي دروسه المعادية للشيوعية والمرحلة

السوفييتية بشكل يومي، ويكرر ما يقوله أعضاء تنظيم هيلسينكي المعادي علنا للاتحاد السوفييتي بدعم غربي عارم، إلى أن حدثت قطيعة إلى حد كبير بين الشعب ومفهوم السلطة السوفييتية والحزب الحاكم، وللمقارنة فلنتذكر كيف التف الشعب حول قيادته وحول الحزب حين هاجمت القوى العظمى روسيا، ولم تتمكن من قهرها عندها جاءت كلمات الجنرال البريطاني نوكس: « ربما كان بالإمكان القضاء على الجيش الأحمر الذي كان تعداده مليون عسكري، ولكن حين يقف إلى جانبه مئة وخمسون مليونا من الروس فإن مساعدة أعدائهم تبقى بلا جدوى»[4].

هنا لا بد من رفع صوتنا ليغدو هتافا لأنه الجوهر» أيها المسؤولون السلطويون الفاسدون، أنتم وأخطر من العملاء والأعداء، فبسبب فسادكم وتفضيلكم مصالحكم يعاني الملايين من الأبرياء.

لابد من التنويه بأنني زرت معظم جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، والتقيت بأدبائها وشعرائها ورؤساء اتحادات الكتاب هناك، ولهذا ظهرت لدي مفارقة كبرى بين ما وصلني من آراء وانطباعات وما جرى لاحقا، فقد كان الجميع يتحدثون معي بحماس عن أهمية البيت السوفييتي، وتكريس عالم أفضل، وعن عدالة الاشتراكية، وإنسانية الأممية بما في ذلك في الجمهوريات التي غدت أكثر تشنجا ومعاداة للاتحاد السوفييتي،كأوكرانيا ذاتها حيث كان لقائي مع كبار أدبائها ملفتا للنظر من خلال انطلاق حديثهم من معطيات علم الجمال الماركسي، والصراع الطبقي والانتصار الأممي[5].

كان ذلك قبل ثلاث سنوات وحسب من انهيار الاتحاد السوفييتي الذي ساهمت به أوكرانيا مساهمة كبيرة فعن أي واقع كان يتحدث هؤلاء الأدباء، هل أشكك بكل ما شاهدته وأحسست به واقعا، ترى هل ساهمتُ دون أن أدري -وخاصة إبان نشري لهذه الحوارات والريبورتاجات في الصحافة- بتقديم صورة غير حقيقية عن الواقع؟ في البداية تحرك الشارع «القومي بحس شوفيني» في أعظم بلد أممي وبدأت عمليات الاعتداء على المواطنين من القوميات الأخرى وخاصة الروس كما ذكرنا سابقا، كان هناك صخب ومظاهرات يومية صراخ وضجيج وتهديد ووعيد، وقيادة الحزب وكأنها أصبحت من الطرشان، بات الأمر أشبه ما يكون باندلاع حريق في بلدة بيوتها متجاورة ومتلاصقة وهي من خشب، بعد أن أيقظ غورباتشوف ويلتسن أسوأ ما في الإنسان من مشاعر الحقد والفوضى بغطاء شعارات الحرية والصراحة.

لكن الأمر تغير نسبيا عندما طالت الاتهامات والتشويهات قدس الأقداس بالنسبة للشعوب السوفييتية والشعب الروسي بشكل خاص، فبدأت صحوة نسبية، وبدأ الناس يسترجعون ذكرياتهم ومعطيات حرب عظمى لا تزال جراحها ساخنة حيث دمرت الحرب في الاتحاد السوفييتي 1700 مدينة وبلدة كبيرة و70000 قرية وبلدة متوسطة و31850

مؤسسة صناعية، و40000 مشفى و89000 مزرعة تعاونية جماعية هذا عدا عن عشرات الملايين من الضحايا والمشوهين والمشردين.

وتذكر الناس أيضا أن الاتحاد السوفييتي نهض من جديد بعد الحرب رغم كل هذه الخسائر، وبدأ ينافس حتى في غزو الفضاء بعد سنوات قليلة، بل وراح يقدم المساعدات إلى الشعوب المقهورة، فيما تقوم الامبريالية بنهب ثروات الشعوب التي تسيطر عليها، وتقدم الفتات في إطار مساعدات يُبالِغ بدورها الإعلام الغربي وحتى الإعلام السوفييتي والروسي إبان غورباتشوف ويلتسن، ورغم أن الشارع بدأ يعبر عن امتعاضه الشديد إلا أن الإعلام كان أقوى، واستطاع بالفعل أن يشد عددا غير قليل من الناس نحو رفض كل ما كان وحتى التظاهر ضد الاتحاد السوفييتي.

ومع ذلك أشعلت هذه اليقظة الشارع ولو بعد حين ضد سلطة يلتسن الذي كان يظهر أحيانا في البرلمان وهو في حالة سكر شديد، وكنت قد التقيت في حوار صحفي مع رسول حسبولاتوف رئيس مجلس السوفييت الأعلى[6]، وهو إنسان مثقف ومتحدث لبق ودكتور في الاقتصاد، وكان واضحا أنه صادق في تمثله لقناعاته ويعرف ما يقول التقيت به قبيل تمرده مع الجنرال روتسكوي- نائب الرئيس على يلتسن، فنقل لي أنهم كانوا مخدوعين، وأن يلتسن «زومبي»وسكير، وليس لديه أي برنامج حقيقي لإنقاذ البلد، وأن جماعته يمضون بخطوات حثيثة نحو الغرب لا للتعاون بل الاستسلام والتبعية، وباتوا يسرقون كل ما أنجزه الاتحاد السوفييتي بعرق شعوبه.

كنت آنذاك صحفيا معتمدا، ولدي بطاقة تخولني متابعة الأحداث عن قرب، والحقيقة أن آلاف المواطنين البسطاء بعد المظاهرات العارمة التي طافت شوارع موسكو وأسفرت عنصدامات مؤسفة مع قوات الأمن، توجهوا إلى البرلمان الذي كان ملاذهم الأخيروراحوا يقيمون المتاريس لمواجهة قوات يلتسن تماما كما فعل أنصار يلتسن في نفس المكان قبل سنتين، لكن الشيوعيين لم يقصفوهم آنذاك، وانقسم المجتمع شاقوليا بقيادات وقاعدة شعبية لدى الطرفين، حيث تشكلت جبهة وليدة، ولكنها هشة بعد ما أحدثه غورباتشوف ويلتسنمن تغيير جذري في مراكز القوى ناهيك عن الحملات الإعلامية التي أثرت في ذهنية الناس وبنية المجتمع، شيء مريع حقا، فأنالا أعرف قيادات في أية دولة في العالم تسخِّر كل منابرهالشتم البلد الذي تنتمي إليه وتقوده، وفي الوقت ذاته تصوره كورم سرطاني يجب استئصاله.

كان جل هذا التحرك الجماهيري العفوي من الشيوعيين والوطنيين الروس وأنصارهم الذين أحسوا بخطر جبهة الأليغارشيين الذين كانوا قد بدأوا بتقاسم ثروات البلاد، وأصبحوا مسيطرين على الاقتصاد والجيش والأجهزة الأمنية، وعمَّق من هشاشة هذه الجبهة المنتفضة شبه اليسارية أن قيادتها أساسا كانت من فريق يلتسن، وقد ناصروه عندما وقف في هذا المكان تحديدا ضد من حاولوا إنقاذ الاتحاد السوفييتي، وسموهم قبل سنتين بالانقلابيين، لكن أنصار الأمس خصومه اليوم اختلفوا مع نظام يلتسين على بعض جوانب النهج الاقتصادي، وعلى حماس فريقه الشديد للغرب، وقد أصدر يلتسن قرارا بحل البرلمان لكن المحكمة الدستورية العليا اعتبرته قرارا غير قانوني [7]، قابله البرلمان بقرار عزل يلتسن من منصبه وتسمية روتسكوي قائما بأعمال الرئيس، ولم يكن أحد يتوقع أو يُقدِّر كيف ستحل هذه المعضلة، كان الناس حول البرلمان بالفعل أشبه ما يكونون برؤوس أعواد الثقاب قابلين للاشتعال في أية لحظة، ومستعدين للتضحية التي كانت للأسف عبثية غير مجدية.

الجنرال روتسكوي ابان اعتقاله

وقد تم قطع الكهرباء والماء عن مبنى البرلمان بعد أن قام المتظاهرون باقتحام مبنى عمادة العاصمة القريب من البرلمان،وكنتُ متابعا للجموع في المكان نفسه الذي خطب فيه الجنرال روتسكوي من مبنى البرلمان مطالبا الشباب باقتحام ما أسماه عمادة موسكو المجرمة، حيث كان لوجكوف عمدة موسكو نصيرا ليلتسن وكان مبنى عمادة العاصمة قريبا من البرلمان[8]، وقد تم اقتحام مبنى العمادة وإنزال العلم الروسي،وأعيد رفع العلم السوفييتي فوق المبنى ولو لحين ما يوضح توجهات هذه الجماهير.

يلتسن يقصف البرلمان ويعود للشرب

لقد كنت شاهدا على قصف البرلمان الروسي، وقد دخلت إليه قبل القصف ربما بيوم واحد أو يومين، والتقيت بالجنرال البيرت ماكاشوف [9] الذي قاد قبيل ذلك محاولة فاشلة لاقتحام مبنى التلفزيون، لكنه اعتذر عن تقديم حديث صحفي واختصر الحديث معي بكلمات واضحة: « سنقاوم،ولن نستسلم، عذرا، علينا أن نستعد لما هو أخطر.»

غادرنا مبنى البرلمان حيث كان معي في اللقاء بعض الصحفيين أيضا، كان الحدث هائلا ومرعبا ومؤلما، شاهدت الناس البسطاء وقد دخلوا إلى حرم البرلمان، ورفعوا قسما من الحواجز وانتشر الرجال الذين يحملون سلاحا

فرديا أو بنادق كلاشينكوف على النوافذ وكانوا قلة، ومن الواضح أن أسلحتهم قليلة لا تجدي حتما في أية مواجهة كانوا يعتمدون على تمرد بعض قطع الجيش والانضمام إليهم، أو أن يتم زحف جماهري هائل يحول دون المجزرة، لكن ذلك لم يحدث،فغالبية الشعب لم تعد تثق بأحد بعد إهمال نتائج الاستفتاء ، وانسحبت كتيبة حراسة البرلمان أمام عيني بشكل منتظم وبخطى سريعة، فأدركت أن قائدها قد أبلغ بقرب ساعة الصفر وقرر الانسحاب. كنت أمضي فوق الجسر القريب دامع العينين وأنا أرى الشباب الذين ينطلقون إلى مبنى البيت الأبيض ثم يقفون وراء المتاريس وكأنهم أجساد هلامية، كانت وجوههم صفراء كما لو عبر الضباب، وكأنها تنظر إلي من عالم الأموات الذي سيلجونه قريبا، ولا أدري كيف ألحت عليَّ بضعة أشطر من قصيدة ت اس إليوت «مدينة الوهم» التي كانت من القصائد الأثيرة التي قرأت ترجمتها قبل سنين عديدة:

”
تحت الضباب ذي اللون الأسمر في فجر شتائي

تدفق جمهور غفير ينساب فوق جسر لندن

ما كنت أحسب أن الموت قد طوى مثل هذه الجموع

لم تخرج مئات الألوف بل والملايين للدفاع عن الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي رغم الحزن والوجوم ، إذ يمكن أن أشبه الاوليغارشيين بكمية من الدود الوحشي كبرت في بطن الاتحاد السوفييتي برعاية من بعض مسؤوليه الحزبيين الكبار إلى أن فجرت بطنه وراحت تلتهمه، وقد عرف عن يلتسن أنه سكير مدمن، وحسب الإعلامي العراقي د.سلام مسافر كان تشوبايس النائب الأول لرئيس الوزراء -وهو لا يخفي توجهاته اليمينية الغربية- يحمل أضابير المراسيم إلى يلتسن حين يكون مستلقيا مخمورا فيوقعها دون أن يقرأها، حيث وقع في فترة تعطيل البرلمان خلال حوالي أسبوعين قرابة 1200 مرسوم لخصخصة مصانع ومؤسسات الدولة [10].

ويلفت النظر بشكل صارخ أن شبكات التلفاز الغربية نصبت صحونا وسيارات بث تلفزيونية كبيرة على ضفة النهر مقابل لمبنى البرلمان- البيت الأبيض الروسي،وكان ذلك يعني بوضوح أن بعض الشركات التلفزيونية اشترت أولوية بث هذا الخبر المثير جدا وأحداثه بالصوت والصورة، وكأنها فلم سينمائي مثير «ومُسلٍّ»، عدت إلى المنزل واتصلت بطارق وأبي ليلى وقلت لهما أنني أرجح أن يلتسن سيقصف البرلمان قريبا جدا.

وربما تم إبلاغ وسائل الإعلام الغربية لكي يغادر صحفيوها مبنى البرلمان، ويستعدوا لتصوير هذا المشهد الأخير من المسرحية ليكون عبرة لآخرين، وهذا ما كان فعلا فعند ساعات الصباح يوم 4 أكتوبر 1993 بدأ قصف البرلمان من دبابتين كانتا تناوبان أمامه، وبدأ سقوط الضحايا في مواجهة تحمل مفارقة مذهلة بين قسم صغير من شعب أعزل تقريبا في مواجهة جيش نظامي ودبابات ورشاشات وأسلحة ثقيلة، الأمر الذي رافقته تصريحات دعم وتهنئة بالانتصار من قادة الدول الغربية «الديمقراطية» ليلتسن في قصفه للبرلمان «المنتخب بشكل قانوني» بمن فيه! دون أية عبارة استنكار وبدأ المبنى يحترق [11].

الجنرال البرت ماكاشوف

استكمال التدمير بحرية ودون أي تفكير بالمستقبل

كان قصف البرلمان إيذانا بتكريس سيطرة كاملة من الأوليغارشيين على مقاليد الحكم وتشير بعض المعطيات إلى أن تشوبايس [12] استطاع بيع حوالي 500 مصنع ومؤسسة إنتاجية روسية بمبالغ بخسة تقل حتى عن خمسة بالمئة من سعرها الحقيقي، ولم يكن تشوبايس يخفي حقيقة توجهاته بل كان يفتخر بأن هدفه هو القضاء على الشيوعية حيث يقول في حوار معه داخل الطائرة أنه «لن يكون هنالك ما أهو أشد قتلا للشيوعية من تحويل الإنتاج الضخم إلى ملكية خاصة وأن ذلك هو هدفه»[13].

وقد قام تشوبايس بأكبر خديعة في التاريخ للشعب الروسي حيث ابتكر بالتعاون مع غايدار[14] ما يسمى بـ الفاوتشر عبر حساب مجموع أثمان ما تملكه الدولة وتقسيمه على عدد السكان وتقديم سند «فاوتشر» لكل مواطن موحيا بذلك أنه أصبح مالكا عوضا عن الدولة وأغرى الناس بأنهم سيصبحون بذلك من الأغنياء ويبدو في الفلم السابق وهو يظهر صحيفة فيها إعلان عن استعداد بعض المواطنين لبيع هذا الفاوتشر بثلاثين ألف روبل أو 1500 دولار منوها بأن ذلك مجرد بداية [15] في حين اضطر الناس لبيع هذه السندات ببعض أرغفة من الخبز وحتى بزجاجة فودكا.

وقد تمت أواسط التسعينات عمليات بيع 43 ألف مؤسسة ومصنع ومبنى من أملاك الدولة في عام واحد،ولم تلبث أثمانها أن تلاشت قيمتها الشرائية تقريبا نتيجة تزايد التضخم، فيما غدا مئات آلاف العمال والمستخدمين في الشارع عاطلين عن العمل لأن الذين يشترون هذه المؤسسات والمصانع لا ينوون تطوير العمل بل الاستفادة من مفارقة السعر الذي اشتروا به عن السعر الحقيقي، فبيعت الأجهزة والآلات لكسب الأرباح ثم تحويلها إلى عملة صعبة وتهريبها.

السؤال الذي يطرح نفسه من يستطيع شراء هذه المؤسسات ولو ببضعة ملايين من الدولارات سوى اللصوص والمختلسين ورؤساء المافيات، والذين كانوا فاسدين حقا منذ أيام الاتحاد السوفييتي، وتكاثروا أيام غورباتشوف وأصبحوا متنفذين أيام يلتسن، فالموظفون حتى الذين كانوا يتقاضون رواتب كبيرة يحتاجون إلى عدة مئات من السنين لتجميع ملايين قليلة من الدولارات، أما الأغنياء الجدد فقد شكلوا امبراطورية سيطرت على جميع نواحي الحياة تقريبا، وبدعم واضح من الغرب الذي رأى بيلتسن بطلا أكثر اندفاعا حتى من غورباتشوف لتحطيم كل ما له علاقة بالاتحاد السوفييتي والشيوعية، فقد كرس يلتسن واقعيا اقتصاد السوق والاقتصاد الحر، وألغى الخطط الخمسية فألغى معها مكاسب الجماهير، واختفت البضائع الرخيصة من الأسواق، وارتفعت أسعار السلع والخدمات والسكن والمواصلات، وظهر التمايز الطبقي بأجلى صوره، وبدأت أولى مظاهرات العمال والموظفين الذين لا يتقاضون رواتبهم والعاطلين عن العمل والجائعين، وبات واضحا أن روسيا كانت عمليا تغذ السير لا نحو رأسمالية حضارية عبر رؤوس أموال تقليدية ، بل نحو الرأسمالية الوحشية ، كما استغل بعض الذين تمكنوا من جمع ثروة في تلك السنوات المشبوهة الظرف القائم، فافتتحوا عددا من البنوك، وسارعوا أنفسهم بأخذ قروض منها، وهرّبوها إلى الخارج بعد تحويلها إلى عملة صعبة مما ساهم بانخفاض قيمة العملة الروسية.

ومن ثم أعلن عن إفلاس تلك البنوك، بمعنى أن كل شيء مسموح بما في ذلك الخديعة، وكان هذا الأمر سهلا بالنسبة لهم كونهم يملكون أيضا مفاتيح القرارات السلطوية اللازمة، فيما اضطر العلماء والمبدعون وحتى كبار الضباط للعمل في بيع بعض المواد بما في ذلك بعض الحشائش والفجل، أو الملابس الداخلية والجوارب المتبقية في بعض المصانع الصغيرة، أو بعض الأواني

ما هي الآثار التي خلفها انهيار الاتحاد السوفييتي

لقاء أيمن أبو الشعر مع حسبولاتوف رئيس البرلمان الروسي قبيل قصف البرلمان

المنزلية قرب مداخل المترو، ومن كان منهم في مرحلة الشباب بعد كانوا يشتغلون في جمع المحاصيل لدى المزارع الخاصة التي نشأت على أنقاض التعاونيات،أو كحمالين، وكسائقين لنقل الركاب بسياراتهم وكأنهم سائقو تكسي، هذه الحالة المالية المزرية ظهرت في حدث مذهل أقرب إلى الخيال حيث حمل صاروخ سوفييتي رائد الفضاء سيرغي كريكاليف إلى محطة مير الفضائية في أيار 1991 وبعد بضعة أشهر تمزّق الاتحاد السوفييتي وتلاشى، ولم يعد لدى موسكو ما يكفي من المال لإعادته، فظل في الفضاء بعد أن عاد زميلاه إلى الأرض، وباتت حياته عرضة للخطر ظل 311 يوما عالقا في الفضاء إلى أن تبرعت ألمانيا بنفقات عودته إلى الأرض، ليعود فوق ذلك مكسور الخاطر فالدولة التي يحمل علمها لم تعد موجودة [16].

لم يكن صدفة والحال كذلك أن يطالب الممثل والمخرج السينمائي الروسي الشهير نيكيتا ميخالكوف [17]، بضرورة اعتبار غورباتشوف ويلتسن مجرمين تسببا في انهيار الاتحاد السوفييتي ومحاكمتهما، وشدد ميخالكوف على أن ذلك لا يمكن أن يكون مجرد خط إصلاحي، واستشهد بتجربة الصين التي أجرت إصلاحات نوعية دون أن تدمر نفسها وها هي اليوم تنافس أقوى اقتصاد في العالم.

وصل الأمر ببعض خصوم هذا النظام أو ذاك إلى أن يبرروا تماما وقوفهم مع الأعداء، ومما يثير الدهشة أن الرئيس يلتسن أعطى الضوء الأخضر لكلينتون بقصف يوغوسلافيا حيث اتصل به وأبلغه أن الرئيس اليوغسلافي ميلوشوفيتش طلب منه إرسال منظومات صواريخ اس 300 بحيث لا تستطيع الطائرات الأمريكية الاقتراب من أراضي يوغوسلافيا، وطمأن كلينتون بأنه يستطيع أن يكون واثقا من أن يلتسن لن يعطيه هذه الصواريخ،فشكره كلينتون.» [18]

بهذه الطريقة قدم يلتسين مثالا على إمكانية التعاون مع أعداء حلفاء الأمس ومساعدتهم، ومعاداة الأصدقاء التاريخيين فقط لأنهم لم يتخلوا عن النظام السابق،بل ظهر من باتوا يعتبرون حتى كلمة إنسان وطني شتيمة، ويسخرون من المعاني السامية ومصطلحاتها باعتبارها وجدت للأغبياء، ويطرح السؤال نفسه: هناك في الولايات المتحدة أيضا العديد من القوميات والأديان فهل تسمح الأجهزة الأمنية والسلطات عموما بإثارة النعرات الطائفية والعرقية وتشجيع انفصال الولايات عن المركز؟

على كل لنحاول سرد أهم آثار انهيار الاتحاد السوفييتي بموضوعية والتي تكرست على مراحل فترة التسعينات:

سياسيا وأمنيا

- هيمنة القطب الأوحد فبانهيار الاتحاد السوفييتي بات العالم مرهونا بقوة عظمى واحدة مهيمنة هي الولايات المتحدة.

- توسع حلف الناتو على حساب دول حلف وارسو الذي تم حله، ومن ثم دخلت حتى بعض دول الاتحاد السوفييتي السابق نفسه في هذا الحلف، وقد غدا يضم 30 دولة بعد أن كان يضم قبل انهيار الاتحاد السوفييتي 15 دولة وحسب.

- تدخّل حلف الناتو عسكريا في مصير عدد من الدول غير مكترث بموسكو، ودون أي مبرر من ميثاقه نفسه، فالمادة الخامسة من ميثاق الحلف تستوجب التدخل العسكري في حال تعرضت إحدى دول الحلف إلى اعتداء من دولة أخرى، أما أمور النزاعات والخلافات فتحلها الأمم المتحدة والمنظمات الإقليمية المعنية لكنه قصف يوغسلافيا «رغم أن كوسوفو ليست في الحلف» واحتل العراق «رغم أن الكويت ليست في الحلف» وقصف ليبيا «رغم أنها لم تعتد على أحد دوله وكان الصراع فيها داخليا».

- تحوّل قسم من الجمهوريات التي كانت داخل الاتحاد السوفييتي إلى عدوة لروسيا، وباتت تطالب بتشديد الخناق وفرض عقوبات إضافية عليها.

- العلاقات الدولية باتت أقل استقرارا، وازدادت احتمالات نشوب حروب إقليمية واسعة النطاق.

- نشأت صراعات دامية وحروب محلية بين جمهوريات كانت متعايشة وديا وسلميا، وذلك نتيجة خلافات حدودية وصراعات قومية وخلفيات دينية مثل أذربيجان وأرمينيا.

- انفصلت جمهوريات وكيانات ذات حكم ذاتي ومناطق أقليات قومية عن الجمهوريات السوفييتية السابقة خشية اضطهاد الأقليات القومية من السلطات التي تمثل الأكثرية في الجمهوريات التي انفصلت عن الاتحاد السوفييتي، وذلك عبر صراعات دامية مثل أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية عن جورجيا، وبريدنيستروفي عن مولدوفيا.

- باتت روسيا نفسها قاب قوسين أو أدنى من التمزق واتخذت 16 جمهورية وكيانا إداريا قرارات وإجراءات استقلالية وسيادية، وكان يمكن أن يتحول هذا المسار إلى حرب أهلية رهيبة وتصبح روسيا لقمة سائغة فقد احتلها المغول أحفاد جينكيز خان في النصف الأول من القرن 13 لأنها كانت ممزقة لإمارات متنافرة.

- اشتعال حرب الشيشان الأولى الانفصالية ذات الطابع القومي وإعلان استقلالها باسم إشكيريا، والحرب الثانية حيث الفصائل ذات الطابع الديني إلى أن تم إخضاعها بالقوة وأسفرت المعارك عن مقتل وجرح أكثر من مئتي ألف إنسان وتشريد قرابة نصف مليون، عدا عن الدمار الهائل.

- اتسعت ظاهرة الشوفينية والنفور من القوميات الأخرى تجاه المواطنين الذين ظلوا في هذه الدولة أو تلك بعد الاستقلال، وعانى الروس بشكل خاص في الجمهوريات الأكثر رغبة في الاندماج بالغرب كدول البلطيق وأوكرانيا، ومنعوا في كثير من الأحيان حتى من التحدث بلغتهم الأم وتعرض العديد منهم إلى الإهانات والضرب والتهجير.

- تكرّست سيطرة الإليغارشيينحتى سياسيا حيث باتوا يفرضون ما يشاؤون في مناصب الدولة بما في ذلك تكريس رئيس الدولة المناسب لهم،وتشير بعض المعطيات إلى أن يلتسن الذي وصلت شعبيته إلى الحضيض أواسط التسعينات خسر عمليا انتخابات عام 1996 أمام زعيم الشيوعيين زوغانوف لكن الأليغارشيين وأصحاب البنوك المسيطرون زوروا الانتخابات بمساعدة خبراء أمريكيين لاتخاذ يلتسن مطية في دورة رئاسية ثانية.

- تم اختراق الأجهزة الأمنية عبر نفوذ الأوليغارشيين وخاصة بيريزوفسكي الذي كان زمن الاتحاد السوفييتي مجرد مدرس للرياضيات، ثم أصبح وكيلا لبيع السيارات، وخلال فترة بسيطة أصبح مليارديرا، وكان مقربا من أسرة يلتسن الذي عينه نائبا لسكرتير مجلس الأمن القومي، وهو يحمل الجنسيتين الروسية والإسرائيلية، والذي يصفه زعيم الشيوعيين زوغانوفبراسبوتن [19].

اقتصاديا واجتماعيا

- بدأ يلتسن بخطوات رأسمالية جريئة حيث أعلن منذ بداية عام 1992 إطلاق حرية الأسعار الأمر الذي ترافق مع عمليات الخصخصة، وظهور طبقتين واضحتين الأغنياء والفقراء.

- انهارت معظم الروابط الاقتصادية بين دول المنظومة الشرقية، وكذلك بين الجمهوريات السوفييتية السابقة وانخفضت الإنتاجية، وتضاءلت صفقات التوريدات ما شكل أزمات حقيقية فيها.

- بقي زهاء 25 مليون روسي خارج حدود روسيا في تلك الجمهوريات التي انفصلت، وباتوا يعاملون كمواطنين منبوذين من الدرجة الثانية.

- مساهمة عناصر من المخابرات الأمريكية في عمليات الخصخصة «سنتحدث عن ذلك بعد قليل»، كما تم شراء عدد كبير من المؤسسات الحكومية لصالح الملياردير الأمريكي سوروس وتم تهريب المليارات من روسيا في مرحلة يلتسن، وساهمت المخابرات الأمريكية بعمليات الخصخصة ما عمق من انهيار الاقتصاد الروسي أواسط التسعينات.

- تقلص عدد السكان في روسيا نفسها نتيجة الحروب والمجاعات وعزوف الشباب عن الزواج نتيجة الوضع الاقتصادي، وتمت عمليات ترسيم اضطرارية للحدود، وأنشئت الحواجز بين الجمهوريات السوفييتية التي كان مواطنوها يعبرون حدود كل هذه المناطق بالهوية.

- انتشرت الجريمة والجريمة المنظمة بشكل هائل في التسعينات أيام يلتسن، ولم يعد الناس يخرجون من بيوتهم بعد حلول الظلام، وانتشرت عصابات السطو في الشوارع، فممن أعرفهم شخصيا الباحث الكبير ارثور سعدييف صاحب مؤلفات عديدة منها كتاب الفلسفة العربية الإسلامية، ذاك الكهل الذي هاجمه اللصوص في الشارع وضربه على رأسه لسرقة معطفه ليس إلا، ونتيجة إصاباته فارق الحياة بعد حين، كما وجدت غير بعيد عن البناء الذي نقطن فيه جثة جاري الشاعر الأفغاني عالم داني شفار الذي رافقني إلى دوشانبه عاصمة طاجكستان وترجم ما ألقيته إلى اللغة الطاجيكية وقرأ بعضا من أشعاره في الملعب البلدي معي آنذاك في دوشانبيه [20] أيضا قتله اللصوص لسرقة بضعة روبلات كانت في جيبه، وانتعشت مهنة الحدادة بشكل مذهل، لأن جميع الناس باتوا يركبون أبوابا حديدية منيعة لبيوتهم بعد انتشار السطو على المنازل.

أمر آخر مثير حقا على مبدأ شر البلية ما يضحك وقد سبق لي أن كتبت عنه مقالة بعنوان «ليالي الأنس في موسكو»فقد انتشرت سرقة السيارات بشكل كبير جدا وبات الناس يركّبون أجهزة إنذار لسياراتهم، ما الذي تتوقعونه؟ وصلت الجرأة عند اللصوص إلى أن يقوموا بهز السيارة حتى يلعلع صوت الإنذار ويختبئون فيخرج صاحب السيارة ويفتح الباب ليغلق صوت جهاز الإنذار فيظهر المجرمون ويهددونه بمسدس أو سلاح أبيض ويأخذون منه المفاتيح ويركبون السيارة ويغادرون حيث يتم خلال ساعات دهانها بلون آخر وتغيير رقم محركها.

- ظهرت نتيجة بيع المؤسسات بأثمان بخسة جدا جماعات من المليارديرية، والمافيات، وظهرت جماعات بينهم تسمى «الروس الجدد» وهم الذين يملكون أموالا هائلة وثقافة ضحلة، وصاروا مجالا للتندر، وكثيرا ما تم شراء هذه الممتلكات وإعادة بيعها للربح، وأغلقت نتيجة ذلك مصانع ومؤسسات إنتاجية عديدة، وتنامى جيش العاطلين عن العمل.

- كان من البديهي أن تصل الأمور إلى حدود الكارثة نتيجة السياسة الاقتصادية والمالية المتبعة في التسعينات حيث حدثت أزمة مالية كبرى عام 1998، كنا نتوقع حدوثها، ولكن الرئيس يلتسين أعلن بنفسه وبضمانته أن الأمور تحت السيطرة،

ولن يكون هناك أي تخفيض لقيمة العملة الوطنية، كان تأكيده هذا يوم الجمعة في 14 من أغسطس- آب وجاء إعلان الإفلاس بعد ثلاثة أيام يوم الاثنين في السابع عشر من أغسطس عام 1998، وبما أن يومي السبت والأحد عطلة، فهذا يعني أنه خنث بوعده بعد يوم واحد عمليا، ولم تستطع روسيا الوفاء بالتزاماتها، فهبطت العملة الوطنية بشكل هائل، وفقد المواطنون ليس فقط القدرة الشرائية بل قيمة مدخراتهم، وحدثت مآس حقيقية بما فيها حوادث الانتحار، وأطلق الناس على هذا اليوم اسم «الاثنين الأسود» ووصلت قيمة العملة الروسية إلى درجة أنني بعت شخصيا سيارتي «من نوع «لادا» وعمرها خمس سنوات» بما يعادل ثمن ثلاث علب سجائر مالبورو سابقا.

- انتشرت ظاهرة البغاء، واضطرت أعداد كبيرة من الفتيات حتى للسفر إلى الخارج والعمل كمومسات، وتشكلت عصابات كثيرة تشرف على بيزنس البغاء، بما في ذلك استعبادهن كرقيق أبيض.

- أصبحت المافيا قوة رئيسية في البلد،وانتعشت عمليات تهريب المخدرات والأسلحة والمواد الإباحية وحتى تهريب الأعضاء البشرية، واتسع نشاط جامعي الإتاوات، ووصل تأثيرهم حدا مذهلا بحيث بات أي إنسان يفكر بأي مشروع عمل خاص يضع في رأس قائمة النفقات والتكاليف «حصة المافيا» أو سيتعرض مشروعه للنهب أو الحرق، أو سيعرض أفراد أسرته ونفسه للخطف وحتى القتل.

بالمقابل

- حصلت الجمهوريات الخمس عشرة على استقلالها وغدت عضوة في منظمة الأمم المتحدة، وأصدرت عملاتها الوطنية ونهجها الخاص.

- اعتبرت روسيا وريثة شرعية للاتحاد السوفييتي عليها تسديد ديون جميع جمهورياته السابقة شريطة أن تحول هذه الجمهوريات أملاكها في الخارج لصالح روسيا «أوكرانيا لم تمتثل لذلك رغم أن روسيا سددت ديون أوكرانيا الخارجية حسب تصريحات الرئيس بوتن».

- تم إنشاء رابطة الدول المستقلة في محاولة للحفاظ على بقايا الصلات والعلاقات الودية بين قسم من دول الاتحاد السوفييتي السابق.

- انتعش بعد حين البيزنس الصغير والورشات الخاصة وظهرت عشرات الألاف من رجال الأعمال.

- تمّت خصخصة عدد كبير من بيوت السكن، ولكن ظلت أزمة رهيبة غير إنسانية للخبراء والاختصاصيين والمترجمين الذين يسكنون وفق قانون الاتحاد السوفييتي، في حين يتم طردهم مع عائلاتهم كونهم غير مسجلين وفق قانون السكن الروسي الجديد، وهذا بالطبع مستحيل، أزمة تحتاج إلى حل «سأتحدث عنها لاحقا».

- ظهرت الطبابة والتعليم المدفوع الأجر ما ساهم بتأسيس عدد كبير من المستشفيات والعيادات والمدارس والجامعات والمعاهد الخاصة أو المشتركة مع الحكومة «طبعا للميسورين بشكل رئيسي».

- حُصر السلاح النووي في روسيا كوريثة للاتحاد السوفييتي إثر اتفاق لشبونة بين الولايات المتحدة وروسيا وأوكرانيا وكازاخستان وبيلاروسيا.

- دفع الإحساس بمفارقة القوة إلى تشكيل منظمة الأمن الجماعي والتي ضمت سبع دول هي روسيا وكازاخستان وبيلاروسيا وقرغيزيا وطاجكستان وأوزبكستان وأرمينيا وشُكلت قوات مشتركة للرد السريع.

- تم اعتماد دستور جديد لروسيا عام 1993 في استفتاء شعبي، وإجراء انتخابات شعبية للبرلمان عبر تنافس القوى السياسية ما كرس بداية جدية للطابع الديمقراطي ولو شكليا.

- تم توقيع اتفاقية الشراكة والتعاون بين روسيا والاتحاد الأوروبي في مجالات الاقتصاد والتجارة وكذلك الأمن والقضاء والعلوم التعليم «ثم جمدت فيما بعد.

- بدء تنفيذ معاهدة خفض الأسلحة الاستراتيجية الهجومية لتقليص الرؤوس النووية لمدة خمسة عشر عاما عام 1994 التي سبق أن وقعت عام 1991.

ملامح من التوجهات الأدبية

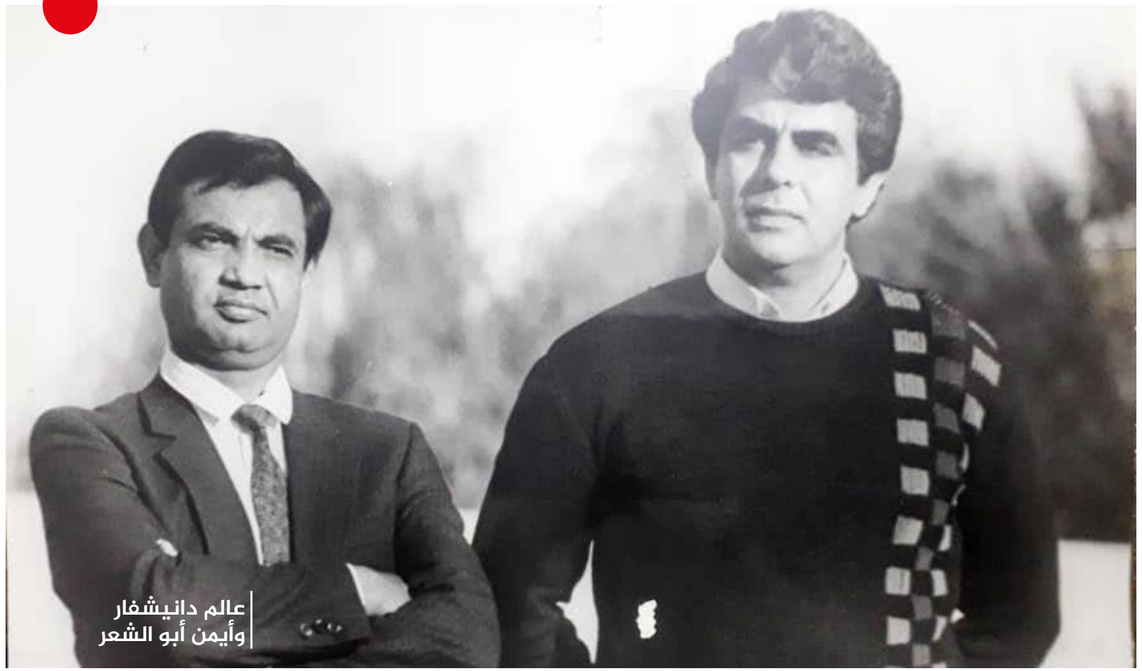
عالم دانيشفار
وأيمن أبو الشعر

ولكن كيف كان انعكاس هذه المرحلة وتأثيرها على الأدب؟ من البديهي أن يكون الانعكاس هائلا بعد تلك الأحداث التاريخية التي شهدتها روسيا وخاصة في مجال الأدب.

هنالك مفارقة كرستها الحياة نفسها في تلك الحقبة، فقد اضطر الشعب الروسي الذي يعتبر أكثر شعب قارئ في العالم إلى أن تكون أولوياته البحث عن عمل ولقمة عيش نظيفة، فتراجعت أعداد القراء وبالتالي النُسخ في الوقت الذي ازدادت فيه العناوين لتناسب التنوع وحرية الكتابة واستمر الشغف في التسعينات بالكتب التي كانت ممنوعة في الحقبة السوفييتية، وأفرج عنها منذ نهاية الثمانينات وعاد إلى الحياة الأدبية المتداولة من جديد أمثال أندريه بلاتونوف وميخائيل بولغاكوف وفلاديمير نابوكوف وإدوارد ليمونوف وجوزيف برودسكي والكسندر سولجينيتسين وكثير غيرهم.

فتحت الحياة والعلاقات الجديدة للأدب الباب على مصراعيه للتجريب والتنوع والخوض في كل شيء، وخاصة الرواية التاريخية، وبدأ الأدب كالنهم الجائع، إذ بات كل شيء مسموحا به بما في ذلك عناصر التابو: السياسة، الجنس، الدين، وبالتالي بدأ في ملامح هذه الفترة التشتت بتنوع الأساليب، والبحث عن أساليب جديدة وتقنيات جديدة بالنسبة للأدب الروسي، وخاصة مزج الواقع بالفانتازيا الغرائبية، وبات

نشر الكتاب يخضع أيضا للعلاقات الرأسمالية العرض والطلب وليس لقرارات فوقية، وظهرت دور نشر خاصة ومطابع خاصة، وإلى جانب الأجيال المخضرمة ظهر جيل من الأدباء الشباب «آنذاك» سعوا لتكريس أسلوب جدي لعل من أبرزهم دميتري بيكوف وفلاديمير سوروكين وفيكتور بيليفين.

يمكن القول أنّ الطابع الرئيسي للنتاجات الإبداعية في مرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي هو ازدياد السرد التاريخي وخاصة حول مرحلة الاتحاد السوفييتي، وتزايد الروايات والأفلام البوليسية التي تعكس واقع التطورات منذ استلام غورباتشوف وحتى نهاية التسعينات، حيث سيطرة العصابات على المؤسسات بالقوة، وظهور مصطلح «الريكيتوالريكيتير- рэкет, рэкетир» الابتزاز بالقوة في الحياة اليومية، وانتقال الفساد حتى إلى الأجهزة الأمنية أو أنها عاجزة عن المواجهة وحتى الدفاع عن نفسها، وصراعات المافيا فيما بينها، ويظهر كما في السينما الأمريكية بطل فردي يواجه هذا الواقع ليعيد الحقوق المغتصبة من مثل فيلم المهاجم (рейдер) و المصير المحطم (разбитая судьба).

وتعتبر رواية بيلفين [21] «تشابايفوبوستوتا» أحد نماذج الأسلوب المزجي بين الواقع والفانتازيا الذي انتشر في التسعينات وما زال مستمرا، وقد لاقت هذه

لقاء مع بعض أدباء
أوكرانيا سنة 1987

الرواية رواجا لدى القراء، وفيها مزج متخيل له غرابته بين أجواء روسيا بعد البريسترويكا وأجواء الحرب الأهلية عامي 1919-1918، وهي تذكر بعض الشيء بأسلوب بولغاكوف في المعلم ومارغاريتا، فالشاعر بيتر فويد يتصرف في المرحلتين متنقلا عبر الزمن، ويلتقي بالشخصية التاريخية شبه الأسطورية تشابايف [22].

ويظهر أن الشاعر بيتر مريض نفسيا، وتجري عملية معالجته في مشفى الأمراض العقلية، ويدخل على الخط أبطال آخرون كسيردوك الذي يدعي أنه شارك في القتال بين قبيلتين في اليابان، وكذلك شخص يتصرف باعتباره أحد أبطال مسلسل مكسيكي، وله علاقة مع ارنولد شفاردسنيغر، ولا يخلو الأمر من استخدام الهلوسة حيث الحوار بين أربعة مرضى عقليين، وهناك حسب الرواية مَن هو مسؤول عن مصير روسيا الحديثة .

ويتطرق المؤلف إلى الصراع المسلح عند البيت الأبيض والانتخابات الرئاسية بمعنى أنه يتكيء على حوادث حقيقية كالهجوم على برج التلفزيون «استانكينا» (في الواقع تتم محاولة اقتحام برج استانكينا بسيارة عسكرية، وليس بصاروخ من الطائرة كما في الرواية) ويمزج كل هذا الخليط بالخيال والغرائبية مع تغيير حتى لدور تشابايف التاريخي.

باختصار ورغم التشعبات والتداخلات الزمنية والاتكاء على الحكمة البوذية، وهلوسة المجانين يمكن أن يستدل المرء على أن الكاتب يوحي بأن موسكو تحاول بعد الكارثة أن تعيد بناء نفسها عبر الفوضى والفراغ، وفي مرحلة المرض لا بد من الهلوسة طبعا مع اسقاطات فلسفية عبر البوذية والتقاليد الشرقية، ولم يكن صدفة أن يكون الفراغ اسم البطل الرئيسي في هذه الرواية كنوع من الإشكال الوجودي الذي هيمن على تساؤلات التسعينات بشأن المبادئ والأفكار والواقع المتغير وآفاقه، والرواية على أية حال عصية على القارئ العادي، فهي مليئة بالشخصيات الحقيقية والمبتكرة والانعطافات والمصطلحات كالغنوصية [23] التي لابد من فك رموزها لاستيعاب استخدامها في هذا الموقع أو ذاك، وما هو حقيقي وما هو مجرد هلوسة أو رمز، فيما تسيطر فكرة الفراغ التي هي في الواقع سمة التسعينات حسب المؤلف، وهي شبيهة بفراغ ما بعد ثورة عام 1917 والحرب الأهلية.

المصادر:

[1]صورة يلتسين حيث تظهر كفه اليسرى

[2]انظر فيلم Россия 24 باللغة الروسية- روسيا التاريخ الحديث «الدقيقة 11 الثانية 56 وحتى الدقيقة 11 والثانية السابعة

https://www.youtube.com/watch?v=Dofs2DMRuV8&t=770s

[3]للتفصيل يمكن النظر في سجلات مؤتمر نواب الشعب والمجلس الأعلى لروسيا الاتحادية لعام 1991 رقم 45 صفحة 1537

[4]الجنرال البريطاني الفريد نوكس 1870-1964 كان ملحقا عسكريا في روسيا إبان الحكم القيصري وقد كتب هذه الكلمات إلى حكومته معبرا عن العجز عن الانتصار على جيش يؤيده شعبه

[5]في الصورة لقاء مع بعض أدباء أوكرانياعام 1987

[6]صورة للقائي مع حسبولاتوف في مكتبه حيث كان رئيسا لمجلس السوفييت الأعلى

[7]أجبر يلتسن رئيس المحكمة العليا «زوركين» على الاستقالة نتيجة ذلك رغم أنه كان القاضي الأجدر والأشهر

[8]هذه العبارة سمعتها من الجنرال روتسكوي وهو يخطب في الحشد، ومبنى عمادة العاصمة قريب من مبنى البرلمان- وكان عمدة موسكو لوجكوف من أنصار يلتسن «صورة الجنرال روتسكوي إبان اعتقاله في مبنى البرلمان»

[9]البرت ماكاشوف من مواليد عام 1938 ترقى في الرتب العسكرية وشغل عدة مناصب عسكرية عالية بما في ذلك قائد جيش الأسلحة المشتركة وقائدا لمنطقة الفولغا وترشح منافسا ليلتسن على الرئاسة عام 1991 سجن لأربعة أشهر بعد أحداث البرلمان ثم أفرج عنه بقرار عفو عرف عنه أنه معاد للسامية ومع ذلك أشيع أنه هاجر مؤخرا إلى إسرائيل! «صورة ماكاشوف»

[10]انظر مقالة سلام مسافر:

ربع قرن على حرق البيت الأبيض ففيها عرض موضوعي لتلك الأحداث: قناة ار تي 03-10-2018

[11]حسب المعطيات الرسمية قتل 158 شخصا في اقتحام البرلمان، ولكني أعتقد أن العدد أكبر بكثير وقد أطلق الناس على هذا التاريخ اسم «أكتوبر الأسود» https://www.facebook.com/rtarabic.ru/posts/2231855193535449

[12]أناتوليتشوبايس من أبرز مجموعة الليبراليين الذين كانوا حول الرئيس يلتسن وكان يلقب بالكاوبوي الأمريكي الأشقر كان مديرا لمكتب الرئيس ثم عينه يلتسن نائبا أول لرئيس الوزراء ويحمله الروس المسؤولية الكبرى لدمار الاقتصاد الروسي ويصفونه بسمكة القرش.

[13]انظر فلم روسيا التاريخ الحديث «بالروسية» من انتاج قناة روسيا -24 «الدقيقة 57 الثانية 39 »

https://www.youtube.com/watch?v=Dofs2DMRuV8&t=770s

[14]إيغور غايدار 1956 – 2009 من الكوادر الليبرالية الرئيسية حول يلتسن شغل منصب رئيس الوزراء بالوكالة وقد اعتمد النهج الاقتصادي المسمى العالج بالصدمات ومن خصائصه رفع الأسعار بين حين وآخر وكان الناس يسمون هذا النهج في الشارع الروسي «الطرق على الرأس حتى تتعود»

[15]المرجع السابق الفلم « الدقيقية 58 الثانية 17»

[16]انظر RT تحت عنوان: «عاد من الفضاء ووجد أن الدولة التي أرسلته قد اختفت من الوجود»

[17]نيكيتا ميخالكوف ممثل ومخرج روسي شهير حائز على عدة جوائز بينها جائوة البندقية وأوسكار انظر - صحيفة فيدوموست الروسية الالكترونية-

Ведомости 19 февраля 2016, 10:25 / Политика Михалков призвал

[18]فيلم روسيا التاريخ الحديث (باللغة الروسية انظر: « الساعة الأولى والدقيقة الخامسة والعشرون والثانية السادسة والأربعون https://www.youtube.com/watch?v=Dofs2DMRuV8&t=770s

[19]غريغوري راسبوتن كاهن أميٌّ من سيبيريا تحول إلى قديس أثر جديا على أسرة القيصر، وكان بيروزوفسكي يؤثر على أسرة يلتسن.

[20]عالم دانيشفار الذي كان معي يترجم أشعاري التي أقرأها بالروسية إلى اللغة الطاجيكية في الملعب البلدي في دوشامبيه وألقى أيضا بعض أشعاره باللغة الأفغانية المفهومة من الشعب الطاجيكي

[21]فيكتور بيليفين ولد في موسكو عام 1962 ويعتبر من أشهر الكتاب المعاصرين الروس له عدد هائل من الروايات والقصص وهو حائز على عدد من الجوائز الأدبية كما حولت بعض أعماله إلى أفلام سينيمائية

[22]فاسيليتشابايف مواليد 1887 في بيئة فلاحية ساهم في الحرب العالمية الأولى ومن ثم في الحرب الأهلية وكان قائد فرقة في الجيش الأحمر وهو شخصية تاريخية محببة وتوفي عام 1919

[23]الغنوصية. - العرفانية وهي مدرسة فلسفية حلولية ظهرت في القرن الأول الميلادي وتعود جذورها إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون

بوتين منقذا ؟

بوتن حاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه

غـدا فلاديمـير بوتـن رئيـس لروسـيا عـام 2000، ويبقـى قـدوم بوتـن إلى السـلطة بهـذه السرعـة وصعـوده -مـن ضابـط اسـتخبارات في ألمانيـا إلى مسـاعد عمـدة سـان بطـرس بـورغ، وفجـأة إلى رئيـس للـوزراء، ومـن ثـم رئيسا لروسـيا- أمـرا محيرا تحت إشـارة اسـتفهام. وأميـل إلى الاعتقـاد بـأن بعـض كبـار المسـؤولين الوطنيـين في أجهـزة المخابـرات الروسـية اسـتوعبوا درس رئيسـهم السـابق كريتشـكوف، ولم يقومـوا بمحاولـة الإطاحـة بيلتسـن بالقـوة بـل بالـذكاء، فأقنعـوه بعـد سلسـلة الهزائـم التـي منـي بهـا، والخسـائر والمـآسي التـي سـببها للشـعب بـأن يتنحـى، وقدمـوا مرشـحهم الـذي وافـق عليـه يلتسـن ربمـا مقتنعـا أو مضطرا،ولعـل ذلـك بسـبب صحـوة أقنَعتـه بـأن جميـع مـن حولـه ينهـب البلد،ربمـا.

هـذا تقديـري الشـخصي عـلى أيـة حال، ولهـذا يقـال في الشـارع الـروسي أن القـرار الإيجـابي الوحيـد الـذي اتخـذه يلتسـن في حياتـه هـو أن يتنحـى، ويسـلم السـلطة لبوتـن! وربمـا يكـون هنـاك قـرار حاسـم مـن جهـاز المخابرات الـذي أحـس بمدى خطـورة الوضـع، وأن يلتسـن يمكـن أن يدمـر البلـد نهائيـا، وقـرر تقديم مرشـحه «الإنقـاذي» لهذا المنصـب، فبوتـن كـما هـو معـروف ضابـط ذكي في المخابرات السـوفييتية -الروسـية. وقـد عـانى بنفسـه عندمـا عـاد مـن ألمانيـا بدايـة انهيـار الاتحـاد السـوفييتي حتـى أنـه اعـترف بأنـه اضطـر للعمـل كسـائق تكـسي لنقـل الـركاب بسـيارته لـكي يكسـب بعـض المـال ويسـتطيع العيـش [1].

عـلى أيـة حـال، لـن أدخـل في هـذه التفاصيـل ولكنـي أنـوه بـأن بوتـن عـبر أكـثر مـن مـرة عـن أسـفه الشـديد

خروشوف وهو يقرع منبر الأمم المتحدة بحذائه

لانهيار الاتحاد السوفييتي، واعتبره أكبر كارثة في القرن العشرين.

أشير باختصار شديد إلى بعض الإجراءات التي اتخذها الرئيس بوتن لوقف الانهيار المريع وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فقد حافظ على علاقات جيدة مع الغرب طيلة السنوات العشر الأولى من حكمه، وأنعش عمليا دور روسيا في مجموعة السبع الكبرى بعد أن غدت «الثماني» ونشط فاعلية مجلس روسيا الناتو، ناهيك عن تعميق الشراكة مع الاتحاد الأوروبي، وتمكن بوتن خلال عشرين عاما كان المسيطر فيها حتى إبان شغله منصب رئيس الوزراء بين مرحلتين رئاسيتين أن يرفع من حجم الاحتياط المالي الدولي لدى روسيا خمسين ضعفا تقريبا فقد كان الاحتياطي المالي الدولي في روسيا عام 1999 قرابة 11.5 مليار دولار، وبلغ عام 2019 ما يزيد عن 542 مليار دولار.

استمر الطابع الرأسمالي عموما حتى اليوم، ولهذا يمكن أن يتوضح أن موقف الغرب من روسيا حاليا ليس نتيجة تنافسبين منظومتين اشتراكية ورأسمالية بعد أن تكرس النمط الرأسمالي في روسيا، وأساطين المال مع الشركات الخاصة هم عماد الاقتصاد الروسي، لكن بوتن اتخذ إجراءات حاسمة في محاربة المافيا، فأضعف نفوذها وخاصة دورها في مجال سياسة الدولة، وضبط أمور الحياة الاجتماعية وأمن المواطنين أيضا إلى درجة كبيرة، وشجع حتى ماديا إنجاب الأطفال بعد النكسة الديمغرافية الجديدة نتيجة الوضع الاقتصادي المرعب في التسعينات، ومن ثم أبدى اهتماما

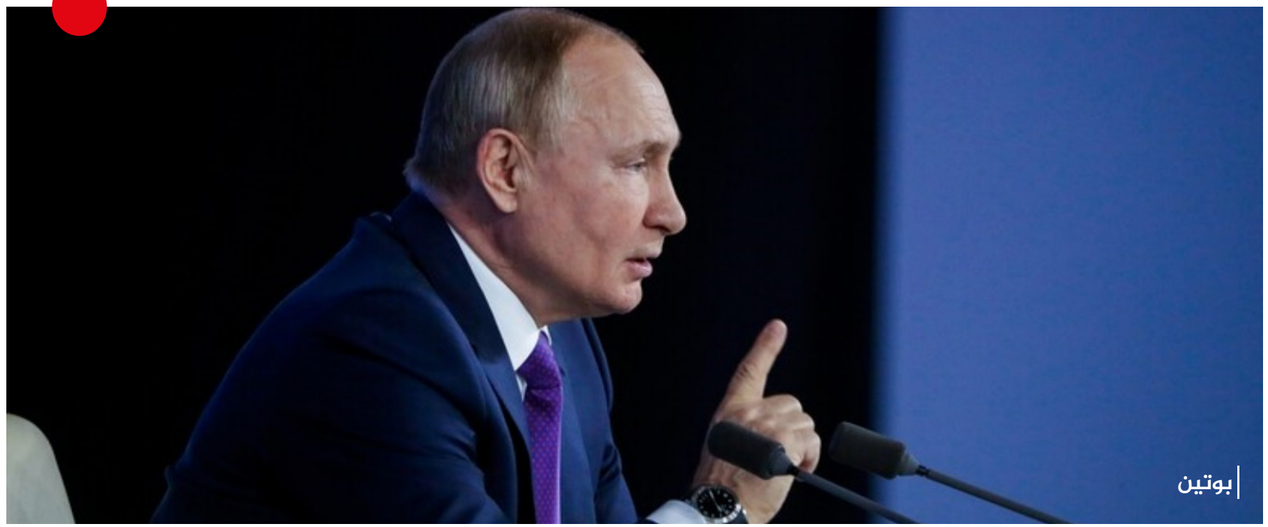
بوتين

كبيرا بإعادة بناء القوات المسلحة والأجهزة الأمنية، وإنعاش الاقتصاد الوطني، والحد من تدخل كبار الرأسماليين الروس المتعاونين مع الغرب بتوجهات البلد الاقتصادية، وأعاد رئيس المحكمة الدستورية «زوركين» إلى منصبه، وساهم عبر الوسائل القضائية بمصادرة أملاك وشركات المتورطين منهم ببعض القضايا الإجرامية والعمالة ما سمح باستعادة المكانة الدولية لروسيا بعد سنوات من تسلمه السلطة.

كل ذلك، دفع الغرب إلى التوجس خاصة بعد أن أنعش بوتن الاتفاقيات الاقتصادية التعاونية التي وقعت في التسعينات بين بعض دول الاتحاد السوفييتي السابق لكنها ظلت غير فعالة عمليا نتيجة التبعية للغرب وتردي الأوضاع الاقتصادية، إلا أنها نشطت في عهد بوتن كالاتحاد الاقتصادي الأوراسي، والاتحاد الجمركي، كما كرسبوتن ونشط فعالية معاهدة منظمة معاهدة الأمن الجماعي، واتخذ خطوات نوعية عملية للتعاون مع الصين ومد أنابيب النفط إليها ونحو دول شرقي آسيا،كما أنه وسع تنفيذ مشاريع كبيرة جدا في مجال الطاقة تنعش الاقتصاد الروسي كخطوط الغاز إلى تركيا وأوروبا، لكنه والحق يقال ظهر كرئيس وطني متوازن مخلص لبلده،ولكنه لم يكن سكيرا كيلتسن، ولا مصلحا غوغائيا كغورباتشوف، ولم يكن يهمه تصفيق الغرب له.

من جهة ثانية، لم يكن بإمكان بوتن المغامرة بإجراء تغيير حاسم في النهج الاقتصادي كما فعل غورباتشوف ويلتسن وإن بشكل معاكس لأن ذلك سيعني حدوث تصدع جديد لا يمكن أن يتحمله الشعب الروسي، وخاصة بعد ان تكرست العلاقات الرأسمالية في البلد، إلا أنه بعد أن وطد أقدامه في الكرملين وهو الخبير في مجال الاستخبارات راح يكشف عناصر الاستخبارات المركزية الأمريكية الذين عملوا كمستشارين وموظفين في الحكومة الروسية منتصف التسعينات في القرن الفائت، وأعلن بنفسه أنه قام بطردهم بعد أن تمت ملاحقتهم جنائيا لأنهم انتهكوا القوانين لكونهم عناصر من المخابرات الأمريكية وشاركوا في عمليات الخصخصة داخل روسيا.

كما أوضح أن عملاء الاستخبارات الأمريكية كانوا في تسعينات القرن الماضي موجودين حتى في بعض المنشآت النووية الروسية، وأن ذلك تم بقرار من الحكومة الروسية التي وقعت مع واشنطن اتفاقية تتيح وجود الخبراء الأمريكيين في بعض المنشآت النووية، وأنهم كانوا يجيئون كل يوم وكأنهم ذاهبون إلى دوامهم في أماكن عملهم [2].

مفارقة عجيبة

لم يكن صدفة أن يعيد الغرب النظر في تقييماته لروسيا تحديدا زمن بوتن، فبعد أن كان يكيل المديح لغورباتشوف «تم منحه جائزة نوبل للسلام» ويصفق كثيرا ليلتسن، راح يضيِّق الخناق على بوتن من كل الجوانب في السنوات الأخيرة عبر عشرات العقوبات والحظر، والتراجع عن الوعود بعدم توسع الناتو، وضم دول الكتلة الشرقية وحتى جمهوريات البلطيق إلى الحلف، وتحويل البنى التحتية -التي أنفق عليها الاتحاد السوفييتي أموالا طائلة- إلى ملكيته دون حتى أية تعويضات.

لن أدخل في تفاصيل الأزمة الأخيرة حول أوكرانيا إلا بإشارات مكثفة لمخاطبة العقول لأن المفارقة هائلة حيث يجري كيل الاتهامات لروسيا بأنها تشكل خطرا على الأمن الأوربي والأمريكي في حين باتت قوات حلف الناتو على الحدود الروسية مباشرة ناهيك عن حصارها لروسيا جغرافيا من الغرب والجنوب، وكذلك من الشرق بعشرات القواعد الأمريكية في اليابان وكوريا الجنوبية وحتى في آلاسكا أقصى الشمال الغربي أي من جميع الجهات تقريبا. من ناحية ثانية ليس لدى روسيا سوى بضع قواعد فقط لا تتعدى عدد أصابع الكفين معظمها في الواقع بُنى تحتية عسكرية في الجمهوريات السوفييتية السابقة، واثنتان في

سوريا نتيجة الظروف الاستثنائية التي يمر فيها هذا البلد،وقاعدة بحرية صغيرة في السودان لمواجهة نشاط القراصنة الذي تزايد مؤخرا، أما الولايات المتحدة فلديها 750 قاعدة عسكرية في 130 دولة في العالم، فمن يهدد مَن يا ترى؟

في نهاية عام 2021، راحت وسائل الإعلام الغربية تصرخ بصوت واحد روسيا تشكل خطرا على السلم العالمي، وتنوي احتلال أوكرانيا، وتشكل خطرا على الأمن الأمريكي، وبغض النظر عن موقف الذي سيقرأ هذه السطور فأنا لا أتحدث الآن عن تقييم سياسة موسكو وسياسة واشنطن، ولا أريد أن أكون مع طرف ضد آخر، ولكن بودي أن أستنهض الذاكرة قليلا حول أمور تاريخية مشابهة، وكيف كان الرد الأمريكي على وضع مقارب معاكس، فقد هدّد كينيدي عام 1962 بحرب نووية شاملة على الاتحاد السوفييتي إن لم تسحب موسكو صواريخها من كوبا وتفكك قواعدها فيها، رغم أن نشر الاتحاد السوفييتي صواريخه في كوبا كان لهدفين: الأول ردع واشنطن التي حاولت مرارا اغتيال كاسترو، وإسقاط نظامه حتى عن طريق الغزو في عملية «خليج الخنازير»، وعبر التخريب ومحاولة إثارة تمرد أو ثورة لدى الكوبيين في عملية «النمس»، والأمر الآخر هو الرد على نشر الولايات المتحدة لصواريخ متوسطة المدى في بريطانيا وإيطاليا وتركيا،بمعنى أن الاتحاد السوفييتي كان يرد على إجراءات واشنطن ويحاول دعم كاسترو الصديق لموسكو، ولم يكن تصرفا استفزازيا بل جاء بعد تصرفات واشنطن، ومع ذلك استنفر كينيدي قواته فعلا،ووضعت الصواريخ النووية على أهبة الاستعداد، وبدأ حصار كوبا جوا وبحرا إلى أن استجاب نيكيتا خروشوف بعد حصوله على وعد بتفكيك الصواريخ في تركيا وعدم الاعتداء على كوبا [3]، الموضوع شهير لا يحتاج إلى توسع.

ولكن انطلاقا من هذه الوقائع ننظر إلى خارطة الوضع الحالي: ليس هناك أية صواريخ أو قوات روسية قرب الحدود الأمريكية، ولكن هناك أعداد كبيرة من القوات والأسلحة الأمريكية والناتوية حول روسيا وعند حدودها ومياهها الإقليمية مباشرة، ومع ذلك توجه الاتهامات لروسيا بأنها تشكل خطرا على الأمن الأمريكي، مع ملاحظة أن كوبا على الأقل تبعد 170 كيلومترا عن الولايات المتحدة في حين أن أوكرانيا ملاصقة لروسيا، ولا بد من الإشارة إلى أن الوضع في دونباس متوتر منذ عام 2014، وحاولت القوات الأوكرانية مرارا استعادة هذه المنطقة فلم تفلح، وبعد تزايد الدعم العسكري الغربي ووصول كميات كبيرة من الأسلحة حشدت أوكرانيا 125 ألف عسكري قرب خطوط التماس في دونباس، وبات واضحا أنها تستعد لاقتحامها بتشجيع من الناتو على الأرجح، فحشدت روسيا في الجهة المقابلة ولكن داخل أراضيها قرابة 80 ألف عسكري بما يتاخم منطقة دونباس ، بمعنى أن روسيا لن تسمح للقوات الأوكرانية بإبادة قرابة 800 ألف روسي يقطنون هذه المنطقة، والتي لا زالت موسكو تعترف بأنها تابعة لأوكرانيا، ولكن تطالب مع الدول الغربية بتنفيذ اتفاقيات مينسك لضمان أمن هؤلاء السكان وحل الأزمة.

ساآكاشفيلي يمضغ ربطة عنقه

غلطتك الأولى هي الأخيرة

متى يفهم زعماء الغرب أن التعايش السلمي هو الخط الأسلم للبشرية جمعاء، وأن غطرسة القوة العسكرية مع وجود السلاح النووي هي غطرسة جوفاء، فقد جربوا عام 2008 حين شجعوا الرئيس الجورجي ميخائيل ساكاشفيلي اقتحام أوسيتيا الجنوبية ففعل، ولكن النتيجة كانت بأن باتوا بعد أسابيع معدودة يتوسلون لروسيا بأن لا تحتل العاصمة تبليسة، بعد أن سحقت قوات ساكاشفيلي، إنهم يدركون أن روسيا لن ترضى بأن تتم إبادة مواطنيها في الجمهوريات التي انفصلت عن الاتحاد السوفييتي، حيث تسعى هذه الدولة أو تلك لإثبات التبعية لواشنطن بتعميق العداء لروسيا وهي موجودة في خاصرتها.

لذا، فإنّ أية مغامرة في هذا المجال في تشجيع أوكرانيا لشن هجوم على دونباس ستنتهي بكارثة للعالم أجمع، يذكرني ذلك بعبارة كنت أسمعها كثيرا عندما كنت ضابطا أؤدي خدمة العلم، وهي موجهة لمن يعملون في تفكيك الألغام وإبطال مفعولها تقول: «غلطتك الأولى هي الأخيرة»، فالوضع أكثر من خطير وآمل أن يكون القرار بيد العقلاء، وروسيا تستطيع سحق القوات الأوكرانية إن تجاسرت وبدأت الهجوم كما فعل ساكاشفيلي الذي يُشك بتوازنه العقلي، ويلقب بماضغ ربطات العنق وكان منحازا بشكل غير معقول لواشنطن وللناتو [4]، وموسكو حتما لا تريد ذلك وخطورة الوضع تتأتى من وجود قوات عديدة ومدمرات وطائرات إن ساهمت سيكون لها ذات المصير لأنها مهما تزايد عديدها فهي بعيدة عن أوطانها لتأمين الإمداد في حين أن روسيا فوق أراضيها، وتستطيع تحريك قواتها بسرعة إن لزم الأمر من كل مكان وحشد عدة ملايين تحت السلاح، وبالتالي تستطيع تأمين الانتصار الآني والموضعي، ولكن لن ينتهي الأمر بانتصار حاسم ونهائي لأحد الطرفين هذا مستحيل، ماذا يعني هذا؟ إما التضحية بأوكرانيا وإما وقوع الحرب النووية، وفي الحرب النووية لا يوجد منتصر، بل يوجد دمار شامل للبشرية، وشتاء نووي مديد.

التعاون مع النازيين الجدد

شخصيا أرجح أنّ تهاون غورباتشوف ويلتسن ووصولهما حد الاستسلام لرغبات واشنطن فتح شهيتها خاصة بعد الحصول مجانا على المنشآت والبنى التحتية الي كانت لحلف وارسو، وتم تحويلها إلى ملكية حلف الناتو كما ذكرنا آنفا، وذلك بدخول دول الكتلة الشرقية في هذا الحلف، وبالتالي سال لعاب الناتو وراح يشجع القوميين الأوكرانيين ليتشددوا أكثر ضد موسكو، ووعد كييف بالدخول في حلف الناتو، وبالتالي تخيل قادة الناتو أن القرم ستكون لهم أيضا،ومعظم سكان شبه الجزيرة من الروس،وفي القرم قاعدة روسية بحرية جبارة حتى أن مدينة سيفاستوبل مدينة عسكرية بامتياز، وفيها قاعدة أسطول البحر الأسود الروسي[5]، وظن الغرب أن الأمر سيكون على غرار مواقف غورباتشوف ويلتسن «الانسحاب بهدوء وطاعة عمياء»، لكن بوتن خيب أملهم برد حاسم وأجرى استفتاء في القرم وصوت السكان بنسبة تزيد عن 95% لصالح العودة إلى روسيا، كان ذلك عام 2014 بعد انتصار القوميين المتشددين في كييف بمساعدة مباشرة من الغرب والولايات المتحدة حتى أن فيكتوريا نولاند مساعدة وزير الخارجية الأمريكية آنذاك كانت توزع البسكويت والفطائر علنا على المتظاهرين في ساحة كييف، كما نزلت إليهم كاترين أشتون مسؤولة السياسة الخارجية في الاتحاد الأوربي لتشجيعهم ضد الرئيس يانكوفيتش لأنه لم يوقع على اتفاقية الشراكة مع الاتحاد الأوروبي.

أشير إلى أنّ أوكرانيا كانت أول المساهمين بتفتيت الاتحاد السوفييتي، ومع ذلك ظلت العلاقات بين موسكو وكييف مسالمة وغير تناحرية، لكن دعم الغرب لليمين المتطرف وحتى من يُعتبرون من النازيين الجدد أمر محير فعلا، فقد عانت أوروبا نفسها من النازيين في حين كرمت أوكرانيا رموزهم في منظمة القوميين الأوكرانيين الذين تم إحياء تنظيمهم وبات مسيطرا وتجوب تجمعاته الشوارع وهم يحملون المشاعل ويرددون الشعارات النازية بل إلى الرئيس يوشينكو كرم زعيمهم باندیرا بعد وفاته بستين عاما وأعلنه بطلا قوميا[6].

والحقيقة أن تصرفات الأوكرانيين المتشددين الذين تطلق عليهم تسمية «النازيون الجدد» كانت مرعبة تماما دفع إلى تمترس السكان في دونباس والذين أغلبهم من الروس وأعلنوا الانفصال، تكرس ذلك بعد أن قام اليمينيون المتطرفون بإحراق المتظاهرين المناوئين للسلطات الجديدة وهم أحياء في مدينة أوديسا عندما التجأوا -نتيجة الهجوم عليهم بالهراوات والأسلحة البيضاء- إلى نقابة العمال، أين أوروبا الديمقراطية؟ [7]

المذهل أن بعض أجهزة الإعلام الغربية نشرت صورا لهذه العملية الشنيعة، دون أي إدانة بل بما يوحي بالتشفي من خلال التعليق حيث توحي بأنها تؤيد هذا العمل مثلا: «المواطنون في أوديسا يحرقون الانفصاليين» (هكذا) فلنحلل هذه العبارة نفسيا المواطنون كلمة تحمل مضمونا إيجابيا أما الانفصاليون فهي كلمة تحمل مضمونا سلبيا وبالتالي يكون فعل الحرق مبررا في السياق، فليكن موقفك كما تشاء، ولكن لا يجوز مثلا أن تعلن على الملأ أن أوباما أشقر وترامب أسود، هناك أمور تفقأ العين بوضوحها فإلى جانب هذا العمل «الحرق أحياء» الذي يذكر فعلا بما كان يقوم به النازيون والفاشست هناك معزوفة مذهلة مفارقتها وكونها نقيضا عن الواقع، وهي الزيف الإعلامي «كل ذلك يبين فعلا أن الإعلام هو الجيش الأقوى»، تقول هذه المعزوفة الإعلامية أن الرئيس السابق يانكوفيتش- رغم أنه لا يعنيني بشيء- استخدم القوة ضد المتظاهرين في كييف وأطلق عليهم النار.

زيف إعلامي مذهل حقا، ذاك أن الذي حدث هو عكس ذلك تماما، فقد كنا نتابع المشاهد التي ينقلها الإعلام الغربي نفسه حيث كان رجال الأمن يتعرضون للضرب والإهانة غير المعقولة، وكان المتظاهرون يقذفونهم بالزجاجات الحارقة في مشهد مقزز لدرجة أن قسما كبيرا من مؤيدي يانكوفيتش باتوا يشتمونه، ويتساءلون لماذا يرسل قوات الأمن لحماية المؤسسات طالما يمنعهم حتى من الدفاع عن أنفسهم؟[8]

وأوضح أنني شخصيا أعتبر يانكوفيتش واحدا من الرأسماليين الجدد ولا يختلف عنهم في شيء في المجال الاقتصادي.

في هذه الظروف، لم يكن بوتن سباقا بقدر ما كان مضطرا لعمليات الرد والترقيع ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وكان الغرب يسرع الخطا الهجومية، ويمارس سياسة الهيمنة والتوسع باسم حرية الدول في اختيار حلفائها، وحقها في الدخول بأية أحلاف، ونشر ما تريد من الأسلحة على أراضيها « لكن ذلك كاد أن يشعل حربا نووية حين نصب الاتحاد السوفييتي صواريخه في كوبا، ليس في ذلك مفارقة مذلة بغض النظر عن مواقف هذا وذاك؟

المتظاهرون في كييف
يهاجمون رجال الأمن

المتظاهرون يحرقون سيارات الأمن أوكرانيا

استخلاصات مكثفة

أولا- ان انهيار الاتحاد السوفييتي كارثة إنسانية لكل شعوب الأرض، والتحول الذي جرى لم يكن إصلاحا للأخطاء بقدر ما كان تدميرا للجوانب الإنسانية الإيجابية وسحقها لصالح الأغنياء الجدد وتكريس مفارقات طبقية مذهلة، والكادحون والأمميون الحقيقيون لم يشاركوا في عملية الفساد بل انعكست عليهم النتائج الوخيمة لهذا الفساد والأخطاء، ولكن يبدو ألا مفر من ذلك ضمن الظروف التي مر بها الاتحاد السوفييتي والتي أرهصت للانهيار، وخاصة بوجود قادة أخذوه جرّا وعنوة إلى هذا المصير.

يمكن أن نلاحظ اليوم بوضوح أن روسيا بعد عام 2000 بدأت تتغير كثيرا، وباتجاهات إيجابية، أهمها أن يوتن تمكن من الحفاظ على وحدة روسيا التي كانت تسير أيضا في إطار التمزق، وقد زال الكثير من مظاهر الرعب والمافيات وعمليات السلب والنهب ليس لأن الناس تغيرت أخلاقهم فجأة، بل لأن سرقة البلد قد تمت منذ أواسط الثمانينات واستُكملت في التسعينات، والذين سرقوا ونهبوا باسم الإصلاحات في البداية سرعان ما شكلوا فيما بعد نظاما رأسماليا «وحشيا» عليه أن يحمي نفسه ليعيش ويسيطر، والحقيقة أن قسما غير قليل من الناس تهادن مع ما آلت إليه الأمور وخاصة في المدن الكبرى.ورغم ذلك لا يزال الغرب يخشى من احتمال إحياء الاتحاد السوفييتي حتى

أن فيكتوريا نولاند مساعدة وزير الخارجية الأمريكية أعلنت مؤخرا في جلسة استماع في مجلس الشيوخ أن هناك مخاوف من أن يسعى بوتن لإحياء الاتحاد السوفييتي [9].

ومع ذلك يجب أن نفهم حتى على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والأممي وفي إطار السياستين الداخلية والخارجية أن روسيا ليست الاتحاد السوفييتي، ولن تكون، ولكنها أفضل بما لا يقاس من مرحلة غورباتشوف ويلتسن اللذين استطاعا إنجاز مهمة تاريخية رهيبة بالغة الحساسية، وهي القضاء على الاتحاد السوفييتي والاقتصاد الاشتراكي، وأعتقد أن على الغرب أن يُقيم لهما التماثيل تخليدا لما قاموا به لصالح عدو الاتحاد السوفييتي.

ثانيا- تخلصت روسيا اليوم من التبعية المذلة للغرب والولايات المتحدة، واستعادت دورها على المسرح الدولي كقوة عظمى، وهذا الواقع هو الذي شحن الغرب مجددا لمناصبتها العداء، رغم أنها باتت دولة رأسمالية، وهي لا تهدد أحدا، ولم يعد لحلف وارسو وجود، ومعظم دوله باتت في الناتو نفسه، وليست جيوش روسيا التي تقترب من حدود الدول الغربية بل العكس تماما قوات الناتو اليوم ترابض قرب الحدود الروسية مباشرة، وهذا من أفضال غورباتشوف ويلتسن.

ثالثا- كثيرا ما يلوم اليساريون الدول الغربية والولايات المتحدة على تدمير الاتحاد السوفييتي، والمنظومة الاشتراكية، ولو نظرنا إلى الأمور بموضوعية لأدركنا أن هذا دورهم الطبيعي ، وسيكون غريبا جدا ألا يدعموا ويمولوا هذا الاتجاه مع ظهور قيادات مستعدة لتنفيذ مخططاتهم، من جهة ثانية ساعدت واشنطن والغرب عموما على إنجاز هذا التدمير الذي قام به القادة السوفييت أنفسهم ثم الروس وبحماس منقطع النظير، فلنعترف أن الاتحاد السوفييتي خسر هذه المعركة، وقد مهدت لذلك الأخطاء وممارسات الفاسدين، ولكن الفكر الاشتراكي الأممي إن خسر معركة فإنه لم يخسر الحرب طويلة الأمد في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية التي ستبقى مطلبا عادلا ومشروعا لشعوب الأرض قاطبة، والتي ستتابع نضالها لتحقيق هذا الهدف، وتعميق التواصل الإنساني الأممي ولو عبر تطوير بعض الشعارات والأساليب بحيث تتناسب مع إيقاع العصر.

الاتحاد السوفييتي كان معقلا رائعا لكل المضامين الإنسانية الجميلة، وليس صحيحا على الإطلاق ما أشيع عن أن الفساد هو السمة الرئيسية للاتحاد السوفييتي، إن الفساد في كثير من الدول الأوربية وغيرها أكثر بما لا يقاس وأعمق غورا ناهيك عن أن بعض المظالم النوعية لها صفة قانونية في الكثير من البلدان بتسميات مختلفة كمصطلح معاداة السامية الذي يحاسب ويحاكم باسمه أي صوت منصف يتعاطف مع الشعب الفلسطيني وينتقد الممارسات الإسرائيلية بما في ذلك زج عشرات الآلاف في السجون باسم الأمن الإسرائيلي، وكذلك اضطهاد الملايين من الأقليات في بعض البلدان التي انفصلت عن الاتحاد السوفييتي، وحرمانهم من التعلم بلغتهم الأم ومعاملتهم كدخلاء لا كمواطنين بل كبشر من الدرجة الثانية، تحت مسميات صيانة مجتمع وسيادة هذه الدولة أو تلك.

لقد حافظ الاتحاد السوفييتي على الأقل على المكاسب الهائلة للجماهير في المجال الإنساني العام والحياتي الهام جدا كالطبابة والتعليم والاعتناء بالشباب والأطفال والأدباء بشكل لا مثيل له في العالم إلى جانب مساعدة عشرات الشعوب من منطلق أممي «رغم الأخطاء»، وكان يضمن حتى تأمين الاستجمام بأسعار « رمزية مضحكة» إذا ما قيست بالأسعار الأوربية» ، وقد تم تشويه الاتحاد السوفييتي بتضخيم الأخطاء عشرات المرات حتى بدأ الغرب الذي تعيش على هامش مدنه تجمعات الفقراء المنبوذين وكأنه الجنة الموعودة على ألسنة الحملة الدعائية الهائلة ضد الاتحاد السوفييتي.

لهذا أوضّح أن تناولي في الحلقات الأخيرة للأوضاع في روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي هو تناول مختصر جدا وانتقائي، لأن الحديث عن ذلك يحتاج إلى مجلدات عديدة وباحثين مؤرخين، أما أنا فأقدم انطباعاتي حول ما جرى، لكنها انطباعات عن واقع ومسار موضوعيين، وقد تناولت بدقة شبه توثيقية بعض أهم الجوانب والمتغيرات التي أعتقد أن عليَّ نقلها، وألا تغادر معي لكي يتم استيعاب دروسها.

وربما علينا نحن اليساريين- مستفيدين من نهجنا الموضوعي

العلمي- أن نقدم بكل صدق تجاربنا وانطباعاتنا للأجيال التي ستأتي بعدنا ليستفيدوا من الدروس التي مررنا بها خاصة أننا كنا شهودا على عملية تشويه مذهلة ستستمر ذيولها على معظم الشعوب لعدة عقود.

ذاك أنّ الفساد بالنسبة لأية سلطة أخطر بكثير من العدو الخارجي لأنه مرض داخلي، والفاسدون هم المؤهلون أكثر من غيرهم للخيانة، والعمل مع استخبارات الأعداء للحصول على بعض الامتيازات المادية، ولذلك يجب محاسبة الفاسدين بحسم – وفق القانون- وبشكل علني. وأنا على يقين أن الأخطاء التي ارتكبت في مسار الاتحاد السوفييتي كان يمكن تجنب معظمها لو توفرت الحكمة، وما يكفي من القياديين الواعين الأنقياء، فالمؤامرة موجودة حتما وهذا بديهي، لكن الأخطاء كانت موجودة أيضاما جعل قسما غير قليل من الناس يفعلون ما يمليه عليهم هذا الإعلام الذي ينفذ توجيهات خارجية لتفجير المشاعر القومية والدينية بما يخدم مصالح الغرب المهيمن، فالمظاهرات التي خرجت ضد المنظومة السابقة لم تخرج ترفا أو من فراغ لكنها وُجِّهت بحنكة ومكر، ويبدو -نتيجة الطبيعة البشرية- انه لابد من إجراءات حكيمة وسلمية، وتكريس ما يشبه المعاهداتالاجتماعية السياسية لعملية تبديل السلطات سلميا في البلدان التي تحترم نفسها كل بضعة عقود على أبعد تقدير بما يحفظ النهج التقدمي الذي لا يجب أن يرتبط بأسماء محددة.

وعلينا أن ندرك أن وجود الزعيم الأوحد لفترة طويلة مع بطانته المتنفذة، وعدم وجود قادة محتملين لقيادة المرحلة اللاحقة لأي سلطة، وهذا سيؤدي بالضرورة إلى حدوث صراع غير مبدأي على السلطة بعد وفاة أو ضعف هذا الزعيم، وقد ينشأ صراع دموي يعتمد تشويه كل رموز المرحلة السابقة وتصفية معظمهم كانقلاب بالقوة، وتصوير القادمين الجدد» المنتصرين» كأنصاف آلهة، والمهزومين كأبالسة [10].

أخيرا على السلطة الوطنية التقدمية الواعية فتح كل السبل الديمقراطية للمعارضة الحضارية، والتعامل معها بشفافية فالمعارضة الحضارية الديمقراطية تقدم فائدة للسلطة الوطنية أكثر من الموالاة التي توافق على كل شيء.

أخطاء مرحلة بوتن

أنا أعتقد أن بوتن فعل تقريبا كل ما يمكن فعله في هذه الظروف التي وجد بها كزعيم وطني مخلص، ولهذا أقول أخطاء مرحلة بوتن، وليس أخطاء بوتن بالذات، وطالما نتحدث بموضوعية فهناك مجموعة من الأخطاء ما زالت مستمرة في مرحلته لا يمكن التغافل عنها وعليه معالجتها.

لعل من أهمها استمرار ظاهرة البطالة [11]، وهناك مفارقة الأجور بشكل هائل بين رواتب المتقاعدين التي تكون وسطيا بحدود 15000 روبل شهريا وبعض كبار الموظفين الذين تصل رواتبهم إلى ما يزيد عن المليون، وأكثر بكثير في القطاع الخاص، والمفارقة بين حياة المدينة وحياة القرى، واستمرار وجود أناس تحت خط الفقر وأناس يملكون المليارات،واستمرار سيطرة الأغنياء على قسم كبير من السوق الداخلية والخارجية، ناهيك عن المفارقات بين الأطر القانونية أيام الاتحاد السوفييتي في مجال السكن ونظيراتها في القانون الروسي أيام بوتن الأمر الذي يؤدي إلى كوارث اجتماعية أحيانا،ويدفع ثمن هذه المفارقة بالدرجة الرئيسية الفقراء والمتقاعدون حيث تتم عملية طردهم إلى الشارع بصورة مقززة مريعة وبمساعدة جماعات شبه إجرامية[12].

هل يستطيع بوتن إنقاذهم

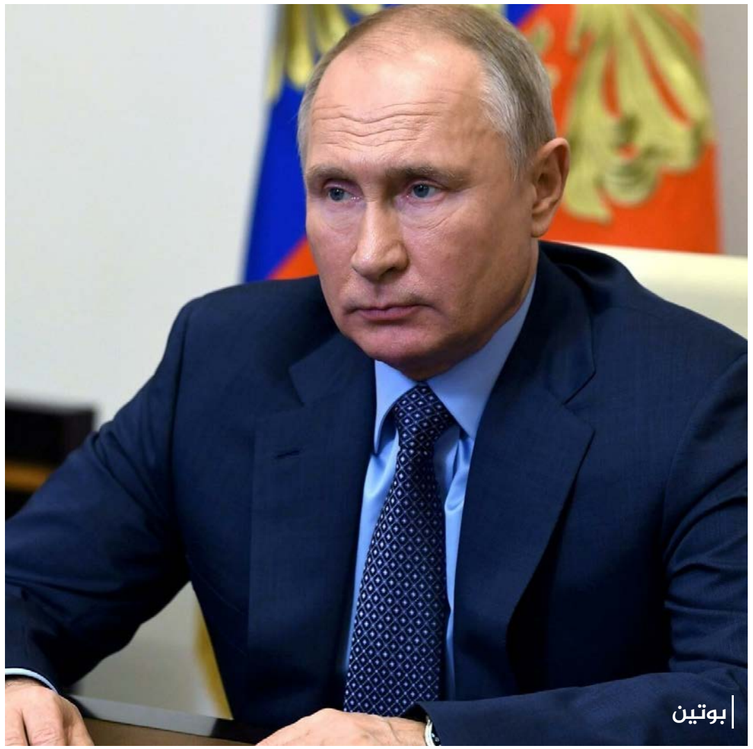
بوتين

لنتوقف قليلا عند هذا الأمر المؤلم الذي يعتبر من أخطر مخلفات مرحلة غورباتشوف ويلتسن، وسأسرد قصة واقعية مررت بها ولم تنته بعد، ولكن أبطالها قد يتعرضون في هذا الوقت بالذات وأنتم تقرأون هذه السطور ربيع أو صيف عام 2022 إلى كارثة حياتية حقيقية:

تجمع عند مدخل المبنى 30» المجمع «4» في منطقة الجنوب الغربي من موسكو أكثر من عشرين شخصا معظمهم من النساء ومعهم بعض الأطفال، وهم من أسر الذين كانوا يعملون في دار النشر الشهيرة « دار التقدم» التي كانت إحدى أكبر دور النشر في العالم، وقد تم التعاقد معهم من قبل وزارة الإعلام والنشر السوفييتية كمترجمين من مختلف دول العالم آنذاك، وقُدمت لهم هذه الشقق للسكن، ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفييتي انهارت مؤسسات كثيرة بما في ذلك هذه المؤسسة، ولم تتمكن دار النشر المنهارة بالطبع من تأمين نفقات إنهاء الخدمة ومصاريف السفر للمترجمين وأسرهم، وبدأ هؤلاء المترجمون يبحثون عن عمل آخر، وحصل معظمهم على الجنسية الروسية، وظلوا بالطبع في شققهم حيث كانت جميع الشقق من ملكية الدولة، وتابعوا كبقية المواطنين دفع الأجور ومصاريف الماء والكهرباء والتلفون للدولة.

استمر ذلك أكثر من ثلاثين عاما، كبر أولادهم وشكلوا أسرا روسية جديدة وبات لديهم أحفاد، وبعد قرابة 15 عاما من انهيار الاتحاد السوفييتي صدر قانون السكن الروسي الجديد عام 2005 ، والقضية ليست في صدور هذا القانون بل في التعامل مع الساكنين بموجب قوانين الاتحاد السوفييتي وكأن الاتحاد السوفييتي مات ومات معه هؤلاء الناس، ورغم انتهاء المدة القانونية للتملك حسب قرار المحكمة، حصل قسم إدارة أملاك العاصمة على صك التملك بطريقة ما.

وبعد أن انتشرت الملكية الخاصة وسمح للمواطنين بخصخصة شققهم- أي تملكها- تمكن بعض العاملين سابقا في دار النشر هذه من تملك الشقق "بطريقة ما» وظل آخرون يدفعون رسوم الإيجار وغيرها من المصاريف،لكن ممثلي قسم إدارة أملاك العاصمة قاموا بغارات وحشية بمساعدة شركات أمنية خاصة أرهبوا السكان حقا [13]، واقتحموا بعض الشقق بالفعل.

وللحقيقة فإنّ الشرطة تدخلت لمنعهم من اقتحام الشقق طالما لا يوجد قرار من المحكمة بعد، الوضع بات أشبه بحرب نفسية ومصيرية، فقرار المحكمة يمكن أن يظهر لصالح أملاك العاصمة حتما بمجرد أن يعرفوا معطيات هويات السكان.

توجّهنا إلى النائبة عن الشعب «يلينا « وتوضّح من حديثها أنّ إدارة أملاك موسكو قد تتمكن بالفعل من رمي هؤلاء السكان إلى الشارع تعللا بالقانون الروسي حول السكن الصادر عام 2005 والذي يتيح التسجيل في الشقق إن كان لدى الساكن عقد آجار اجتماعي، وللحصول على هذا العقد لابد من أن يكون الساكن مسجلا في الشقة، تخيلوا منطق اللامعقول (للحصول على العقد يجب أن تكون مسجلا، وللتسجيل يجب أن يكون لديك عقد إيجار اجتماعي)، والمتعاقدون زمن الاتحاد السوفييتي ليس لديهم لا هذا ولا ذاك، فقد كان عقدهم مشترك مع وزارة الإعلام السوفييتية، أي أنهم وضعوا هؤلاء الناس في حلقة مغلقة ، عقلية مسرح العبث تماما، ذكرتهم النائبة بأن روسيا وريثة للاتحاد السوفييتي، وهؤلاء سكنوا بشكل قانوني، وأشارت حتى إلى إيعاز رسمي من عمدة موسكو بضرورة معاملة أمثال هؤلاء وفق ظرفهم الموضوعي، كونهم ليسوا مسؤولين عن عدم وجود الوثائق اللازمة المطلوبة وفق القانون الجديد عام 2005 حتى أنه كتب عبارة «لا يجوز طردهم من شققهم»، ثم تنهدت وقالت بحرقة: إنهم مصممون وقد يقطعون الماء والكهرباء عن السكان حتى لو كان من بينهم عجائز يحملون أوسمة الدفاع عن الوطن، فالوليمة كبيرة، قالت السيدة «ن» القرش يشم رائحة الدم على بعد عدة كيلومترات إنهم من سمك القرش، ونحن ضحاياهم وقد باتوا على بعد مئات الأمتار منا لا الكيلومترات، هزت النائبة رأسها وقالت للأسف القوانين السوفييتية لم تعد تعمل.

مسرحية في انتظار غودو
لصموئيل بيكيت

المغنية الصلعاء في موسكو تنتظر غودو

لدى عودتنا في قطار الميترو قالت السيدة «ن» لماذا ضحكتْ عندما استفسر مساعد النائبة عن عنوان السكن؟ فقلت لها غصبا عني فقد كان كل واحد منا يقول عبارة من هذا العنوان، ويسارع الآخر بذكر العبارة التالية، وبما أننا كنا في جو مسرح اللامعقول ذكرني ذلك تماما بمسرحية المغنية الصلعاء ليوجين يونيسكو [14]، وهي تسخر بمهارة من تحول المجتمع إلى قطيع يعيش حالة اغتراب عميقة لدرجة أن الناس باتوا عمليا بدون ملامح، وليس لهم أي دور في تحديد مصائرهم، وهم ليسوا متأكدين لا من ذواتهم ولا من منطق الحياة والسببية، طبعا كان الأولى أن أبكي لا أن أضحك، فالأقسى من مسرح العبث هو أن يكون الواقع أكثر غرابة وعبثية من مسرح العبث نفسه، كنا نذكر العنوان بالتناوب كما في أحد مشاهد تلك المسرحية رغم مفارقة الهدف حيث يجري حوار بين السيد والسيدة مارتن يحاول فيه كل واحد منهما أن يتذكر أين رأى الآخر، وبالتالي يبدآن بإحضار الشواهد واستهاض الذكريات من ركوبهما القطار نفسه، والعربة ذاتها وفي مقعدين متجاورين « كما نحن الآن في قطار الميترو» إلى أن يصلا إلى تحديد العنوان «كما كنا نفعل عند النائبة» فيقول السيد مارتن أنه يقطن في الشارع الفلاني فتؤكد السيدة مارتن أنها تعيش في الشارع نفسه، وتذكر المبنى فيستغرب السيد مارتن لأنه

يقطن في المبنى ذاته، ويذكر لها رقم شقته فتؤكد له أنها تعيش هناك أيضا، فيقول أن غرفة نومه تقع في نهاية الممر بين الحمام والمكتبة فتندهش لأن غرفتها أيضا هناك وسرير نومه وسرير نومها عليه لحاف أخضر.

إنها سخرية ما بعدها سخرية من واقع الاغتراب وفقدان الذات في مجتمع ما بعد الحرب العالمية الثانية، أما هنا فقد أعادنا قانون 2005 الذي كرس ما فعله بالشعب السيدان غورباتشوف ويلتسن برأسماليتهما الوحشية، فهل يفلح الرئيس بوتن في إنقاذنا من هذا اللامعقول والعبث، وقد سُنَّ هذا القانون في عهده، لكنه أكد أن روسيا وريثة الاتحاد السوفييتي، وممثلو أملاك موسكو يعتبرون أن الذين عملوا وفق قوانين الاتحاد السوفييتي لا يستحقون الحياة، أم أنه غير قادر ومنطق المغنية الصلعاء سيبقى سائدا وانتظارنا للعدالة أشبه ما يكون «بانتظار غودو» بلا جدوى [15]، والمؤلم أن الرسائل التي توجه حتىإلى الرئيس بوتن لا يطلع عليها بنفسه بل يحولوها الموظفون في الكرملين إلى أملاك العاصمة التي تتشكى الرسالة من تصرفاتها.

والغريب ولا أدري كيف أفسر ذلك، أنني في مرحلة الشباب الأولى كتبت وأخرجت مسرحية عرضتها في البيوت القديمة الشعبية في حلب وهي مسرحية محاكمة المواطن «س» الذي يقبض عليه رجال الأمن مستلقيا في قبر مستسلما «لسلطان النوم»، وكان قد أضاع ملامحه وبيته وعنوانه ولا يهتم أحد بأنه بلا سكن أو عنوان، بل يحاكم لأنه كان مستسلما لسلطان النوم، أي لسلطان آخر لا يحكم البلد [16].

مثل هذه الأمر لم يكن ليحدث على الإطلاق زمن الاتحاد السوفييتي، رغم الظروف العصيبة التي مر بها، وخاصة ضائقة الوضع السكني الذي استمر عشرات السنين لنتذكر رواية باسترناك الدكتور جيفاكو حيث كانت السلطات الجديدة مضطرة لتسكين المشردين والأسر التي ليس لديها مأوى في البيوت الكبيرة، وفي زمن الاتحاد السوفييتي كانت أملاك الدولة تسعى لتسكين المواطنين وتأمين شقق لهم حتى في شقق مشتركة نتيجة الأزمة السكنية، أما اليوم فهي ترمي بكل بساطة حتى العجائز إلى الشارع، ويقال أن هذه البيوت في معظم الأحيان يتم تحسينها وبيعها، والله أعلم. هذه مشكلة الآلاف من المتعاقدين مع الدولة أيام الاتحاد السوفييتي والسيدة «ن» مع أسرتها مهددة بالطرد إلى الشارع قريبا.

أنهي هذا الكتاب في وقت تمر فيه الذكرى الثلاثون لانهيار الاتحاد السوفييتي ما ترك حسرة في قلوب قسم كبير من سكان الأرض، وأدرك معظمهم حجم المأساة بعد ذوبان جليد الدعايات والمبالغات، وهم يشعرون في الوقت نفسه بحجم الإثم الذي يتحمله الفاسدون والقادة الذين طعنوه من الظهر، أمّا أنا فقد أمضيت ليلة رأس السنة في ذاك العام حزينا كسير القلب والخاطر، كان البرد قد توغل إلى أعماقي.

فكتبت هذه القصيدة:

”

قُلْتُ اصْمُتي وَمَضَيْتْ
وَصَفَقْتُ بابَ البَيْتْ
بِالوَجْدِ مُبْتَعِدا
ما أنْتِ ذاك الوَهْجْ
أيّامَ كانَ الثَّلْجْ
بِالْحُلْمِ مُتَّقِدا
الْبَرْدُ في الأحْداق
نَفَقٌ مِنَ الْحَلَقاتْ
كَأنيْنِ رَجْعِ صَدىْ
لا الدَّمْعُ يوقِفُنيْ
لا شاطئُ الذِّكْرىْ
لا قُبْلَةٌ أُخْرىْ
لَنْ نَلْتَقيْ أبَدا
هذا النِداءُ صَقيعْ

فِـيْـهِ الـجَّـلـيـدُ مَـدى
حَـتـّى الـرَّجـاءُ نَـجـيـعْ
ينساب مَـحْـضَ سُـدىْ
وَدَّعْـتُـهـا وَمَـضَـيـتْ
وطَـوَيْـتُ ذاكِـرَتـيْ
أحْسَـسْـتُ إعصـاراً قد طافَ في رئتيْ
الْـبَـرْدُ في الساحاتْ
بشوارعِ الحاناتْ
أرْتَـجُّ كالْمَـحْمـومْ
الريحُ ريحُ سـمومْ
كالسـوطِ في عُنُقيْ
بفؤاديَ المكلومْ
في آخرِ الرمَقِ
وأشـدُّ رجفاً مِعطفيْ

وأغـوصُ فيهِ وأختفيْ
البـردُ حتى في الفِراءْ
البـردُ في جوفِ المعاطفْ
أنّـى التفتُّ إلى الوراءْ
تنسـلُّ أفواجُ الزواحفْ
فوقَ الدروبِ لسـانُها
وذيولُها فوقَ الدروبْ
وأنـا بِها ما زلـتُ مهموماً ألوبْ
أتسوَّلُ النظراتْ
لو بسـمةً كعَزاءْ
البـردُ في وهمِ العَزاءْ
في بسمةِ الودِّ
والزمهريرُ رِداءْ

خاطـوهُ من جِلدي
أهفو إلى الإنسـانْ
فلعـلَّ دفءَ حنانْ
في حومةِ الحشـدِ
أعـدو إلى التيارْ
كمواكبِ الرعدِ
البردُ في الأجسادْ
في البـرقِ في الأعيادْ
في الحلـمِ ... في الوعدِ
حتـى بحضنِ حنانْ
في ضمةِ النسـيانْ
قد فـحَّ كالثُعبانْ
لا نبـضَ في الجُثمانْ

البـردُ في النهدِ
أمضـي إلى بيتي
للنـارِ في الوقدِ
البـردُ في النيرانْ
في شـعلةِ الزيتِ
في الأرضِ في الجدرانْ
كطلاسمِ الموتِ
أنـدسُّ تحتَ الأغطيةْ
وبتلسـمانِ الأدعيةْ
الآنَ أدركُ ما بيا
رحماكَياربي
البردُ ليـس يُحيطني
البـردُ في قلبي [17]

المصادر:

[1]انظر موقع قناة RT بالعربية « بوتن يتحدث عن تجربته كسائق تاكسيخاصا بالتسعينات

[2]الموقع السابق: «بوتين يكشف عن تسلل الاستخبارات الأمريكية إلى المنشآت النووية الروسية في تسعينيات القرن الماضي»

[3]انظر BBC news عربي https://www.bbc.com/arabic/world-54500590

[4]درس ساآكاشفيلي الحقوق في أمريكا وعمل في نيويورك في مكتب محاماة في التسعينات، بعد عودته إلى جورجيا انخرط في العمل السياسي وغدا رئيسا للجمهورية منذ عام 2004 حتى 2013 حيث فر من البلاد ووُجهت إليه تهم جنائية عدة، وقد التجأ إلى أوكرانيا وشغل عدة مناصب فيها... صورة ساآكاشفيلي

[5]كان الزعيم السوفييتي خروشوف قد أهدى شبه جزيرة القرم إلى أوكرانيا إداريا عام 1954 باعتبارها داخل الاتحاد السوفييتي، ومن أشهر الحوادث التي تنسب إليه أنه راح يضرب منبر الأمم المتحدة بحذائه ردا على هجوم مندوب الفليبين على الاتحاد السوفييتي وقد كُشف مؤخرا أن صورته هذه مفتعلة ومركبة... والله أعلم! صورة خروشوف

[6]ستيبانباندیرا- – زعيم القوميين الأوكرانيين مواليد 1909 وقد ساعد القوات النازية التي احتلت أوكرانيا وتم اغتياله في ميونخ عام 1959، أبطل الرئيس يانكوفيتش مفعول قرار الرئيس يوشينكو وألغى صفة البطل القومي عنه لكن النازيين الجدد أعادوا له اللقب بعد انتصارهم صورة باندیرا

[7]صورة حرق المتظاهرين أحياء في أوديسا 2 مايو 2014

[8]المتظاهرون يهاجمون رجال الأمن ويحرقون سياراتهم

[9]انظر موقع قناة RT بالعربية: «نولاند: نخشى أن يقرر بوتن إحياء الاتحاد السوفييتي»

[10]من أخطر مظاهر الحياة السياسية في العالم الثالث أن الزعيم يحتل المركز الأول والمكانة الأولى ولا وجود واقعيا للمركز الثاني والمكانة الثانية المحتملة بل الانتقال عادة يكون من المركز الأول إلى الثالث أو الرابع أو الخامس من حيث القدرات وتسخير الإمكانيات بمعنى لا يوجد بديل لهذا «العظيم»، وكأن الأمة عاقر!

[11]وفق الإحصاءات الرسمية تبقى نسبة البطالة بحدود خمسة بالمئة وقد ازدادت هذه النسبة بسبب جائحة كورونا

[12]ظهرت في روسيا تقليدا للعالم الغربي الشركات الأمنية الخاصة للحراسة والمساعدات الأخرى، ومعظم عناصر هذه الشركات من رياضي الألعاب القتالية وموظفي الأمن السابقين ومن أصحاب السوابق! ويرمز إليها بالحروف التي تبدأ بها كل كلمة من التسمية!!! «Частное охранное предприятие»ЧОП أي شركة الحراسة الخاصة

[13]صورة لبعض عناصر شركات الحراسة الخاصة مع أحد رجال الشرطة

[14]المغنية الصلعاء مسرحية عرضت في باريس عام 1950 للكاتب الفرنسي من أصل روماني يوجين يونيسكو والمغنية الصلعاء لا تظهر أبدا إلا من خلال عبارة عبثية أيضا حين يسأل عنها فيكون الجواب أنها ما زالت تمشط شعرها كالسابق والمسرحية تعبر عن فقدان الإنسان لذاته وسقوط القيم وحتى المنطق والسببية! ومن المفارقات الطريفة العبثية أن اسم المسرحية كان المعلمة الشقراء لكن أحد الممثلين نطق أثناء البروفات الاسم خطأ «المغنية الصلعاء» فراق ذلك للمؤلف وأطلق التسمية على المسرحية!

[15]في انتظار غودو إحدى أهم مسرحيات العبث و اللامعقول للكاتب الإرلندي صموئيل بيكت وقد عرضت لأول مرة في باريس عام 1953 تتحدث عن شخصين ينتظران شخصا اسمه غودو ولكنه لا يأتي أبدا، وتبدو حواراتهما عبثية أيضا حتى مع الشخصيات الثلاثة الأخرى، لكنها مع ذلك تترك لدى المتلقي تساؤلات جوهرية حول الرغبة بالخلاص من حالات عيش رهيبة قد يشكل غودو «المُخترَع» الأمل المنشود، كما لدى سكان مبنى السيدة «ن» بأن يأتي المنقذ، وكل الدلائل أن الذي سيأتي هو عناصر أملاك موسكو لطردهم إلى الشارع.

[16]ما يدهشني اليوم أنني في تلك المسرحية التي كتبتها ربما وأنا في العشرين من عمري» وقد يقيت نسخة مسودتها الأولى» قد استخدمت بعض أساليب حوار مسرح العبث واللامعقول مع إعطائها ظلالا سياسية، رغم أنني في تلك المرحلة المبكرة لم أكن قد قرأت شيئا من مسرح العبث، ربما أن لا معقولية الواقع هي التي تدفع الكاتب لمثل هذه الابتكارات!

[17]من مجموعة الحزن الألق وصلاة العاشق الصفحة 93 إلى الصفحة 97

جميع الحقوق محفوظة - الكتيبة
فيفري 2022

علّمني لون الجرح النازف أنّ الأحمر أشرف من كل الألوان

الكتيبة
صحافة جادة و مستقلة
www.alqatiba.com